تاريخ الاستيطان البشري في جنوب الأردن في عصور ماقبل التاريخ

د. خالد أبو غنيمة

« أستاذ مساعد »

جامعة اليرموك / أربد

معهد الآثار والانثروبولوجيا / قسم الآثار

تاريخ الاستيطان البشري في جنوب الأردن
خلال عصور ما قبل التاريخ

يشمل هذا البحث المنطقة الواقعة في الجزء الجنوبي من الأردن ، وبشكل خاص الممتدة من وادي الموجب شمالاً حتى وادي عربة وخليج العقبة جنوباً . ويعتني هذا البحث بمنطقة جنوب الأردن ، إذ أنها تمتاز بتنوع بيئي واستمرارية في الاستيطان الكثيف من العصر الحجري القديم وحتى الفترة الحالية . ويستعرض تاريخ الاستيطان البشري في عصور ما قبل التاريخ في منطقة جنوب الأردن ، من خلال المسوحات والتنقيبات الأثرية التي جرت في المنطقة . ومن وجوه التنوع الجغرافي الكبير في جنوب الأردن، إذ أنه يشتمل على المناطق الجغرافية الثلاث التي تتمثل في الأردن وهي : منطقة المرتفعات الجبلية ، والصحراء ، ومنطقة الأغوار .

وتشير نتائج المسوحات والتنقيبات الأثرية الحديثة إلى غنى الأردن بمواقع عصور ماقبل التاريخ . وعلى الرغم من هذه المكانة الأثرية ، إلا أن الاهتمام بدراسة عصور ماقبل التاريخ في الأردن بدأ متأخراً عن البلدان المجاورة . فبدأ الاهتمام بدراسة مخلفات عصور ماقبل التاريخ في فلسطين بالحفريات التي أجراها ف . تورفيل - بتري (F. Turville - Petrie) في مغارة الزطية عام ١٩٢٥ . وبدأ الاهتمام في سورية مع بداية الثلاثينات مع قدوم الفرد روست (A. Rust) وقيامه بالتنقيب في مغائر يبرود . إلا أن الاهتمام في الأردن بدأ مع حفرية تليلات الغسول ، إلى الشمال الشرقي من البحر الميت، باشراف مالون

وكويبل (Mallon and Koeppel) ، والتي تعـود للألفـين الخـامس والرابـع ق.م وذلك في الفترة الواقعة ما بين ١٩٢٩ و ١٩٣٨ .

المسوحات الأثرية في جنوب الأردن :

وتعتبر المسوحات الأثريـة الـتي قـام بهـا نلسـون جلـوك (N. Glueck) في مناطق شرق الأردن بين الأعوام ١٩٣٠ - ١٩٤٩م من أوائل المسـوحات الأثريـة التي جرت في الأردن . وزار جلوك خلالها العديـد مـن مواقـع مـاقبل التـاريخ ، ولكن ، مما يؤخذ على عمله أنه أشار إلى مخلفات عصور ماقبل التاريخ بمصطلح العصر الحجري دون تحديد[١] . وتلى ذلك المسح الذي قام به ألكس كيركبرايد ولانكستر هاردنج (A. Kirkbride and L. Harding) في وادي رم عـام ١٩٤٧ ، ونتج عنه الكشف عن العديد من المواقع ، ومنهـا مواقـع عـين أبـو نخيلـة[٢] . وتلى ذلك قيام فرانسوا زينور (F. Zeuner) وفريقه بأعمال مسح أثري لمنـاطق متفرقـة مـن شـرق الأردن خـلال عـام ١٩٥٥شملـت منطقـة الأزرق ، ومنطقـة جرش، إضافة إلى وادي رم ، والمنطقة الواقعة إلى شمال خليج العقبـة [٣] . ونتـج عـن المسـوحات الأثريـة الـذي أجرتهـا ديانـا كيركـبرايد (D. Kirkbride) في الخمسـينات في منطقـة البـتراء ، ووادي رم في جنـوب الأردن، وجـرش في وسـط الأردن ، ووادي شـعيب في غـور الأردن اكتشـاف العديد من المواقع التي تعود إلى المرحلة اللاحقة للعصـر الحجـري القديـم والعصـر الحجري الحديث . كما قامت بإجراء تنقيبات أثرية في موقـع عـين أبـو نخيلـة في وادي رم ونتج عن ذلك تصحيح التأريخ الذي اقترحه موسى سـتيكيلس للموقـع (M. Stekelis)[٤] وأعادته إلى العصر الحجري الحديـث، قبـل الفخـاري (ب).

وأشار أندرو جارارد ونيكولاس ستانلي - برايس (A. Garrard and N.Stanley - Price) إلى وجود مواقع أثرية في منطقة وادي رم، وذلك من خلال مسحهما الأثري لوادي رم عام ١٩٧٥[٥] .

كما قام هانس غيورغ جيبل (H. G. Geble) بإجراء مسوحات منهجية ومنظّمة منذ عام ١٩٨١ بهدف اجراء دراسة جيومورفولوجية في المنطقة المحيطة بموقع البيضا ودراسة وتثبيت المواقع الأثرية التي اكتشفتها كيركبرايد سابقاً . كما قام بحفر بعض الأسبار في عدد من مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب »[٦] . واستمر العمل في منطقة البتراء بالمسح الأثري الذي قام به دانيل شيل وهانس - بيتر أوربمان (D. Schyle and H. - P. Uerpman) في منطقة البتراء ضمن مشروع أطلس تيوبنجن عام ١٩٨٣ ، ونتج عنه الكشف عن عدد من مواقع العصر الحجري القديم الأوسط والأعلى والمرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم ، والعصر الحجري الحديث[٧] . وأشار ماكسويل ميلر (M. Miller) ، إلى مواقع تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى ، والأوسط . خلال المسح الأثري لوادي الموجب عام ١٩٧٨ [٨] .

ويعد مشروع المسح الأثري لوادي الحسا الذي بدأه بيرتون مكدونلد (B. Macl Donald) بين الأعوام ١٩٧٩ و ١٩٨٣ ، وأكمله جيوفري كلارك (G. Clark) وفريقه من خلال مشروع العصر الحجري القديم في الضفة الجنوبية من وادي الحسا، البالغ طوله ٧٠كم (Wadil el - Hasa Palaeolithic Project) منذ عام ١٩٨٤وحتى الآن، من أهم المسوحات التي جرت في الأردن، إذ زودنا بمعلومات هامة عن عصور ماقبل التاريخ . ونتج عن هذه المسوحات تسجيل واستطلاع واستكشاف ١٠٧٤موقعاً منها ٥٤٢ موقعاً تعود

لفترات تمتد من العصر الحجري القديم وحتى العصر الحجري النحاسي[٩] . ولكن ، لابد من التنويه إلى إنّ عدداً كبيراً من هذه المواقع لم تحتو إلا على القليل من الأدوات الصوانية . وقام كلارك وفريقه بدراسة أنماط الاستيطان في المنطقة، إذ تناولت دراسته أحجام وتوزيع مناطق الاستيطان ومقارنتها مع مسوحاته في منطقة النقب . وقام بدراسة العلاقة بين أحجام المستوطنات والارتفاعات المختلفة وأحجام المستوطنات ذات المساحات المتساوية والارتفعات المختلفة ، ومساحات المستوطنات المختلفة ذات الارتفاعات المتساوية ، وربط هذا التوزيع بفترات معينة وبالتغيرات المناخية في منطقة جنوب الأردن . وقد بدأ الفريق الأميركي نفسه ، مسحاً جديداً في المنطقة يشمل الضفة الشمالية لوادي الحسا منذ عام ١٩٩٠، نتج عنه اكتشاف عدد من مواقع ماقبل التاريخ[١٠] .

ويعتبر مشروع دونالد هنري (D. Henry) الذي قام به بين عامي ١٩٧٩ و ١٩٨٤ في منطقتي رأس النقب والقويرة في جنوب الأردن، من أهم المشاريع المنظّمة والمنهجية التي درست المنطقة . وقد شارك الباحث في الفريق الأثري المشارك في أعمال المسح في موسمي ١٩٧٩ و ١٩٨٠ ، إذ قام هنري بدراسة أحوال البيئة القديمة لمعرفة أنماط الاستيطان المختلفة في العصور القديمة في منطقتي رأس النقب والقويرة . وتتمثل فيها ثلاث مناطق جغرافية نباتية (البحر المتوسط، وإيرانو - طورانية Irano - Torania وصحارى - سنديان Shara Sindian متجاورة تمثلت في منطقة الاراضي العليا ومنطقة سفوح الهضبة ومنطقة قعر الوادي) . وقد تم تسجيل واحد وسبعين موقعاً أثرياً ابتداء من العصر الحجري القديم وحتى نهاية العصر الحجري - النحاسي ، وحفرت أسبار اختبارية في ١٩ موقعاً[١١] . وأشارت نتائج المسوحات إلى وجود علاقة قوية بين كثافة مناطق

الاستيطان في الفترات القديمة ومستوى ارتفاعها عن سطح البحر . ففي المناطق التي يصل ارتفاعها إلى ١٠٠٠م ، يصل عدد المواقع أعلى نسبة إذ بلغ عددها ثمانية مواقع في الكيلو متر امربع . أما المناطق التي يتراوح ارتفاعها مابين ١٠٠٠ - ١٢٠٠م فإن استيطانها كان خلال إطار بيئات مناخية مختلفة ومتنوعة في الماضي . بينما نجد أن المناطق ذات الارتفاع ٩٦٠م لم تكشف عن أية أدلة على سكنى تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى ، والأوسط ، والأعلى . وتميزت مواقع المناطق المنخفضة بأنها مؤقتة وموسمية ، ومقتصرة على فصول الشتاء الممطرة . أما المناطق المرتفعة ١٢٠٠ - ١٣٠٠م ، فقد استخدمت للسكنى الطويلة خلال فترات الدفء المناخي فقط(١٢) .

وأشار سليمان الفرجات من فريق التنقيب في منطقة الحميمة إلى وجود ثلاثة مواقع تعود إلى العصور القديمة ، منها اثنان يرجعان للعصر الحجري الحديث قبل الفخار (ب) ، والثالث يعود للعصر الحجري القديم(١٣) . وأشرف فريق من دائرة الآثار العامة الأردنية على مسح المنطقة مجدداً من خلال مسح منطقة الطريق الجديد لرأس النقب - العقبة عام ١٩٩١ ، نتج عنه تثبيت وتحديد مواقع جديدة تعود للعصر الحجري القديم ، والعصر الحجري الحديث ، والعصر الحجري النحاسي(١٤) .

كما أجرى و . ج . جوبلنج (W. J. Jobling) مسحاً أثرياً للمنطقة الواقعة بين معان وخليج العقبة اعتباراً من عام ١٩٧٩ ولغاية ١٩٩٠ . وقد شمل المسح وادي عربة وحوض الحسمى ، ونتج عنه اكتشاف مايقارب عشرين بناء دائرياً قليل المساحة أرخت إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري . كما وأشار إلى موقع عين الجمام كأحد مواقع العصر الحجري الحديث ، وتليلات

محطة المدورة ، وجبل أم المقور ، إضافة إلى عـدد مـن مواقـع العصـر الحجـري ـ النحاسي : مثل هضيبة الفلا ، وسيل الحمام ، وتـل الخـرزة . وقـد قـام جوبلنـج بحفـر خندقـين في تـل الخـرزة ، نتـج عنهمـا تمييز ١٩ طبقـة أثريـة واسـتمرارية للاستيطان البشـري منـذ العصـر الحجـري ـ النحاسـي وحتـى العصـر الـبرونزي الوسيط . وقد عصر في طبقات العصـر الحجـري النحاسـي علـى أدوات صوانيـة وعظام حيوانات(١٥) .

وأشار المسح الأثري لمنطقـة جنـوب معـان الـذي قـام بـه ادواردو بورزاتـي (E. Borzati) منذ عام ١٩٨٥ ، إلى وجـود مواقـع تعـود إلى العصـر الحجـري القديـم ، والعصـر الحجـري الحديـث قبـل الفخـاري ، والعصـو الحجـري النحاسي(١٦). كما قام مجاهد المحيسن بمسح أثري لمناطق معان والشوبك ، وعـثر على عدة مواقع تعود للعصر الحجري القديم(١٧) .

وقامت أليسون بتس (A. Betts) بدراسـة الأدوات الصوانيـة الـتي جمعهـا والمسلي وايت (W. White) من عدة مواقع في منطقة معان، ومن داخل الحدود السعودية وأرجعت بعضها إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري(١٨) .

وفي وادي العسال الذي يقع إلى الغرب من الكرك، جرى مسـح أثـري مـن قبل ليندا جاكوبس (L. Jacobs) في عام ١٩٨١ . وتبيّن من المسح وجـود ٩٠ موقعاً أثرياً منها ثلاثة ترجع للعصر الحجري القديم الأوسط ، وواحـد للحجـري النحاسي(١٩) .

ونتج عن المسح الأثري لمنطقة وادي الكـرك بإشـراف أودو فورشـيش (U. Worschech) ابتداء من عام ١٩٨٣ ، اكتشاف وتوثيق عدد من المواقع الأثريـة، منهما اثنان يعودان للعصر الحجري القديم ، وموقع يعود للمرحلة اللاحقة للعصر

الحجري القديم ، وآخر يعود للعصر الحجري النحاسي ، وهو موقع أم سدرة[٢٠] .

وقد شهدت المنطقة الممتدة من البحر الميت شمالاً وخليج العقبة جنوباً ، نشاطاً ميدانياً مكثفاً تم فيه دراسة مناجم تعدين النحاس ومناطق استخراجه الذي بدأ استغلاله في العصر الحجري النحاسي في الألف الرابع ق . م . فقد تم مسح أثري لمنطقة وادي عربة عام ١٩٧٩ من قبل ت . ريكس (T. Raikes)، اشار فيه إلى وجود مواقع تعود للعصور الحجرية القديمة[٢١] . وقامت بعثة أثرية بإشراف بيرتون مكدونلد (B. MacDonald) بمسح منطقة الغور الجنوبي ومنطقة وادي عربة عام ١٩٨٥ و ١٩٨٦ . ونتج عن المسح تثبيت وإعادة تحديد خمسة مواقع للعصر الحجري الحديث ، وثمانية مواقع للعصر الحجري النحاسي ، إضافة إلى مواقع تعود للعصر الحجري الحديث / العصر الحجري النحاسي ، ومواقع للعصر الحجري النحاسي / العصر البرونزي[٢٢]. كما قامت بعثة ألمانية — أردنية بالاستكشاف والتنقيب في منطقة فينان ، بهدف التعرف على أوجه استغلال واستخراج النحاس من مناجم المنطقة[٢٣] .

التنقيبات الأثرية في جنوب الأردن :

كشفت المسوحات الأثرية الآنفة الذكر، عن تسجيل وتدوين عدد كبير من المواقع الأثرية الهامة التي تعود إلى مختلف فترات عصور ماقبل التاريخ . وقد تركز اهتمام المنقبين في جنوب الأردن في اختيار المواقع الأثرية التي تعود إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري (ب) ، كمناطق لإجراء التنقيبات الأثرية فيها . بينما نجد أن المواقع الأثرية التي تعود إلى العصر الحجري القديم ، بأقسامه الثلاثة والمرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم قد تركت دون تنقيب باستثناء

إجراء بعض الأسبار التجريبية . ويبدو أن السبب في ذلك يعود إلى عدم العثور على مواقع داخل الكهوف أو ذات طبقات استراتغرافية . وقد أجريت تنقيبات أثرية منظمة في مناطق متعددة من جنوب الأردن منذ منتصف هذا القرن ، وأستعْرِض فيما يلي هذه التنقيبات بحسب تسلسلها التاريخي .

تعتبر تنقيبات ديانا كيركبرايد في موقع عين أبو نخيلة في وادي رم من أوائل التنقيبات التي جرت في جنوب الأردن . فقد قامت كيركبرايد بحفر عدة مربعات في الموقع بهدف التأكد من التاريخ المقترح من قبل ستيكيلس(٢٤) . كما قامت كيركبرايد بالتنقيب في البيضا بالقرب من البتراء ، وتعتبر التنقيبات التي أجرتها كيركبرايد في هذا الموقع منذ عام ١٩٥٨ من أهم الحفريات التي جرت في مواقع العصور الحجرية في شرق الأردن، من حيث النتائج التي تم التوصل إليها ، والتي كشفت عن ست سويات أثرية تعود للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري (ب) . وأظهرت هذه الحفريات التطور في مجال العمارة من خلال الانتقال من البيوت الدائرية الشكل إلى البيوت المستطيلة . وكشفت عن سوية أخرى تعود للفترة النطوفية . وإضافة لذلك ، فقد درست النباتات القديمة ، وعظام الحيوانات القديمة ، والبيئة في الموقع من قبل الاختصاصيين كل في مجاله(٢٥) .

وقام هنري بحفر عدة أسبار تجريبية في مواقع راس النقب ، والقويرة ، والحميمة كموقع طور صبيحة ، وطور فرج ، وطور عايدة ، وطور حمار ، ومواقع J412, J403, J14 أثناء المسوحات الأثرية التي قام بها اعتباراً من ١٩٧٩ في هذه المناطق(٢٦) . وقامت كريستال بنت (C. Bennet) عام ١٩٧٩ بحفر اسبار استكشافية في موقع الذراع، كشفت عن وجود بعض الحفر السكنية التي تعود للعصر الحجري الحديث الفخاري(٢٧) . وقام إيان كوجيت

(I. Kuijt) ومحاسنة في عـام ١٩٩٤ بتنقيبـات أثرية في موقعـي الـذراع ووادي الويضة ، نتج عنها الكشف عن بقايا معمارية في موقع الـذراع[٢٨] . كمـا قـام جيبل بحفر بعض الأسـبار التجريبيـة في عـام ١٩٨١ في المواقـع الـتي اكتشـفها في المنطقة المحيطة بالبتراء ، مثل الضمان ، وشكارة مساعيد ، والبعجـة ، والثغـرة ، وصبرا « ١ »[٢٩] . وأجرت البعثة المشرفة على المسح الأثري لوادي الحسا عدة أسبار بهدف التأكد من بعض المواقـع المكتشـفة في المنطقـة ، مثـل وادي الحسـا ١٠٦٥ ، ووادي الحسا X ٦٢٣ ، ووادي الحسا X ٧٨٤[٣٠] . وأجـرى لطفي خليل موسمين من الحفريات عامي ١٩٨٥ و ١٩٨٦ في موقـع المقـص بـالقرب من العقبة ، كشـف عـن وجـود مبـان سـكنية في الموقـع تعـود للعصـر الحجـري النحاسي[٣١] . وقامت بعثة أردنية ـــ ألمانيـة مشـتركة بإجراء عـدة مواسـم مـن التنقيبات الأثرية اعتباراً من عام ١٩٨٥ في موقع البسـطة بـالقرب مـن الطفيلـة ، وأسفرت هذه التنقيبات عن الكشف عـن مخلفـات قريـة تعتـبر مـن أكـبر مواقـع الشرق الأوسـط مسـاحة ، وتعـود إلى العصـر الحجـري الحديـث قبـل الفخـاري «ب»[٣٢] . وقام الفريق الأردني المشارك في فريق المسح الأثـري لمنطقـة فينـان بالتنقيب في موقع وادي فينان ٤ خلال موسمي ١٩٨١ و ١٩٨٣ . وقـد شـارك الباحث في التنقيب في موسـم ١٩٨٣ ، وأسـفرت التنقيبـات عـن الكشـف عـن مخلفات معمارية ومادية تعـود إلى العصـر الحجـري الحديـث الفخـاري (الثقافـة اليرموكية)[٣٣] ، وبـدأ الفريـق الأثـري سـنة ١٩٩٣ أعمـال التنقيـب في موقـع الغوير « ١ » ويعود تاريخه إلى المرحلة « ب » من العصر الحجري الحديث قبـل الفخاري[٣٤] .

ومما لاشك فيه أن التحريات الأثريـة وكذلـك التنقيبـات في جنـوب الأردن

لاتزال في بدايتها ، وقد تزودنا التنقيبات مستقبلاً بكثير من المعلومات حول المنطقة وتاريخها . وعلى الرغم من أن مسوحات أثرية شاملة قد جرت في منطقة جنوب الأردن ، وزودتنا بمعلومات غنية عن الفترات القديمة ، إلا أن القليل من المواقع قد جرى فيها تنقيبات أثرية وخصوصاً مواقع العصر الحجري القديم بفتراته المختلفة . وسنقصر حديثنا هنا على المواقع الأثرية التي جرى التنقيب فيها أو تلك التي درست بشكل منهجي منظم .

العصر الحجري القديم الأدنى (جدول رقم ١) (خارطة رقم٢) :

لم يعثر حتى وقتنا الحاضر على أية موقع يحتوي على مخلفات تعود إلى فترة العصر الحجري القديم الأدنى الباكر في منطقة جنوب الأردن، علماً أن منطقة غور الأردن قد احتوت على موقعين هامين يمثلان هذه الفترة ، هما أبو هابيل وأبو الخس ، بينما تمثلت مرحلة العصر الحجري القديم الأدنى الأوسط (الأنشولية الوسطى) بموقعين سطحيين .

وتوجد مواقع المرحلة الثالثة وهي العصر الحجري القديم الأدنى / الأعلى ، في مواقع سطحية مكشوفة في المرتفعات الجبلية المطلة على الوديان والبحيرات القديمة (مثل الحسا والجفر) . وأهم هذه المواقع :

١ - أبو الجرذان(٣٥) :

يقع إلى الشمال من مدينة معان وعلى بعد ٥ كم . تم التعرف على الموقع أثناء المسح الأثري لمنطقة معان بإشراف مجاهد المحيسن عام ١٩٨٦ ، وهو يقع على الجانب الأيسر لوادي الجرذان ، ضمن الترسبات النهرية لوادي الجرذان ،

وهي ترسبات غرينية صفراء اللون تبلغ سماكتها حوالي ١٥م ، أرخها بندر (Bender) إلى فترة البليستوسين المتأخر[٣٦] . وتنتشر ضمنها خمس قطع وجدت في أماكنها الطبيعية . وتمتاز الأدوات الصوانية بوجود المقاشط الجانبية (Side Scrapers) والشظايا الليفلوازية (Levallois Flakes) إضافة إلى المقاشط العلوية (End Scrapers) والمخارز (Borers) . كما تم العثور على خمس أدوات من ذات الوجهين (Biface) منها اثنتان بشكل مثلثي طويل ، ومن النوع البيضوي وقطعة أبيفيلية . واللافت للنظر أن الموقع قد تعرض لعوامل تعرية في المنطقة الشمالية الشرقية . وأرخ الموقع بناء على مقارنة الأدوات الصوانية مع المناطق المجاورة إلى الفترة الآشولية المتأخرة .

٢ ـ الجفر موقع ٧٢[٣٧] :

يقع على بعد ١٢كم إلى الشرق من مخفر الجفر على منتصف الطريق بين معان والجفر . وتشتمل الأدوات التي جمعها زينور من الموقع ، على فؤوس يدوية بالإضافة لشظايا ، وأنوية ، لصناعة الأدوات .

٣ ـ الفجيج[٣٨] :

يقع على بعد ٤كم إلى الشمال الشرقي من قلعة الشوبك . اكتشفت الموقع عام ١٩٧٩ جاري رولفسون (G. Rollefson) . وتنتشر الأدوات الصوانية على مساحة ١٥ دونماً داخل المحطة الزراعية الحالية ، ويشرف الموقع على وادي البستان مباشرة . وكانت الأدوات الصوانية الملتقطة عن السطح وعددها ١٣٤ قطعة من ذوات الوجهين ذات الأشكال المختلفة ، إذ صنف ٣١ قطعة ذات شكل رمحي و ٣٦ قطعة قلبية ، و ٣٧ قطعة بيضوية ، إضافة إلى السواطير ذوات الوجهين جانبية وأبيفيلية . كما تم تصنيف نوع جديد أطلق عليه اسم D

باللاتينية .

وقد ظهرت نماذج مشابهة لهذا النوع في مناطق الأزرق في الصحراء الأردنية، إضافة إلى المقاشط الجانبية والمسننات والثلمات التي بلغ عددها ١٢٣ قطعة . ويؤرخ الموقع للثقافة الآشولية المتأخرة .

٤ـ موقع ج ٤٠١ [٣٩] :

عثر على الموقع عام ١٩٨٠ من قبل هنري بالقرب من وادي كلخة، وهو يرتفع نحو ١٠٠٠م تقريباً عن مستوى سطح البحر ، وتنتشر الأدوات الصوانية على سطح مساحته تبلغ ٤٠٠٠ متر مربع . وتشير دراسة الأدوات التي التقطت عن السطح ، والتي بلغ عددها ٦٦ قطعة منها ٢٧ أداة بأنها تتميز بوجود أدوات ذات الوجهين (Bifaces) القلبية ، واللوزية ، والرمحية الشكل، إضافة إلى الأدوات المشذبة (Retouched Tools) ، والمقاشط الجانبية (Side Scrapers) والثلمات (Notchs) ، والقطع المطروقة (Troncations) ،والمثاقب (Borers) ويشير هنري إلى تشابه الصناعة التي وجدت في الموقع مع تلك التي وجدت في موقع الفجيج من حيث أنهما على نصال (Blades) .

العصر الحجري القديم الأوسط (جدول رقم ٢) (خارطة رقم ٢):

أشارت نتائج المسوحات الأثرية في مطقة جنوب الأردن وخاصة منطقة وادي الحسا ورأس النقب إلى وجود كثيف لمواقع هذه الفترة ، وتم تأكيد ذلك عن طريق الأسبار الاستكشافية والتجريبية التي جرت في بعض هذه المواقع . وقد عثر على المخلفات المادية لإنسان النياندرتال في مواقع مكشوفة ، وملاجيء صخرية ، ولم يتم حتى الآن العثور على كهوف أو مغائر تعود إلى هذه المرحلة. ولابد من التنويه إلى عدم اكتشاف بقايا إنسانية تعود لإنسان النياندرتال في مواقع هذه الفترة في الأردن . وتالياً بعض المواقع التي جرت بها أسبار تجريبية وكشفت عن وجود تراكمات طبقية :

١ ـ طور صبيحة (ج ٨)(٤٠)

يقع على الطرف الغربي لحوض الجديدة ، وهو ملجأ صخري اكتشفه وحفر أسباراً تجريبية فيه هنري منذ عام ١٩٧٩ . وكشفت الأسبار عن ثلاث طبقات تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط ، وكانت الطبقة « ج » أغناها بالأدوات الصوانية ، إذ احتوت على ٩٠٪ من الأدوات الصوانية المكتشفة في الموقع . وتميزت الأدوات الصوانية بالمدببات الليفلوازية (Levallois Points) إضافة إلى المقاشط الجانبية والمقاشط العلوية .

٢ ـ عين الدفلة (وادي الحسا موقع ٦٣٤)(٤١)

ملجأ صخري يقع بالقرب من وادي العلي في وادي الحسا . كشفت الأسبار فيه عن وجود مدببات ليفلوازية طويلة ، تذكرنا بتلك التي وجدت في مغارة الطابون في فلسطين . وكذلك عثر على بقايا حيوانية ونباتية .

العصر الحجري القديم الأعلى (جدول رقم ٣) (خارطة رقم ٣) :

تعتبر مواقع هذه الفترة قليلة كما هو الحال في بقية مناطق الشرق ، وإن كانت منطقة وادي الحسا قد أفرزت عدداً كبيراً من المواقع التي في غالبيتها سطحية . ولم يتم إجراء حفريات أو تنقيبات أثرية في مواقع هذه الفترة ، وإنما جرت بعض الأسبار التجريبية ، وتالياً أهمها :

١ ـ موقع (٦٨١)[٤٢] :

يقع في الجهة الشمالية الغربية من بحيرة البلايستوسين التي وجدت في منطقة وادي الحسا في فترة ماقبل التاريخ . يعتبر هذا الموقع من أهم مواقع هذه الفترة في منطقة جنوب الأردن ، إذ تنتشر الأدوات الصوانية على مساحة تقدر بحوالي ١٢٠٠٠ متر مربع ، وقد عثر على مايقارب ٣٠٠٠٠٠ قطعة صوانية . وتدل الأسبار التي قام باجرائها كلارك في الموقع بأنه استخدم كمخيم غير ثابت (Base - Camp) . تمتاز الأدوات الصوانية بوجود المقاشط العلوية ، والمناقيش، والشفرات ، والشظايا المشذبة الحواف ، والمثاقب ، والمقاشط الجانبية ، والمدقات . وإضافة إلى الأدوات الصوانية فقد عثر على بقايا حيوانية ونباتية . وقد تم تأريخ الموقع بوساطة الحصول على تاريخ كربون مشع ، وكان ٢٠٣٠٠+ من الوقت الحاضر .

٢ ـ موقع ٦٢٣ X[٤٣] :

يقع فوق هضبة صغيرة مستديرة الشكل بالقرب من شاطىء البحيرة القديمة. وهو موقع صغير المساحة إذ تبلغ مساحته ٤ أمتار مربعة فقط . ويعتقد كلارك بأن الموقع استخدم كمكان لتصنيع الأدوات .

٣ـ موقع ٧٨٤x[٤٤] :

وهو ملجأ صخري يقع في وادي الحسا . تتميز الأدوات الصوانية المكتشفة بأنها مصنوعة من النصال ، والنصال الصغيرة ، والشظايا وتكونت من المكاشط العلوية والمناقيش . وتشير هذه الأدوات إلى تشابه مع الأدوات الكبارية أكثر من كونها مرحلة انتقالية بين العصر الحجري القديم الأعلى والمرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم . كما يؤكد التاريخ الذي تم الحصول عليه من عينة إلى ١٩٠٠٠ + ١٣٠٠ من الوقت الحاضر .

المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم (جدول رقم ٤) ، (خارطة رقم ٤) :

تمتاز منطقة جنوب الأردن باحتوائها على مواقع تعود لثقافات المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم سواء الكبارية ، والكبارية الهندسية ، والثقافة النطوفية . وأطلق بعض الباحثين على بعض الثقافات أسماء محلية كالحمارية والكلخية على صناعات صوانية وجدت في بعض مواقع المنطقة مثل الحمارية . وتبدو غالبية المواقع سطحية ، ولم تقم بها حفريات منتظمة ، بل أجريت أسبار تجريبية في بعض المواقع .

١ ـ البيضا[٤٥] :

تقع على بعد ٥كم جنوبي البتراء . أظهرت التنقيبات الأثرية التي اشرفت عليها كيركبرايد ، وجود سوية أثرية تعود للثقافة النطوفية أسفل السويات الأثرية التي تعود للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » . وتمتاز الأدوات الصوانية النطوفية بوجود كثيف للأدوات ذات تشذيب حلوان

(Helwan Retouche) وتشـذيب شـديد الانحـدار (Abrupt Retouche) ، إضافة إلى أعداد كبيرة من المقاشـط العلويـة المصنعـة على نصـال (Blades) ، والمثلمـات (Notches) ، والمسننات (Denticulates) ، إلى جـانب الأدوات القزمية .

٢ـ ج ٢٠٢[٤٦] :

وهو موقع مكشوف في منطقة رأس النقب ، اكتشفه هنري عام ١٩٨٠ أثناء المسح الأثري لرأس النقـب . ودلـت الأسبار التجريبية عن وجود أدوات صوانية تعود للثقافة الكبارية الهندسية .

٣ـ ج ٥٠٤[٤٧] :

يقع بين جبـل المشرق في الشمال وجبـل الميسي في الجنوب. تـدل نتيجة الأسبار الـتي حفـرت عـام ١٩٨٢ على وجـود أدوات صوانيـة تتميز بالمقاشط العلوية ، والأدوات المثلمة ، والأدوات المشذبة ، والأدوات القزمية غير الهندسية.

٤ـ صبرا « ١ »[٤٨] :

يقـع في الجـزء الشـمالي مـن وادي صـبرا وهـو موقـع مكشـوف . أظهـرت الأسبار الاستكشافية التي أجراها شيل عام ١٩٨٧ عن وجود سويتين أثريتين : العليا وتمثل الثقافة الخيامية ، واشتملت السوية السفلى على قطع صوانيـة بلـغ عددها ١٨١٩ منها ٩٨ أداة . وامتازت هذه الأدوات بوجـود كثيـف لـلأدوات القزميـة الهندسية وغير الهندسية للمقاشط العلويـة . وتمتـاز الأدوات القزميـة بتشذيب حلوان ، والذي يميز الفترة النطوفية القديمة .

٥ـ الطبقة (موقع ١٠٢١)[٤٩] :

يقع على الضفة اليمنى لوادي الأحمر على بعـد ٣٠٠م تقريبـاً مـن موضـع

التقائه مع وادي الحسا . تنتشر الادوات الصوانية على مساحة تبلغ ٥٠٠٠ متر مربع . وتميزت الادوات الصوانية التي التقطت عن السطح وعددها ٥٤٥ قطعة بوجود مقاشط علوية ، وأدوات قزمية هندسية ، ومثلمات ، ومسننات .

٦ ـ المدمغ[٥٠] :

ملجأ صخري يقع إلى الشمال الغربي من البتراء . ودلت الأسبار التي أجرتها كيركبرايد في الموقع عام ١٩٦٦ عن اكتشاف بقايا عظام حيوانية وأدوات صوانية تعود للفترة النطوفية ، كما قامت بعثة ألمانية بإجراء أسبار عام ١٩٨٣ ، أظهرت أدوات قزمية غير هندسية .

العصر الحجري الحديث (جدول رقم ٥) (خارطة ٥ و ٦) :

يجمع غالبية العاملين في آثار ماقبل التاريخ على تقسيم هذا العصر إلى مرحلتين ، هما العصر الحجري الحديث المبكر (حوالي ٨٥٠٠ ـ ٥٥٠٠ ق.م) ويشمل مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » ، « ب » والعصر الحجري الحديث المتأخر (٥٥٠٠ ـ ٣٧٥٠ ق.م) ويشمل العصر الحجري الحديث الفخاري (اليرموكية ، المرحلة « أ » و « ب ») .

العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » :

لايزال هذا العصر من أكثر العصور غموضاً ، فالمعلومات المتوافرة عن هذه الفترة قليلة جداً سواء في الأردن أوفي البلاد المجاورة ، والمواقع التي تعود إلى هذه الفترة تعد على الأصابع ولايزال موقعا أريحا والمريبط هما المرجعين الأساسيين لمعلوماتنا عن هذه الفترة . فمن خلال ماعثر عليه في هذين الموقعين نستطيع التعرف إلى خصائص هذه المرحلة وخاصة على عمارة هذه الفترة ، والتي تتميز

بالبناء الدائري والغائر أحياناً في الأردن ، والمشيدة من الطوب أو الحجارة ، وذلك حسب ماهو متوافر في البيئة الجغرافية . وتتمثل هذه الفترة في منطقة جنوب الأردن بثلاثة مواقع هي الذراع ، وجبل القويسي ، وصبرا « ١ » . وتم التعرف على هذه المواقع من خلال رؤوس السهام الخيامية التي وجدت في المواقع. ويبدو أن هذه المواقع استخدمت محطات لخدمة الصيادين الذين كانوا يستخدمون الصيد وسيلة معيشية لفترات قصيرة جداً .

١ـ الذراع[٥١] :

أُكتُشِف الموقع عام ١٩٧٦ من قبل ريكس ، وأظهرت الأدوات الصوانية التي وجدت على السطح وخاصة رؤوس السهام الخيامية أن الموقع يعود إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » . وفي عام ١٩٩٤ قام كوخيت ومحاسنة بإجراء حفرية في الموقع، الذي بلغت مساحته في هذه الفترة حوالي ٤٠٠٠ م٢ أسفرت عن الكشف عن بقايا عمائرية تتمثل ببنائين تحت مستوى الأرض . كما عثر على بقايا بيت دائري مبني من الحجارة ، ويبلغ ارتفاع الجدران فيه حوالي ٨٥سم . وإضافة إلى البقايا العمائرية ، فقد عثر على رؤوس سهام خيامية ومثاقب وقدوم داخل البيوت وخارجها . وهناك تأريخ كربون ١٤ يعطي ٩٩٦٠ + ١١٠ تاريخاً للموقع .

العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » :

تمثلت هذه الفترة بالعديد من المواقع والتي في غالبيتها كانت تشتمل على بقايا عمائرية (خارطة ٦) .

١ـ عين أبو نخيلة :

تقع أطلال هذا الموقع الذي تبلغ مساحته ٥٠ × ٤٥م ، والذي تبدو مخلفاته

المعمارية على الشكل البيضوي غير المنتظم ، ظاهرة على السطح ، على بعد ٥كم جنوب بقايا المعبد النبطي ومركز الشرطة . ويحتوي الموقع على مجموعة من العيون في أسفل جبل رم . اكتشف الموقع عام ١٩٤٧ من قبل الكس كيركبرايد ولانكستر هاردنج[٥٢] ، وقام بدراسة الأدوات الصوانية موسى ستيكليس الذي أرخ الموقع إلى السوية الثامنة لأريحا[٥٣] . وكشفت ديانا كيركبرايد التي قامت بإجراء حفرية تجريبية في الموقع عام ١٩٥٧عن مخلفات معمارية تتضمن نمطين من المباني ، أحداهما دائري الشكل والآخر مستطيل الشكل . ويتألف أحد المباني من غرفة دائرية الشكل مشيدة تحت مستوى الأرض على غرار مباني البيضا ، باستثناء أنه لاتوجد تجاويف للأعمدة في الجدران . وبالإضافة إلى الأدوات الصوانية التي امتازت بوجود رؤوس السهام ، فقد تم العثور على عدد من المخلفات الأثرية كالآلات الحجرية وأدوات الزينة ، وأرجعت المنقبة قلة سماكة المخلفات السكنية في الموقع إلى قصر فترة الاستيطان التي شُغل الموقع خلالها ، وتعتقد بإنه لم يكن مسكوناً على مدار العام ، وإنما كان محطة لأغراض الصيد . ويؤيد ذلك كثرة رؤوس السهام المختلفة ، والتي وجدت بأعداد كثيرة . واقترحت المنقبة إرجاع تاريخ الموقع إلى المرحلة الانتقالية بين العصرين الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » والحجري الحديث الفخاري « أ » (٥٤) .

٢ـ البسطة[٥٥] :

يمتاز موقع البسطة بمساحته الكبيرة ، إذ تبلغ أكثر من ١٤ هكتاراً ، وبطرازه المعماري المتميز ، وبكون القرية قد بنيت حسب تخطيط مسبق . فقد كشفت التنقيبات الأثرية التي جرت في الموقع منذ عام ١٩٨٥ وحتى الآن عن قنوات مبنية من الحجارة الدبش بعرض ٢٠ سم وعمق ٤٠سم ، ولم تكن هذه القنوات مقصورة من الداخل ، ولاتسد الفجوات في جدرانها بأية مواد ، مما

ينفي استخدامها لتصريف أو جمع المياه ، ويعتقد بأنهـا استخدمت لعمـل تـوازن بين المباني المختلفة . وقـد عثر علـى نموذجين مـن المبـاني ، امتـاز الأول بغـرف ووحدات سكنية مختلفة المساحات مع عدم وجود مساحات فارغة بـين الأبنيـة ، ومن أهم هذه المباني الغرفة التي بلغت مساحتها ٢٤،٥ × ٩م . بينما امتاز الثاني بمجموعة من وحدات سكنية مكررة بنيت بتخطيط مسبق ، فكل وحدة سكنية تحتوي على ساحة مركزية أو غرفة واسـعة محاطـة بثلاثـة أو أربعـة صفـوف مـن الغرف الصغيرة المساحة على ثلاث جهات . واحتوت الجهـة الرابعـة صفـين مـن الغرف الصغيرة المساحة المتعاكسة الاتجاه . (لوحة رقم) . وتم الكشـف عـن مجموعة من الهياكل البشرية المدفونة تحت أرضيات المنازل أو القنوات الحجرية .

٣ ـ البيضا[٥٦] :

تعتبر البيضا من أوائل مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخـاري « ب » التي تم التنقيب فيهـا في منطقـة جنـوب الأردن . وهـي تقـع في وادٍ علـى مسيرة ساعة إلى الشمال من مدينة البتراء الأثرية النبطية في طريق بين الجبال ، وتحيط بها التلال الرملية من الجانبين . وتقع على سطح تبلغ مسـاحته ٦كـم وعلـى ارتفـاع ١٠٠٠م عن سطح البحر . بدأت أعمال التنقيـب بإشـراف د. كيركـبرايد علـى مدى ثمانية فصول، من ١٩٥٨ ولغاية ١٩٦٧، وكان الموسم الأخير عام ١٩٨٣ . وكشفت التنقيبات الأثرية عن مرحلتين أثريتين ، الأولى تعود للفترة النطوفيـة ، والثانية تحتـوي علـى سـت سـويات أثريـة تعـود للعصـر الحجـري الحديـث قبـل الفخـاري « ب » ، رقمتهـا ١ إلى ٦ مـن الأحـدث إلى الأقـدم . وتفصـل بـين المرحلتين طبقة عازلة من التراب بسماكة ٣أمتار . وتحتوي السويات الست على بقايا لست قرى تختلف في هندستها وبنائها الواحـدة عـن الأخـرى ، إنمـا الصفـة العامة الجامعة بينها هي أنها دون مسـتوى الأرض ويُـنزل إليهـا بثـلاث درجـات

حجرية . واقيمت بيوتها من الحجارة الغفل الكبيرة ، وسدت الفجوات بينها بالحجارة الصغيرة والحصى .

وتعتبر السوية السادسة ممثلة لأولى المراحل السكنية في الموقع ، حيث جاءت هذه المباني دائرية الشكل ومبنية من جدران حجرية تتخللها تجاويف لأعمدة خشبية. وتم الكشف عن خمسة بيوت رصفت أربعة منها بالجص . ووجد في اثنين منها ثقوب لدعامة ، تمثل الدليل الوحيد في الموقع على كيفية وضع السقف. وقد وجدت هذه البيوت متلاصقة بعضها ببعض، مما دعا المنقبة لتشبيهها بخلية النحل . كما عثر في أحد البيوت على كميات من الحبوب المتخشبة من الشعير ، والقمح ، والفستق .

أما السوية الخامسة، فاحتوت على بيوت دائرية بجدران سميكة عرضها نصف متر، وتشبه بيوت أريحا في مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » ، إلا أن بيوت البيضا امتازت بأن أرضياتها وجدرانها غطيت بالقصارة البيضاء .

بينما جاءت بيوت السوية الرابعة بيضوية الشكل بزوايا دائرية ، وكان البيت مكوناً من غرفة واحدة ، تنخفض ارضياتها تحت مستوى الأرض ، وينزل إليها بثلاث درجات ، وشيدت من الحجر الرملي ، كما غطيت الأرضيات والجدران بالقصارة . وتفصل هذه الغرف عن بعضها البعض ساحات مكشوفة ، واحتوت بعض الغرف على مواقد لها حواف تبرز عن مستوى أرضية الغرفة ، ومغطاة بالقصارة أيضاً . أما مباني السوية الثالثة والسوية الثانية فهي متشابهة ، وقد كشفت المنقبة عن المخطط الكامل لبنائين ، واحد في السوية الثالثة والآخر في السوية الثانية ، وهما متشابهان في مخططهما الذي يتألف من ممر ضيق

٨ × ١م ، وتصطف ثلاث غرف على كل جانب . وتبلغ أبعاد هذه الغرف حوالي ١ × ١،٥م ، وهي مغطاة بالقصارة من الأعلى ، ويبلغ ارتفاع الجدران المتبقية حوالي المتر . وتقع هذه المباني تحت مستوى الأرض ، ويُنزل إليها بثلاث درجات وأرضياتها مغطاة بالجص ، وتحتوي بعض هذه الغرف على مصاطب حجرية . ونتفق مع المنقبة على أن هذه المباني استخدمت كمبان ذات وظائف عامة ، حيث يستدل من مساحتها ومن محتوياتها على أنها كانت مراكز تجارية وصناعية لصناعة المنتوجات الصناعية وبيعها ، كالجواريش ، المدقات ، وأدوات الزينة ، والأدوات الصوانية والعظمية . كما وجدت إلى الجنوب من مباني الممرات غرفة واسعة مساحتها ٩ × ٧م ، مستطيلة الشكل ، وينزل إليها بثلاث درجات، مما يؤكد أن هذه الساحة كانت تحت مستوى الأرض أيضاً . واحتوت الساحة على موقد كبير له حافة بارزة من الحجر . وطليت الارضية والجدران بالقصارة البيضاء ، وظهر على بعض طبقاتها حزوز من الخطوط الحمراء على مسافة ٢٥سم من الحائط ، تمتد إلى أسفله لتؤلف شريطاً تزينياً يذكرنا ببيوت شاتال هويوك (Catal HOYUK) وهاجيلار (Hacilar) في الأناضول . وعثر على الأدوات الصوانية والتي قام بيدر مورتنسن (P. Mortensen) بدراستها وتصنيفها[٥٧] . وعثر أيضاً على أدوات عظمية كالمخارز ، والدبابيس ، والملاعق ، وكان بعضها مصقولاً والقليل منها يحمل زخرفة أو محززاً . وعثر كذلك على أدوات الزينة ، وتتضمن عدداً من الخرز المصنوع من العظم ، ومن الصدف ، ومن الحجر . كما وجد العديد من التماثيل الطينية ، والتي تمثل أشكالاً حيوانية في الغالب . كما عثر على اربعين هيكلاً بشرياً مدفونة تحت أرضيات المنازل ، ولم يعثر على جماجم هذه الهياكل . إذ كانت هذه الفترة تمتاز

بفصل الجماجم عن الهيكل . وقد وُجدت أمثلة شبيهة لهذه العادة في العديد من مواقع بلاد الشام مثل أريحا في فلسطين ، وعين غزال في الأردن ، والمريبط في سورية . وكذلك عثر على بذور نباتية كالقمح ، والشعير ، والعدس ، والفتسق، والبلوط(٥٨) .

٤ـ البعجة «١»(٥٩) :

موقع اكتشفه جيبل عام ١٩٨١ ، وقام بحفر أسبار تجريبية فيه ، ويقع إلى الشمال من البتراء . وهو قرية أثرية كبيرة ، وتبلغ مساحة الموقع حوالي ١٠٠٠٠ متر مربع . وعثر فيه على مبان مستطيلة الشكل مبنية من الحجارة الجيرية والرملية.

٥ـ جبل القويسي (ج ٢٤)(٦٠) :

ملجأ صخري اكتشفه هنري عام ١٩٧٩، خلال المسح الأثري لمنطقة رأس النقب . وأظهرت الأسبار التي فتحها هنري عن ثلاث سويات اثرية ، رقمها أ ، ب ، ج . احتوت السويتان « أ » و « ب » على أدوات تعود للعصر الحجري النحاسي ، بينما زودتنا السوية « ج » بأدوات تعود للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » ، وفصلت بينهم سوية رملية عازلة بسماكة ٢٠ ــ ٣٠سم ، واحتوت السوية « ج » على ١٨٨٤ قطعة صوانية منهما ٢٠ أداة فقط . وتميزت المجموعة الصوانية بوجود النصيلات (Bladelette) التي استخرجت من الأنوية ذات منطقة الطرق المزدوجة . وعثر على ثلاثة من رؤوس السهام ذات المقبض ، مع أثلمة متقابلة .

٦ـ صبرا «١»(٦١) :

موقع مكشوف في الجزء الشمالي لوادي صبرا بالقرب من البتراء ، اكتشفه وحفر فيه أسباراً جيبل ، وقد كشفت الأسبار عن سويتين أثريتين تفصل بينهما

طبقة من الجير الأبيض . السوية الأولى (العليا) تحتوي على مخلفات تعود للثقافة الخيامية بينما السوية الثانية (السفلى) تشتمل على مخلفات تعود للفترة النطوفية القديمة .

٧ـ الضمان(٦٢) :

تقع على بعد ١كم غرب / شمال ـ غرب صبرا « ١ » وبالقرب من عين الضمان . وأظهرت الأسبار التي حفرها جيبل في الموقع عن بعض البقايا العمائرية ذات المخطط المستطيل الشكل والمشيدة من الحجارة . وتتميز الأدوات الصوانية بوجود نسبة عالية من الأدوات المشذبة إضافة إلى وجود رؤوس السهام والمثاقب. ويرجع جيبل تاريخ الموقع إلى مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » الأوسط .

٨ـ خربة الحمام :

تقع على المنحدرات الجنوبية الشرقية لوادي الحسا . وهو موقع مكشوف أشار إليه عام ١٩٧٩ مكدونلد تحت رقم ١٤٩(٦٣) ، ثم زاره رولفسون عام ١٩٨٥(٦٤) . تبلغ مساحة الموقع ٢ ـ ٤ هكتاراً ويقع على ارتفاع ٣٠٠م فوق مستوى البحر . وتم التعرف داخل المقطع الجانبي للطريق على مبان مستطيلة الشكل مبنية من الحجارة ، ومقصورة من الداخل ومدهونة باللون الأحمر . إضافة إل ذلك ، فقد عثر على مدقات ، وأجران حجرية ، وتماثيل إنسانية . وتتميز الأدوات الصوانية بالمناقيش والمقاشط الجانبية إضافة إلى المثاقب والأدوات المثلمة والأنوية .

٩ـ الغوير «١»(٦٥) :

يقع موقع الغوير « ١ » على الضغفة الجنوبية لوادي الغوير ، أحد روافد وادي فينان . اكتشف الموقع خلال مشروع المسح الأثري المعدني الذي أشرفت

عليه بعثة أردنية ـ ألمانية مشتركة في منطقة وادي عربة ووادي فينان بين ١٩٨٤ و ١٩٩٣ . تمتد مساحة الموقع على ٦٠٠٠ متر مربع . وأظهرت التنقيبات الأثرية لعام ١٩٩٣ مباني مستطيلة الشكل ذات ارضيات مطلية بالجص ومدهونة باللون الأحمر . كما تم الكشف عن غرف بمساحة ٤ × ٤,٥م أعيد استعمالها كغرف صغيرة المساحة ١,٥ × ١م تذكرنا بمباني الممرات مع وجود نوافذ صغيرة استخدمت كمداخل . كما عثر في المنطقة الجنوبية الغربية من الموقع على مبان دائرية الشكل مع مدخل في الجهة الشمالية من المبنى ، ويقابل المدخل كوة (Niche) . وعثر فوق أرضية المبنى وبالقرب من الكوة على تمثال حجري صغير . وقد استخدمت الحجارة الغشيمة في بناء جدران هذه المباني . وبالإضافة إلى المباني ، فقد عثر على أدوات صوانية تتميز بوجود رؤوس السهام (Arrowheads) ، والسكاكين (Knives) ، والمناجل (Sickles) ، والمثاقب (Borers) ، وأدوات ثقيلة ، مثل أدوات الجرش والطحن ، والزبادي ، وتماثيل حجرية وطينية تمثل أشكالاً بشرية وحيوانية ، كما عثر على أدوات الحلي المصنوعة من العظم أو الحجر الأخضر (Green Stone) . ويرجّح أن تاريخ الموقع يعود إلى الربع الثاني من الألف السابع .

العصر الحجري الحديث الفخاري (جدول رقم ٦) :

١ـ الذراع[٦٦] :

اكتشف الموقع عام ١٩٧٦ من قبل ريكس ، ثم قامت بنت ، بإجراء أسبار استكشافية في الموقع عام ١٩٧٩ أظهرت وجود بقايا عمائرية تتمثل ببعض حفر ذات أرضيات وجوانب محاطة بالحجارة والطين . وأظهرت الكسر الفخارية التي وجدت في الموقع أنه يعود إلى العصر الحجري الحديث الفخاري .

٢ـ تل وادي فينان (٦٧)،(٦٨) :

يقع على الضفة الجنوبية لوادي فينان على ارتفاع يتراوح بين ٢٥٠ ـ ٣٠٠م عن سطح البحر . وكشفت التنقيبات الأثرية التي جرت عامي ١٩٨٨ و١٩٩٠ عن ثلاث طبقات أثرية في الموقع . واحتوت الطبقتان الاولى والثانية عن بقايا تعود إلى منتصف الألف الخامس ، بينما اشتملت الطبقة الثالثة على بقايا تعود للفترة الرومانية ـ البيزنطية (القرن الرابع م) . وأظهرت التنقيبات في الطبقتين الأولى والثانية بقايا معمارية تتألف من غرفتين وساحة تقع إلى الشرق من الغرفتين (لوحة رقم) . وبلغت مساحة الغرفة الأولى ٤،٩ × ٣،٥م والثانية ٨ × ٣،٥م بينما بلغت مساحة الساحة ١٠ × ٧م . كما عثر على مواقد للنيران. وكانت أرضيات الغرف والساحة من الطين أو الحصى . وعثر على أدوات فخارية تشتمل على جرار وزبادي إضافة إلى أدوات صوانية تميزت بوجود المناجل ، والمقاشط العلوية والسكاكين ، والمثاقب . ويلاحظ غياب رؤوس السهام في الموقع ، كما تم العثور على أدوات عظمية ، وصدف ، وخرز، وتماثيل فخارية وحجرية .

العصر الحجري النحاسي (جدول رقم ٧) ، (خارطة رقم ٧) :

١ـ المقص (٦٩) :

يقع على بعد ٤كم إلى الشمال الغربي من العقبة ، اكتشف أثناء شق طريق وادي عربة ـ العقبة عام ١٩٦٧ ، ثم ذكره ريكس عام ١٩٧٦، وأخيراً قام لطفي خليل بإجراء موسمين من التنقيبات في الموقع أعوام ١٩٨٥ و ١٩٩٠ . وأسفرت نتائج التنقيبات عن الكشف عن بيوت وغرف مستطيلة ومشيدة من

الحجارة الغفل ، وغطيت الواجهات الحجرية بالطين المخلوط بـالتبن . كمـا عـثر خلال موسم ١٩٨٥ على حفرة داخل أرضية احدى الغرف ، يبلغ قطرها حوالي المتر ، وكانت مقصورة من الداخل . كما عـثر خـلال موسـم ١٩٩٠ في أسـفل الحفرة السابقة على حفـرة أخـرى يبلـغ قطرهـا حـوالي ١،٩٥م وعمقهـا حـوالي ٧٥سم وهي مقصورة من الداخل ، وكانت الحفرتان خاليتين من أية موجـودات أثرية سواء فخاريـة أو غيرهـا . وإضافـة إلى ذلـك ، فقـد عـثر علـى العديـد مـن الأدوات الحجرية ، كالفؤوس الحجرية ، والمدقات بأشـكال مختلفـة ، وطاسـات حجرية ، وهروات حجرية ، مصنوعة من البازلت . ويبدو أن موقع المقص كـان مركزاً صناعياً ، إذ عثر على كتل خامات غنية بالنحاس وحبيبات نحاس مخلوطة مع الفحم والرماد في المقص ، مما يشير إلى أن عمليات صهر النحاس كـانت تتـم في الموقع . وأشار المنقب إلى وجود مواد صدفية خام ، وبقايا مخلفات صناعيـة ، وقطع صدفية مصنعة مما يشير إلى إمكانية استخدام الموقع كمركز لصناعـة الحلـي الصدفية في العصر الحجري النحاسي ، وخصوصـاً أن الموقـع قريـب مـن خليـج العقبة الغني بأنواع مختلفة من الصدف .

الخاتمة :

يتضح مما سبق عرضه من حديث حول التنقيبات الأثرية في منطقة جنوب الأردن ، أن هذه المنطقة لعبت دوراً هاماً في بناء حضارة الإنسان في منطقة الأردن خاصة وبلاد الشام بشكل عام . فقد أظهرت التنقيبات والمسوحات الأثرية أن المنطقة كانت مأهولة بالسكان منذ العصر الحجري القديم الأدنى حتى بداية العصور التاريخية . وتبيّن النتائج أن المنطقة قد مرت بمراحل ازدهار حضاري واسع في بعض الفترات كما هو الحال في المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » . ومع تراجع هذا الازدهار في بعض الأحيان ، إلا أننا نجده يعود للازدهار مرة أخرى . ويبدو أن هذا التراجع كان بسبب تأثر منطقة جنوب الأردن بالمؤثرات المناخية والبيئية التي أثرت في بلاد الشام بشكل عام في فترة عصور ماقبل التاريخ حيث أظهرت نتائج مسوحات هنري في منطقة رأس النقب أن المنطقة قد سادها مناخ جاف في فترة العصر الحجري النحاسي التأثيرات في منطقة رأس النقب .

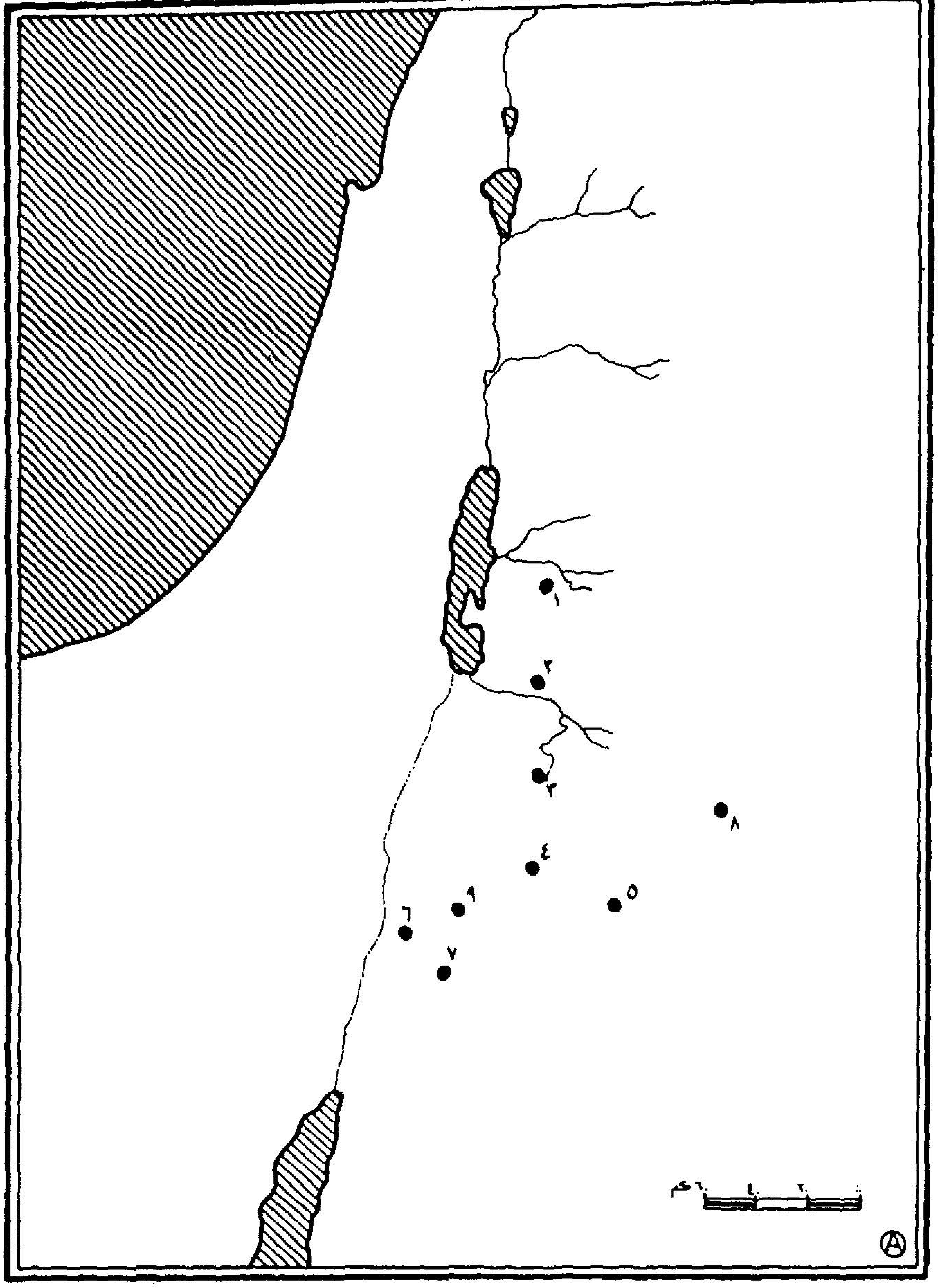

خارطة رقم ١ : مواقع العصر الحجري القديم الأدنى

١ ـ خربة المحاريم ـ ٢ ـ وادي الحسا ـ ٣ ـ الفجيج ـ ٤ ـ أبو الجرذان ـ ٥ ـ الجفر « ٧٢ » ـ ٦ ـ الفرذخ ـ ٧ ـ رأس النقب ج « ٤٠١ » ـ ٨ ـ باير ـ ٩ ـ بسطة « ٣ » .

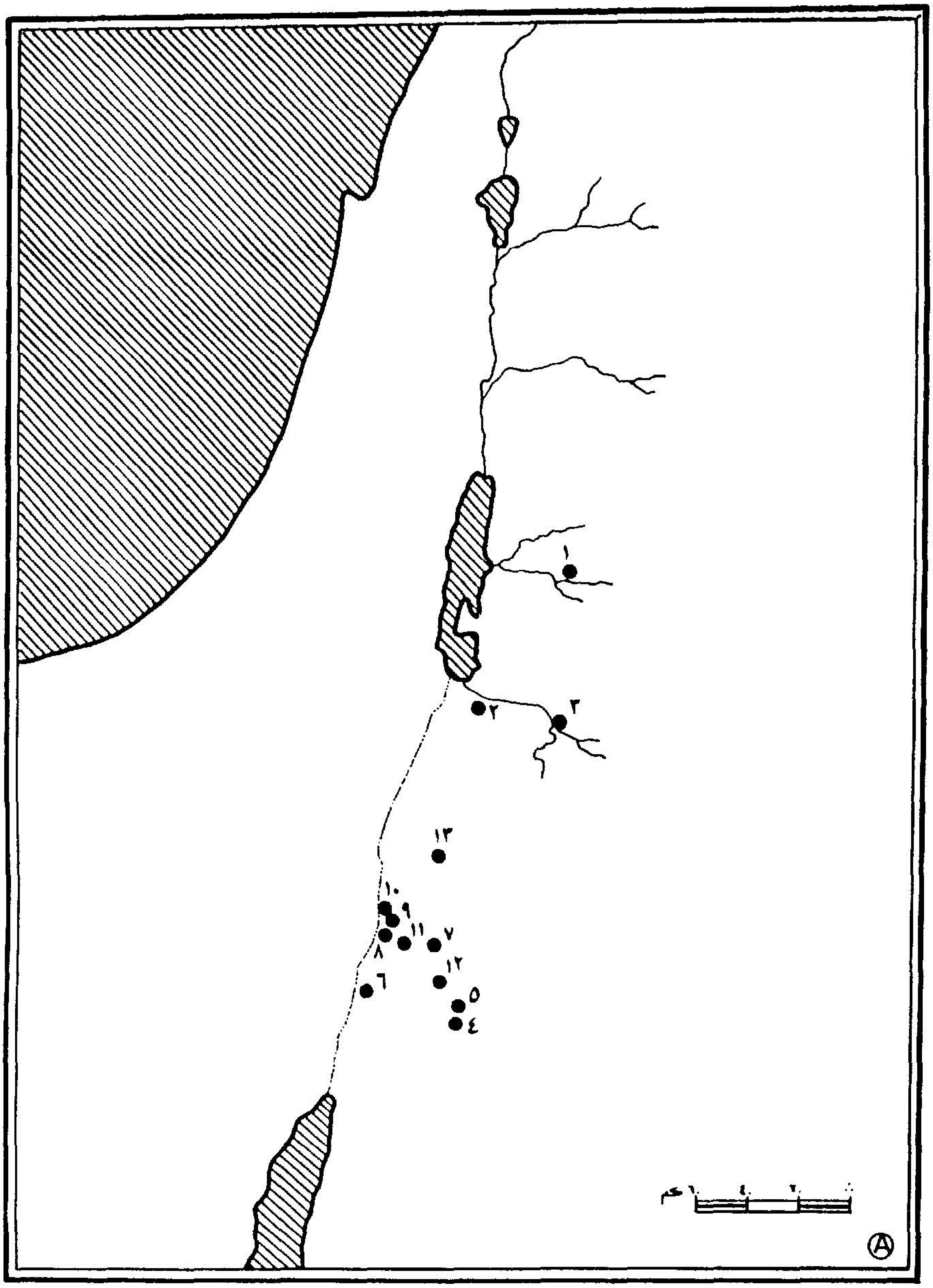

خارطة رقم ٢ : مواقع العصر الحجري القديم الأوسط

١ ـ وادي العسال ـ ٢ ـ عين الدفلة ـ ٣ ـ موقع « ٦٢١ » ـ ٤ ـ طور فرج ـ ٥ ـ طور صبيحة ـ ٦ ـ كلخة ـ ٧ ـ رأس سليمان ـ ٨ ـ رأس نيازي ـ ٩ ـ السنخ « ٢ » ـ ١٠ ـ الضمان ـ ١١ ـ الغرندل ـ ١٢ ـ رأس النقب ـ ١٣ ـ وادي الغوير .

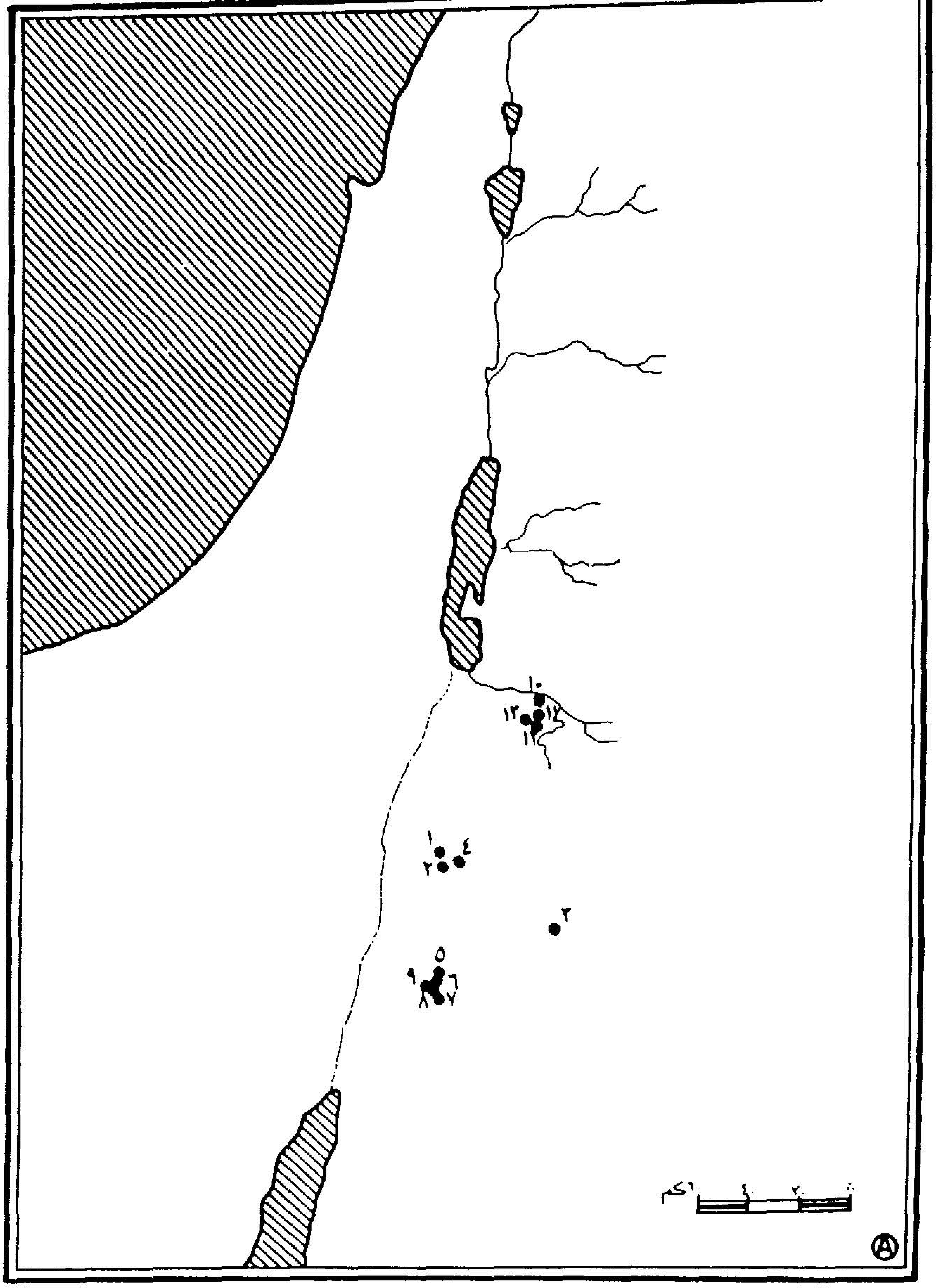

خارطة رقم ٣ : مواقع العصر الحجري القديم الأعلى

١ ـ أبو شاهر ـ ٢ ـ أنساب ـ ٣ ـ الجفر « ٧١ » ـ ٤ ـ صبرا ـ ٥ ـ طور عايد (ج ٤٣٢) ـ ٦ ـ ج « ٥ » ـ ٧ ـ ج ٤٠٣ ـ ٨ ـ ج « ٤١٢ » ـ ٩ ـ ج « ٤٣٣ » ـ ١٠ ـ موقع « ٦١٨ » ـ ١١ ـ موقع « ٦٢٣ » ـ ١٢ ـ موقع ٦٢٣ × ـ ١٣ ـ موقع ٧٨٤× .

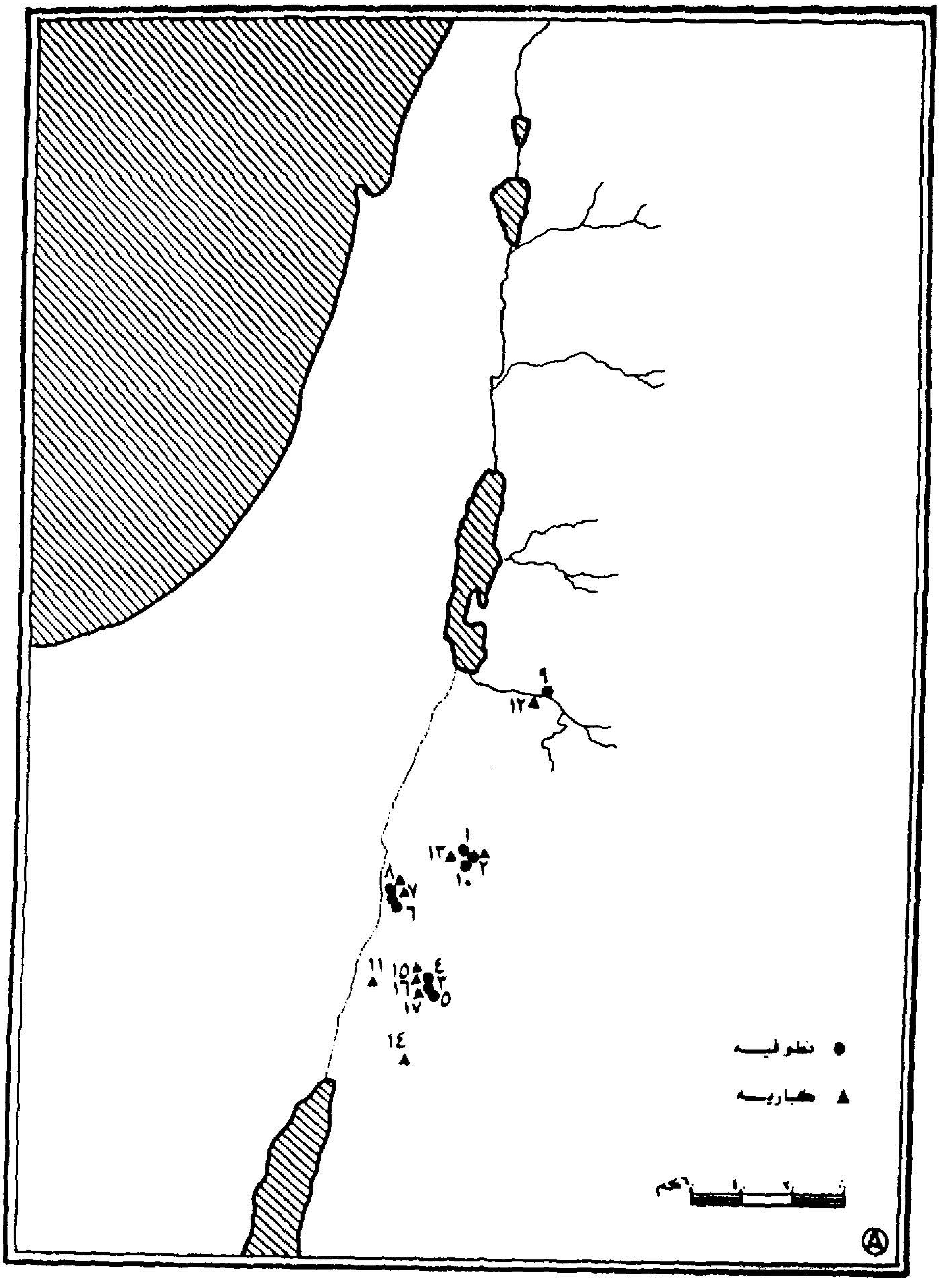

خارطة رقم ٤ : مواقع المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم

١ - البيضا - ٢ - الثغرة « ١ » - ٣ - ج « ٢ » - ٤ - ج « ٤٠٦ أ » - ٥ - ج « ٤٣٦ » - ٦ - السنخ - ٧ - صبرا « ١ » - ٨ - الضمان - ٩ - الطبقة - ١٠ - وادي سليسل - ١١ - ج « ٥٠٤ » - ١٢ - قلعة الحسا - ١٣ - المدمغ - ١٤ - وادي رقم - ١٥ - ج « ٤٠٧ » - ١٦ - ج « ٤٠٦ ب » - ١٧ - ج « ٤٠٥ » .

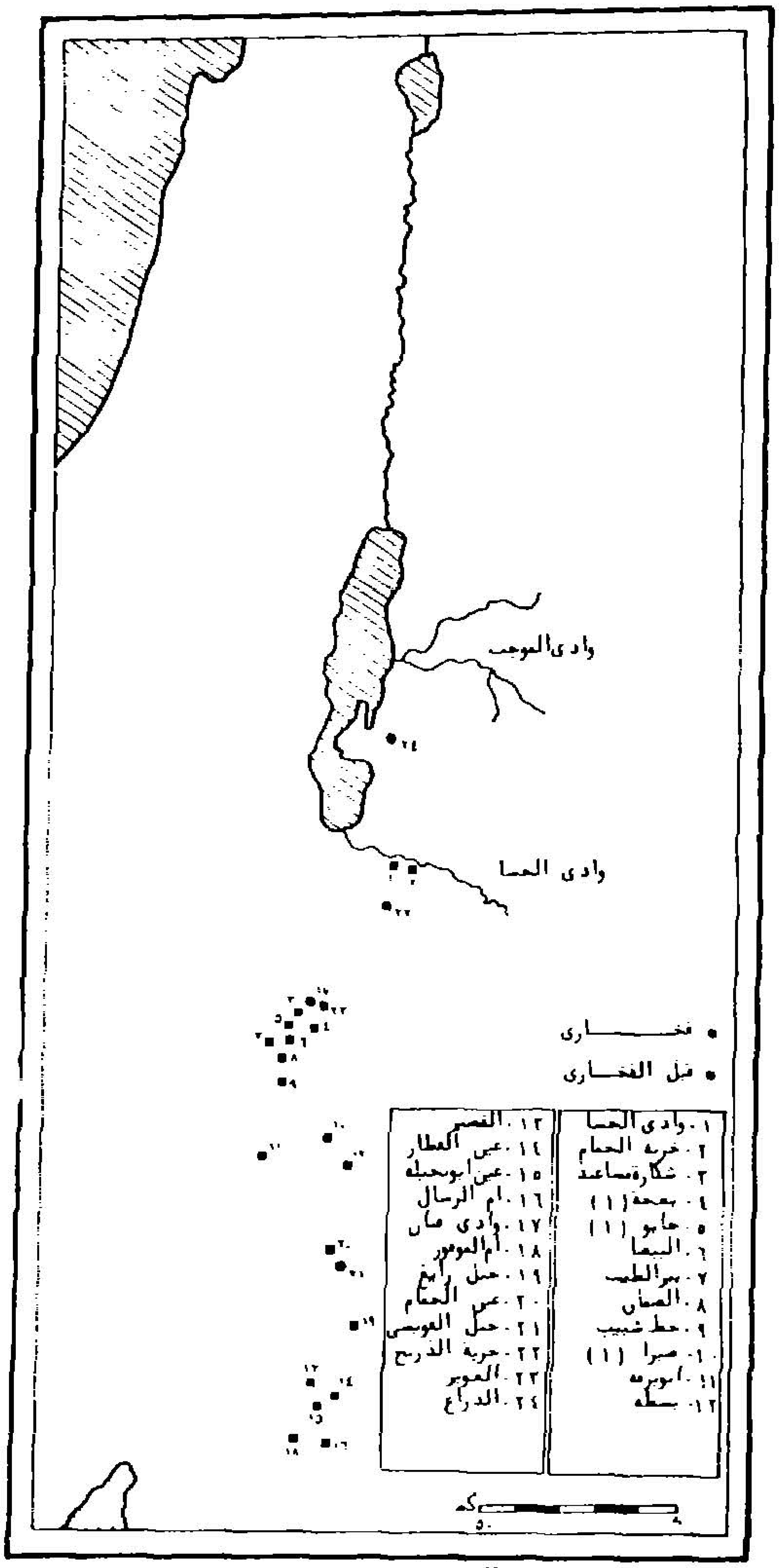

رسم: موسى طبابسة

خارطة رقم ٥ : خريطة توضح مواقع العصر الحجري الحديث في جنوب الأردن

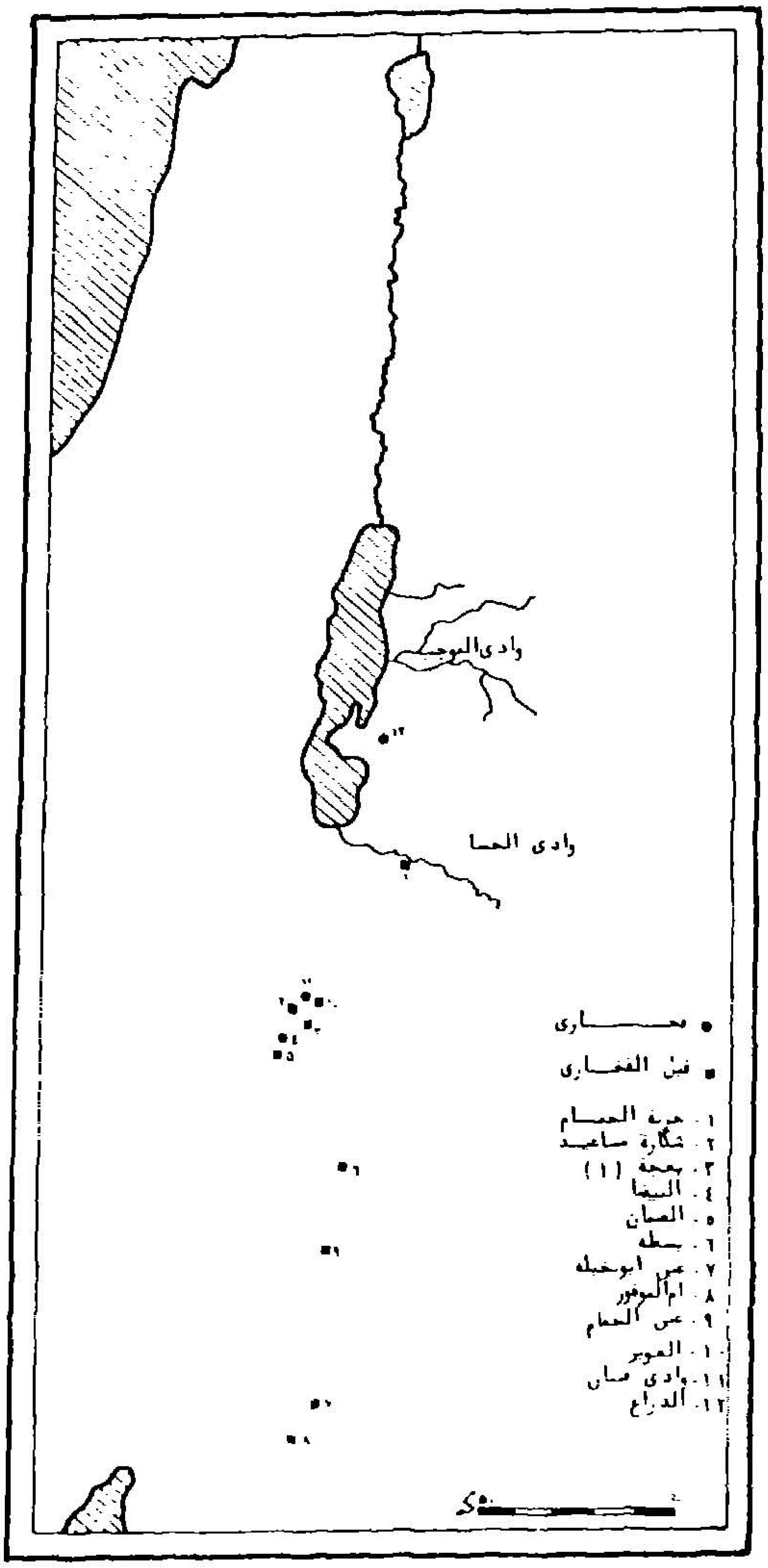

رسم: موسى بطاسة

خارطة رقم ٦ : مواقع العصر الحجري الحديث ذات البقايا المعمارية في جنوب الأردن

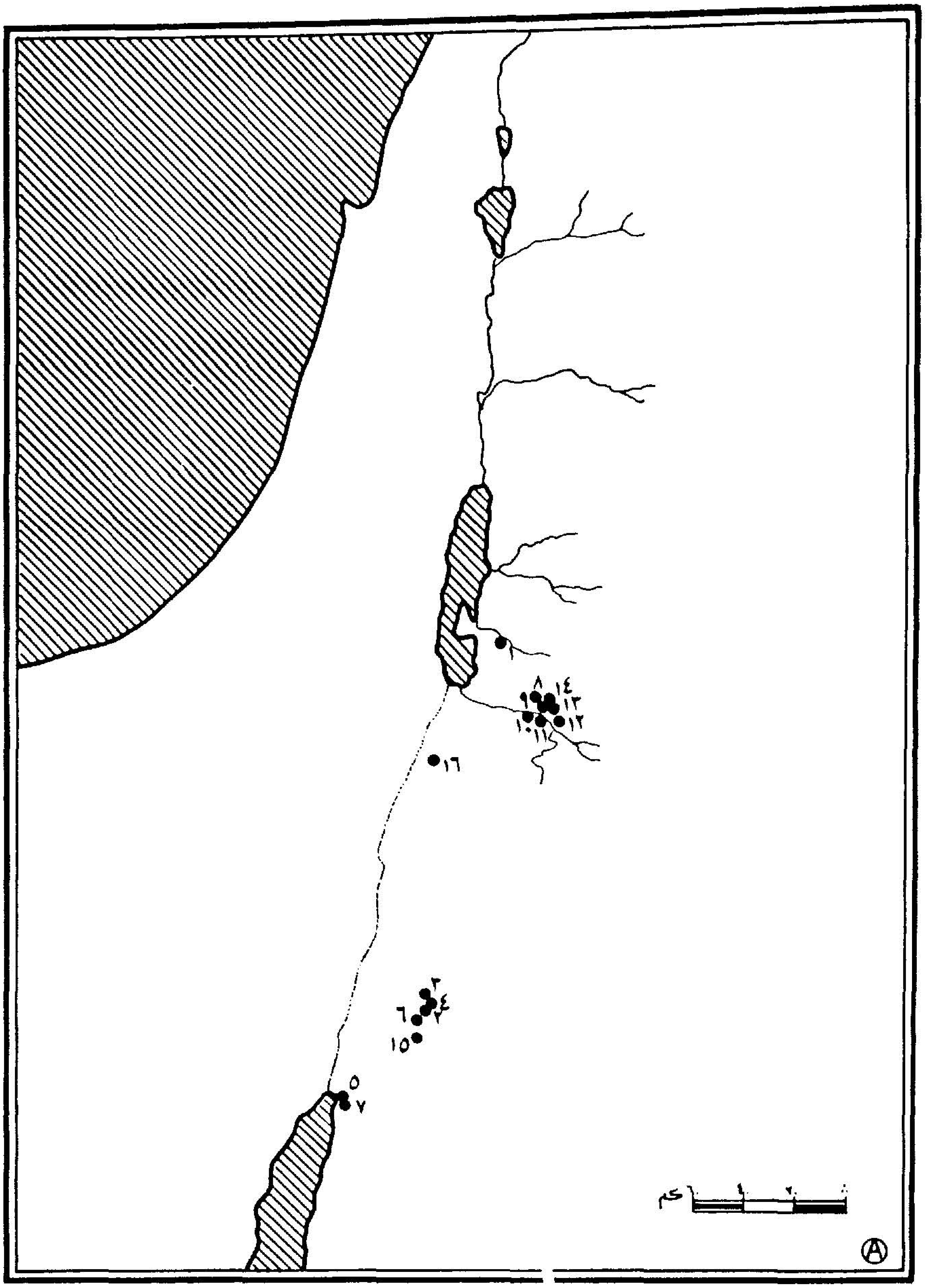

خارطة رقم ٧ : مواقع العصر الحجري ـ النحاسي

١ ـ أم سدرة ـ ٢ ـ تل الخرزة ـ ٣ ـ جبل القويسي ـ ٤ ـ جبل الجيل ـ ٥ ـ حجيرة الغزلان ـ ٦ ـ سيل الحمام ـ ٧ ـ المقص ـ ٨ ـ موقع « ٣٠٨ » ـ ٩ ـ القصر (موقع « ٦١٦ ») ـ ١٠ ـ موقع « ٦٤٧ » ـ ١١ ـ موقع « ٨٥٨ » ـ ١٢ ـ موقع « ٨٦٦ » ـ ١٣ ـ موقع « ٩١٥ » ـ ١٤ ـ موقع « ٩٣٩ » ـ ١٥ ـ هضيبة الفلا ـ ١٦ ـ وادي الفدين « ٤ » .

جدول رقم ١ : مواقع العصر الحجري القديم الادنى الباكر والأوسط والأعلى

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- موقع ٣٣٧	٦٥٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	اشولي وسيط	MacDonald 1980;1988
٢- موقع ٣٥٠	٦٥٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	أشولي وسيط	MacDonald 1988
٣- أبو الجرذان	١١٤٠+	مكشوف	مسح أثري	معان	أشولي حديث	Muheisen 1988
٤- باير	٦٦٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي باير	أشولي حديث	Field 1960; Releston and Rollefson 1982
٥- بسطة٣	١٤٢٠+	مكشوف	مسح أثري	جبال الشراة	أشولي حديث	Muheisen 1988
٦- موقع ج٤٠١	١٠٠٠+	مكشوف	مسح أثري	رأس النقب	أشولي حديث	Henry, 1982;1985
٧- الجفر ٧٢	٦٥٠+	مكشوف	مسح أثري	حوض الجفر	أشولي حديث	Zeuner 1957
٨- خربة المحاريم	٨٧٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي الموجب	أشولي حديث	Miller 1979
٩- الفرذخ	١٦٤٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	أشولي حديث	Muheisen 1988
١٠- فجيج	١٢٨٠+	مشكوف	مسح أثري	وادي البستان، الشوبك	أشولي حديث	Rollefson 1981,1985
١١- فيجاي	١٢٠٠+	مكشوف	مسح أثري	منطقة معان	أشولي حديث ، محيسن	Muheisen 1988, 1993

جدول رقم ٢ : مواقع العصر الحجري القديم الأوسط

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- حرف الدراويش	+٩٣٦	مكشوف	مسح أثري	الطفيلة	موستيري	Bender 1974. Muheisen 1988
٢- ج٤٣٠	+٠٠٠	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	موستيري	Henry 1988
٣- رأس سليمان	+٩٦٠	مكشوف	أسبار	البتراء	موستيري	Gebel 1985. Schyle and Uerpman 1988
٤- رأس نيازي	+٠٠٠٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	موستيري	Schyle and Uerpman 1988
٥- السنخ٢	+٩٧٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	موستيري	Gebel 1985. Schyle and Uerpman 1988
٦- الضمان٣	+٧٦٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	موستيري	Schyle and Uerpman 1988
٧- طور صبيحة	+١٢٥٠	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	موستيري	Henry 1982.1988
٨- طور فرج	+٩٠٠	ملجأ صخري	مسح أثري	رأس النقب	موستيري	Henry 1982.1988
٩- عين الدفلة	+٧٨٠	ملجأ صخري	أسبار	وادي الحسا	موستيري	Clark et at 1988
١٠- القرندل	+٣٠٠	مكشوف	مسح أثري	وادي عربة	موستيري	Muheisen 1988
١١- موقع ٦٢١	+٨١٠	مكشوف	أسبار	وادي الحسا	موستيري	Clark et at 1988
١٢- موقع c10-7 C10-11 D7-14	+٣٠٠/٧٠٠	مكشوف	مسح أثري	وادي لعسال	موستيري	Jacobs 1981,1982 1983,1984 and 1985
١٣- نقب الربيع	+١٠٠٠	مكشوف	أسبار	البتراء	موستيري	Gebel 1985. Schyle and Uerpman 1988
١٤- وادي الغوير	+٧٠٠	مكشوف	مسح أثري	الشوبك	موستيري	Muheisen 1988

جدول رقم ٣ : مواقع العصر الحجري القديم الأعلى

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- أبو شاهر	٠٠٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قديم أعلى	Schyle and Uerpmann 1988
٢- أنساب	٠٠٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قديم أعلى	Schyle and Uerpmann 1988
٣- الحفر «٧١»	٦٠٠+	مكشوف	مسح أثري	حوض الجفر	قديم أعلى	Zeuner 1957
٤- صبرا	٨٠٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قديم أعلى	Schyle and Uerpman 1988
٥- طور عايد (ج٤٣٢)	٠٠٠٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	رأس النقب	قديم أعلى	Henry 1988
٦- موقع ج٥	٠٠٠٠+	مكشوف	مسح أثري	رأس النقب	قديم أعلى	Henry 1982
٧- موقع ج٧٤٠٣	١٠٢٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	رأس النقب	قديم أعلى	Henry 1982.1988
٨- موقع ج٤١٢	٨١٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	رأس النقب	قديم أعلى	Henry 1982,1988
٩- موقع ج٤٣٣	٠٠٠+	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	قديم أعلى	Henry 1982,1988
١٠- موقع ٦١٨	٨٠٠+ - ٨١٥	مكشوف	أسبار	وادي الحسا	قديم أعلى	Clark et at 1988
١١- موقع ٦٢٣	٨٠٠+	مكشوف	أسبار	وادي الحسا	قديم أعلى	Clark et at 1988
١٢- موقع ٦٢٣	٨٠٧+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قديم أعلى	Clark et at 1988
١٣- موقع ٧٨٤X	+805	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قديم أعلى	Clark et at 1988

جدول رقم ٤ : مواقع المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١ـ الثغرة «١»	٩٨٠٠ - ١٠٠٠٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	كبارية	Gebel 1988
٢ـ ج ٤٠٥	٩٧٨+	مكشوف	مسح أثري	رأس النقب	كبارية	Henry 1988
٣ـ ج٤٠٦ ب	٩٠٠+	مكشوف	مسح أثري	جبل كلخة	كبارية	Henry 1982,1988
٤ـ ج ٤٠٧	٩٢٢+	مكشوف	مسح أثري	رأس النقب	كبارية	Henry 1988
٥ـ ج ٥٠٤	٩٠٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	جبل كلخة	كبارية	Henry 1982,1988
٦ـ صبرا «٢»	٨٠٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	كبارية	Schyle and Uerpman 1988
٧ـ قلعة الحسا	٨٥٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	كبارية	Copeland and vita - finzi 1978
٨ـ المدمغ	٠٠٠٠+	ملجأ صخري	أسبار	البتراء	كبارية	Kirkbride 1958,1966
٩ـ موقع ٦١٨	٨١٠+	مكشوف	أسبار	وادي الحسا	كبارية	Clark et at 1987
١٠ـ موقع ١٠١٥	٨١٠+	مكشوف	أسبار	وادي الحسا	كبارية	Clark et at 1988
١١ـ ج ٢١	١٠٩٠+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٢ـ ج ٢٢	١٠٩٠+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٣ـ ج ٣١	١٠٤٠+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٤ـ ج٢٠١ ب	٨٠٠+	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1982,1985
١٥ـ ج٢٠٢	٠٠٠٠+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٦ـ ج ٢٠٣	٧٧٢+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٧ـ ج ٢٠٥	٠٠٠٠+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٨ـ الضمان	٧٦٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	البتراء	كبارية هندسية	Kirkbride 1966; Schyle and Uerpman 1988
١٩ـ قاع ام سلاب	١٠٣٩٠	مكشوف	مسح أثري	الحسى	كبارية هندسية	Zenner 1957
٢٠ـ وادي رم	٩٦٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي رم	كبارية هندسية	Stanley - Price and Garrard 1975
٢١ـ البيضا	١٠٠٠+	مكشوف	حفرية	البتراء	نطوفية	Byrd 1989, Kirkbride 1966
٢٢ـ الثغرة «١»	٩٨٠٠ـ١٠٠٠٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	نطوفية	Gebel 1988
٢٣ـ ج ٢	٧٠٠+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	نطوفية	Henry et al 1983
٢٤ـ ج٤٠٦ أ	٩٧٨٠	مكشوف	أسبار	رأس النقب	نطوفية	Henry 1988

٢٥- ج ٤٣٦	+٠٠٠٠	ملجأ صخري	مسح أثري	رأس النقب	نطوفية	Henry 1988
٢٦- السنخ «١»	+٩٦٠٠-٩٨٠٠	مكشوف	أسبار	البتراء	نطوفية	Schyle and Uerpman 1988
٢٧- صبرا «١»	+٨٢٠٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	نطوفية	Gebel 1988 Geble and Starck 1988
٨- الضمان «٢»	+٨٢٠٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	نطوفية	Gebel 1988
٩- الطيقة موقع ١٠٢١	+٧٠٠٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	نطوفية	Byrd and Rollefson 1984
١٠- وادي سليسل	+١٠١٠٠ - ١٠٣٠٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	نطوفية	Gebel 1988

جدول رقم ٥ : مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- جبل القويسي	٠٠٠٠٠	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	قبل فخاري أ	Henry 1982,1985
٢- صبرا «١»	٨٢٠٠-	مكشوف	أسبار	البتراء	قبل فخاري أ	Gebel 1988
٣- القرع	٢٠٠-	مكشوف	أسبار	وادي عربة	قبل فخاري أ	Raikes 1980: Bennet 1980
١- أبو برقة	٣٠٠+	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Gebel 1988, Gebel et al 1985
٢- أبو نخيلة	٠٠٠٠+	مكشوف	أسبار	وادي رم	قبل فخاري ب	Kirkbride 1960, 1978
٣- أم الرسان	٠٠٠٠-	مكشوف	مسح أثري	وادي رم	قبل فخاري ب	Zeuner 1957
٤- أم القور	٠٠٠٠+	مكشوف	مسح أثري	الحسمى	قبل فخاري ب	Jobling and Tangri 1991
٥- البسطة	١٤٥٠+	مكشوف	حفرية	الطفيلة	قبل فخاري ب	Gebel et al 1988
٦- البعجة «١»	١١٢٠+ - ١١٦٠	مكشوف	أسبار	البتراء	قبل فخاري ب	Gebel et al 1985, Gebel 1988
٧- بير الطيبة	١١٢٠+ - ١١٦٠	مكشوف	أسبار	البتراء	قبل فخاري ب	Kirkbride 1966, Geble et al 1985
٨- البيضا	١٠٠٠-	مكشوف	حفرية	البتراء	قبل فخاري ب	Kirkbride 1958 - 68, 1983
٩- الشغرة	٩٨٠- - ١٠٠٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Gebel 1988
١٠- ج ٢٤	٠٠٠٠٠	ملجأ صخري	أسبار	البتراء	قبل فخاري ب	Henry 1982, 1985, 1988
١١- جابو «١»	١٠٨٠- - ١١٢٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Gebel 1988
١٢- جبل رابغ	٢٥٤٠	مكشوف	مسح أثري	الحسمى	قبل فخاري ب	Vianello 1985
١٣- جرف الدرويش	٩٥٥٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Raikes 1963, 1967
١٤- خربة الحمام	٣١٠٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	Rollefson and kafafi 1986
١٥- خط الشبيب	٠٠٠٠٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Zeuner 1957
١٦- شكارة مساعيد	٩٨٠٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Kirkbride 1966, Gebel et al 1985
١٧- الصفية	٠٠٠٠٠	مكشوف	حفرية	وادي الموجب	قبل فخاري ب	

١٨- صبرا «١»	+٨٢٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Gebel 1988
١٩- الضمان	+٧٦٠	مكشوف	مسح أثري	البتراء	قبل فخاري ب	Kirkbride 1966, Gebel et al 1985
٢٠- عين الجمام	+١٢٠٠	مكشوف	مسح أثري	رأس النقب	قبل فخاري ب	Bisheh et al 1993
٢١- عين القطار	+٤٦٠	مكشوف	مسح أثري	وادي رم	قبل فخاري ب	Zeuner 1957
٢٢- الغوير ١	+٢٨٠ - ٣٢٠	مكشوف	حفرية	وادي فيتان	قبل فخاري ب	Najjar 1994
٢٣- موقع ٤٢	+٧٣٥	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald 1980, 1988
٢٥- موقع ٥٥٩	+٩٢٢	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983
٢٦- موقع ٦٢	+٩٢٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983
٢٧- موقع ٥٦٤	+٩١٥	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983
٢٨- موقع ٦١٠	+٩١٥	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983
٢٩- موقع ٩٢٤	+٩٠٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983
٣٠- موقع ٩٦٥	+٧٤٥	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983
٣١- موقع ١٠٠٧	+٥٦٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983
٣٢- موقع ١٠٠٨	+٥٧٥	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	MacDonald et al 1983

جدول رقم ٦ : مواقع العصر الحجري الحديث الفخاري

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- خربة الحمام أبو غراب	-٣١٠٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	فخاري «ب»	MacDonald 1988
٢- خربة تذريح و.ح.٥٢٤	-٧٠٠٠	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	فخاري «ب»	Bossut et al 1988 MacDonald 1988
٣- ذراع	-٢٠٠	مكشوف	تنقيب	الكرك	فخاري «ب»	Bennet 1980 Kuijet and Mahasneh 1995
٤- موقع ٨٥٧	-٩٠٥	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	فخاري «ب»	MacDonald 1988
٥- موقع ٨٧٠	-٩٣٦	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	فخاري «ب»	MacDonald 1988
٦- وادي فيدان «٦»	-٦٠	مكشوف	مسح أثري	وادي عربة	فخاري «ب»	Raikes 1980
٧- وادي فينان	-٢٦٠٠ - ٣٠٠	مكشوف	تنقيب	وادي فينان	يرموكي	Najjar et al 1991; Najjar 1994
٨- وادي الويضة	٤٥-	مكشوف	تنقيب	الكرك	يرموكي	Kuijt and Mahasneh 1995

جدول رقم ٧ : مواقع العصر الحجري ـ النحاسي

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١ـ أم سدرة	٠٠٠٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي الكرك	....	Worschech 1985
٢ـ تل الخرزة	٠٠٠٠+	مكشوف	أسبار	معان العقبة	دائرية	Jobling 1983, 1984
٣ـ جبل القويسي ج٢٤	٠٠٠٠+	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	دائرية	Henry 1982, 1985, 1988
٤ـ جبل الجيل ج١٤	٠٠٠٠+	مكشوف	أسبار	رأس النقب	دائرية	Henry 1988; Henry et al 1983
٥ـ حجيرة الغزلان	١٥٥٠+	مكشوف	أسبار	العقبة	....	Khalil 1987
٦ـ سيل الحمام	٠٠٠٠+	مكشوف	مسح أثري	معان العقبة	....	Jobling 1983
٧ـ المقص	١٥٥٠+	مكشوف	تنقيب	العقبة	مستطيلة	Amr' 1987
٨ـ موقع ٣٠٨	٥٧٥+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	....	MacDonald 1988
٩ـ موقع ٦١٦ القصر	٨٧٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	....	MacDonald 1988
١٠ـ موقع ٦٤٧	٦٦٠+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	دائرية ومستطيلة	MacDonald 1988
١١ـ موقع ٨٥٨	٩٠٥+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	دائرية ومستطيلة	MacDonald 1988
١٢ـ موقع ٨٦٦	٩٢٢+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	دائرية ومستطيلة	MacDonald 1988
١٣ـ موقع ٩١٥	٩٣٥+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	ثلاثة مباني مستطيلة	MacDonald 1988
١٤ـ موقع ٩٣٩	٩٢٦+	مكشوف	مسح أثري	وادي الحسا	مستطيلة	MacDonald 1988
١٥ـ هضبة القلا	٠٠٠٠+	مكشوف	مسح أثري	معان العقبة	....	Jobling 1983, 1984
١٦ـ وادي فيدان ٤	٠٠٠٠+	مكشوف	تنقيب	وادي فينان	مستطيلة	Adama and Genz 1995

المراجـع

Glueck, N., 1934 Explorations IN Eastern Palestine I. - ١

Annual OF The American Schools OF Oriental Research 14 : 1 - 118 .

Glueck, N., 1939 Exporations IN Eastern Palestine II. **AASOR:** 8 - 19 .

Kirkbride, A.,AND Harding, L., 1946 Hasma. — ٢

Palestine Exporation Quarterly 79 : 7 - 26 .

Zeuner, F., With Contribution By Kirbride, D.,AND - ٣

Park. P. C., 1957 Stone Age Exportion IN Jordan I. **PEQ** 89 : 17 - 55 .

Kirkbride, D., 1960 Ain Abu Nkeileh. **Revue Biblique** - ٤

67 : 232 - 235 .

Kirkbride, D., 1978 The Neolithic IN The Wadi Rumm : Ain Abu Nekheileh. Pp. 1 - 10 IN **Archaeology IN The Levant. Essays For Kathleen Kenyon.** Edit Roger MooreyAND Peter Parr. Warminster : ArisAND Phillips Ltd.

STANLEY - PRICE, N. P.,AND Garrard, A.. 1975 A - ٥
Prehistoric Site IN The Wadi Rumm Area OF The Hisma **Annual OF The Department OF Antiquities OF Jordan** 20 : 91 - 98 .

Gebel, H. G., 1988 Late Epipalaeolithic - Aceramic - ٦
Neolithic Sites IN Petra Area. IN : Garrard, A.,AND Gebel H. G. (Eds) : **The Prehistory OF Jordan** : 101 - 134 . Bar, Intern. Series 396. Oxford.

Gebel, H., G.AND Starch, J. M., 1985 Investigations IN to The Stone Age OF The Petra Area (Early Holocene Research). A Preliminary Report On The 1984 Campaigns. **ADAJ** 29 : 89 - 114 .

Schyle, D.,AND Uerpman. H. P., 1988 Palaeolithic - ٧
sites IN The Petra - Area . IN : Garrard, A.,AND Gebel H., G. (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** 39 - 65. Bar. Intern. Series 396. Oxford.

Miller, J., 1979 Archaeological Survey South OF - ٨
Wadi Mujib. **ADAJ** 23 : 79 - 92.

MacDONALD, B., Banning E.AND Pavlish, L., 1980 - ٩

The Wadi El Hasa Survey 1979 : A Preliminary Report. **ADAJ** 24 : 169 - 183 .

MacDONALD, B., Rollefson, G.AND Roller, D., 1982 The Wadi El Hasa Survey 1981 : A Preliminary Report. **ADAJ** 26 : 117 - 131 .

MacDONALD, B., 1983 The Wadi El Hasa Survey 1982 : A Preliminary Report. **ADAJ** 7 : 311 - 323 .

Mac Donald. B., 1988 **The Wadi El Hasa Archaeological Survey 1979 - 1983 , West - Central Jordan .** Wilfrid Laurier University Press .

Clark, G., Lindly, J., Donaldson. M., Garrard, A., Coinman N., Schuldenrein. J., Fish, S.AND Olzewski, D., 1988 Excavations At Middle, UpperAND Epipalaeolithic Sites IN The Wadi Hasa. West - Central Jordan. IN : Garrard, A.,AND GEBEL , H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** : 209 - 285 Bar. Intern Series 396. Oxford.

Clark, G. A., Neeley, M. P., MacDONALD, B., - ١٠

Schuldenrein, J.AND Amre, Kh, 1992 Wadi A Hasa Paleolithic Project 1992 : Preliminary Report. **ADAJ** 36 : 13 - 23 .

Clark, G. A. Olszewski, D. I. Schuldenrein, J., **Rida**. **N**.AND Eighm. J. D., 1994 SurveyAND Excavation IN Wadi A Hasa : Preliminay Report Ot The 1993 Field Season. **ADAJ** 38 : 41 - 55 .

١١ - - Henry, D., 1979 Palaeolithic Sites Within Theras En - Naqb Basin, South Jordan. **ADAJ** 23 : 93 - 99 .

Henry, D., 1979 Palaeolithic Sites Within Theras En - Naqb Basin, South Jordan. **PEQ** 111: 79 - 85 .

Henry . D., 1982 The Prehistory OF Southern JordanAND Relationships WITH The Levant . **Journal OF Field Archaeology 9/4 : 417 - 47 .**

Henry. D., 1988 Summary of Prehistoric AND Palaeoenvironment Research IN Northern Hisma. IN : Garrard, A.,AND Gebel, H. - G. (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** : 7 - 37 Bar. Intern Series 396. Oxford.

١٢ - Henry, D., 1982 The Prehistory OF Southern Jordan and Relationships with The Levant. **Journal OF Field Archaeology 9/4 : 417 - 47 .**

١٣ - فرجات ، سليمان ١٩٩٣ نظام الري عند الأنباط في منطقة الحميمة ، **حولية دائرة الآثار العامة ٣٥ : ١٧ - ٣٠ .**

Bisheh.G. Farajat. S., Palumbo. G.AND Waheeb. – ١٤

M.. 1993 Archaeological Rescue Survey OF The Ras An - Naqab - Aqaba Highway Alignment 1992. **ADAJ** 37 : 119 - 133 .

-Jobling W. J., 1982 Aqaba - Ma'an Survey, January – ١٥

February 1981 . **ADAJ** 26 : 199 - 209 .

Jobling. W. J., 1983a The 1982 ArchaeologicalAND Epigraphic Survey of the Aqaba - Ma'an Area OF Southern Jordan. **ADAJ** 27 : 185 - 196 .

Jobling. W., J., 1983b Preliminary Roport ON THE Fourth Season OF The Aqaba - Ma'an ArchaeologicalAND Epigraphic Survey, 1982 - 1983 . **ADAJ** 27 : 197 - 209 .

Jobling. W., J., 1984 The Fifth Season OF The Aqaba - Ma'an Survey 1984. **ADAJ** 28 : 191 - 202 .

Fobling. W. J., 1985 Preliminary Report OF The Sixth Season OF The Aqaba - Ma'an EpigraphicAND Archaeological Survey. **ADAJ** 29 : 211 - 220 .

١٦ - سليمان ، امصيطف ١٩٨٧ **تقرير عن نتائج المسح الأثري لمنطقة جنوب معان** . تقرير غير منشور في سجلات دائرة الآثار لعامة (قسم التسجيل) .

Muheisen, M., 1988 **Le Paléolithique Et** — ١٧
L'epipaleplithique en Jodanie Teèse de Doctorat University OF Bordeaux I.

Betts, A., 1987 The Walmesley White Collection : - ١٨
Flint FROM North Arabian Prehistoric Sites. **PEQ** 118 : 122 - 28.

Jacobs, L. K., 1983 Survey of The South Ridge of - ١٩
The Wadi Isal. 1981 . **ADAJ** 27 : 245 - 274 .

Worschech. U., 1985 Preliminary Report ON THE - ٢٠
Third Survey IN THE North - West Ard- El Kerak 1985 . **ADAJ** 29 : 161 - 173 .

Rollefson, G., 1985 Description of the Chipped Stone Artifacts FROM THE Moab Survey (Worschech). **Biblische Notizen Beiheft** 2 : 78 - 85 .

Rollefson. G., 1986 Chipped Stone Articacts From Two Prehistoric Sites From The Moab Survey (Worschech) **Zeitschrift Des Deutschen Palastina - Vereins** 102 : 53 - 67

Raikes T. D., 1980 Notes On Some Neolithic and - ٢١
Later Sites IN Wadi Araba and the Dead Sea Valley

LEVANT 12 : 40 - 60 .

Kouchy, F. L. and MacDONALD, B., 1985 The - ٢٢
Northeast Araba Archaeological Reconnaissance Survey, 1985. **ADAJ** 29 : 293 - 94.

MacDONALD, B., Clark, G., Neeley, M., Adams, R.,AND Gregory, M., 1987 Southern Ghors and Northreast Arabah Achaeological Survey 1986. Jordan A Preliminary Report. **ADAJ** 31 : 391 - 418 .

Hauptmann, A.,AND Weisgerber, G., 1987 — ٢٣
Archaeometallurgical and Mining - Archaeological Investigations IN THE Area OF Feinan, Wadi Araba (Jordan). **ADAJ** 31 : 419 - 38 .

Kirkbride,D., 1960 Ain Abu Nkeileh. **Revue** — ٢٤
Biblique 67 : 231 - 232 .

Kirkbride, D., 1978 The Neolithic IN THE Wadi Rumm : Ain Abu Nkheileh. Pp. 1 - 10 IN **Archaeology IN THE Levant, Essays For Kathleen Kenyon** Edit. By Roger MooreyAND Peter Parr. Warminster, : ArisAND Phillips Ltd.

Kirkbride, D., 1966a Five Seassons AT THE Pre - - ٢٥
Pottery Neolithic Village Beibha IN Jordan. **PEQ** 98: 8- 72 .

Henry, D., 1979 Palaeolithic Sites within The Ras En - ٢٦
- Naqb Basin, Southern Jordan. **PEQ** 111 : 79 - 85 .

Henry, D., 1982 The Prehistory OF Southern JordanAND Relationships WITH The Levant. **Journal OF Field Archaeology** 9 : 417 - 44 .

Henry, D., 1988 Summary of PrehistoricAND Palaeonvironmental Research in The Northen Hisma IN : Garrad. A.,AND Gebel, H. - G. (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan :** 7 - 37 Bar, Intern. Series 396. Oxford. B. A. R.

Henry. D., Hassan. E. Jones. M.AND Henry. K. C., 1981 An Investigation OF THE PrehistoryAND Palaeonvironments OF Southern Jordan (1979 Field Seasson). **ADAJ** 25 : 113 - 46 .

Bennet, C., 1980 Soundings At Dhra, Jordan. - ٢٧
Levant 12 : 30 - 39 .

Kuijt, I.,AND Mahasneh, M., 1995 Dhra'AND Ain -٢٨
Waida.. **American Journal OF Arachaeology** 99/3 : 504 - 5 .

Gebel. H. - G., 1988 Late Epipalaeolithic - Aceramic - ٢٩
Neolithic Sites in Petra. IN : Garrad. A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** : 67 - 100 . Bar. Intern. Series 396. Oxford.

Clarck. G., Lindly.J., Donaldson, M., Garrard, A., - ٣٠

Coinman. N., Schuldenrein. Fish. S.AND Olszewski, D., 1988 Excavations at Middle, UpperAND Epipalaeolithic Sites at Wadi Hasa, West - Central Jordan IN : Garrard, A.,and Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan :** 209 - 85 Bar. Intern. Series 396 . Oxford.

Khalil, L., 1987 Preliminary Report ON THE 1985 - ٣١

SEASON OF Excavation At Maqass - Aqaba, **ADAJ** 31 : 481 - 84 .

Nissen. H., Muheisen. M.,AND Gebe., H. 0- G., - ٣٢

With Contributions By Becker, C., Neef. R., Pachur. H., Qadi. N.AND Schult, A., 1987 Report ON THE First Two Seasons At Basta (1986 - 1987). **ADAJ** 31 : 79 - 119 .

Najjar, M., Abu Dayya, A., Suleiman, E., - ٣٣

Weisgerber, G.AND Huptmann. A., 1991 Tell Wadi Feinan : The First Pottery NEOLITHIC Tell in The South OF Jordan. **ADAJ** 34 : 27 - 56 .

Najjar. M., 1994 Ghuwair I, A Neolithic Site IN - ٣٤

Wadi Feinan. IN : Kerner, S., (Ed.) : **The Near East IN**

Antiquity. German Contributions TO THE Archaeology OF Jordan , Palestine, Syria, LebanonAND Egypt. Vol. 111 : 75 - 85 .

٣٥ – Muheisen M. 1988 **Le Paléolithique et Epipale'olithique EN Jordanie .** Thèses de Doctorat Es - Seience. Universite De Bordeaux I.

مجاهد المحيسن ١٩٩٣ الثقافة الأشولية في الأردن ١٥٠٠٠٠٠ – ٩٠٠٠٠ . **مجلة أبحاث اليرموك** المجلد التاسع، العدد الرابع : ١٥٣ – ١٨١ .

٣٦ - Bender, F., 1974 **Geology OF Jordan.** Berlin.

٣٧ – Zeuner. F., with Co - Operation By Kirkbride, D.,AND Park. P. C., 1957 Stone Exploration IN Jordan. I. **PEQ** 89 : 17 - 55 .

٣٨ - Rollefson, G., 1981 A Late Acheulian Site At Fjaje, Wadi EL Bustan, Southern Jordan. **Paléorient** 7/1 : 5 - 21.

Rollefson, G., 1985 Late Pleistocene EnvironmentsAND Seasonal Hunters Stratigies : A Case Study From Fjaje, NEAR Shobak, Southern Jordan. **Studies IN The History and Archaeology of Jordan** 2 : 103 - 107 FIGS.

Henry, D., 1982 The Prehistory of Southern — ٣٩
JordanAND Relationships with the Levant. **Journal OF Field Archaeology** 9/4 : 417 - 444 .

Henry, D., 1988 Summary OF PrehistoricAND Palaeonvironmental Research in the Northern Hisma. IN : Garrar, A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan.** Bar, Intern. Series 96 : 7 - 37 Oxford, B. A. R.

Henry, D., 1982 The Prehistory OF Southern — ٤٠
JordanAND Relationships with the Levant. **Journal OF Field Archaeology** 9/4 : 417 - 444 .

Henry, D., 1988 Summary OF Prehistoric and Palaeonvironmental Research in The Northern Hisma. IN : Garrar, A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan.** Bar, Intern. Series 396 : 7 - 37 . Oxford. B. A. R.

Clark. G., Lindly, J., Donaldson, M., Garrard, A., - ٤١
Coinman, N., Schuldenrein, J., Fish, S.AND Olszewski, D., 1988 Excavations at Middle, UpperAND Epipalaeolithic Sites in The Wadi Hasa, West - Central Jordan. IN : Garrard, A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** Bar. Intern. Series 396 : 209 - 285 . Oxford. B. A. R.

Clark. G., Lindly, J., Donaldson, M., Garrard, - ٤٢

A., Coinman, N., Schuldenrein, J., Fish, S.and Olszewski, D., 1987 Excavations at Middle, UpperAND Epipalaeolithic Sites in the Wadi Hasa, West - Central Jordan. IN : Garrard, A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** Bar. Intern. Series 396 : 209 - 285 . Oxford. B. A. R.

Clark. G., Lindly, J., Donaldson, M., Garrard, A., Coinman, N., Schuldenrein, J., Fish, S.and Olszewski, D., 1988 Excavations At Middle, Upper and Epipalaeolithic Sites IN the Wadi Hasa, West - Central Jordan. IN : Garrard, A.,and Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** Bar. Intern. Series 396 : 209 - 285 . Oxford. B. A. R.

Clark. G., Lindly, J., Donaldson, M., Garrard, A., - ٤٣

Coinman, N., Schuldenrein, J., Fish, S.and Olszewski, D., 1988 Excavations AT Middle, Upper and Epipalaeolithic Sites IN THE Wadi Hasa, West - Central Jordan. IN : Garrard, A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** Bar. Intern. Series 396 : 209 - 285 . Oxford. B. A. R.

Clark. G., Lindly, J., Donaldson, M., Garrard, A., - ٤٤

Coinman, N., Schuldenrein, J., Fish, S.AND Olszewski, D.,

1988 Excavations At Middle, UpperAND Epipalaeolithic Sites IN THE Wadi Hasa, West - Central Jordan. IN : Garrard, A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan** Bar. Intern. Series 396 : 209 - 285 . Oxford. B. A. R.

Kirkbride, D., 1966 Five Seasons At The Pottery ٤٥ -
Neolithic Village Beidha IN Jordan. **PEQ** 98 : 8 - 72 .

Henry. D., 1982 The Prehistory OF Southern Jordan ٤٦ -
and Relationships with The Levant. **Journal of Field Archaeology** 9/4 : 417 - 44 .

Henry. D., 1988 Summary of Prehistoric and Palaeonvironmental Research IN THE Northern Hisma. IN : Garrard, A.,and Gebel H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan.** Bar. Intern. Series 396 : 7 - 37 Oxford. B. A. R.

Henry. D., 1982 The Prehistory OF Southern ٤٧ -
JordanAND Relationships with the Levant. **Journal OF Field Archaeology** 9/4 : 417 - 44 .

Henry. D., 1988 Summary of PrehistoricAND Palaeonvironmental Research in the Northern Hisma. IN : Garrard, A.,AND Gebel H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF**

Jordan. Bar. Intern. Series 396 : 7 - 37 Oxford. B. A. R.

Gebel, H. G., 1985 Late Epipalaeolithic - Aceramic - ٤٨
Neolithic Sites IN Petra Area. (Early Holocene Research). A Preliminary Report on the 1984 Campaignes. **ADAJ** 29 : 89 - 114.

Gebel. H. - G., 1988 Late Epipalaeolithic - Aceramic Neolithic Sites in the Petra Area. IN : Garrard. A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan.** Bar. Intern. Series 396 : 67 - 100 . Oxford. B. A. R.

Byrd, B.,And Rollefson, G., 1984 Natufian — ٤٩
Occupation IN THE Wadi El - Hasa, Southern Jordan. **ADAJ** 228 : 143 - 50 .

Kirkbride, D., 1958 A Kebaran Rockshelter in Wadi - ٥٠
Madamagh, Near Petra, **Man** 58 : 55 - 58 .

Kirkbride, D., 1966 Five Seasons At The Pre - Pottery Neolithic Village Beidha IN Jordan . **PEQ** 98 : 8 - 72 .

Schyle. D.,AND Uerpmann. H. - P., 1988 Palaeolithic Sites IN Petra Area. IN : Garrard, A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehisotory of Jordan** Bar Intern. Seires 396 : 39 - 65 Oxford. B. A. R.

Bennet. C., 1980 Soundings At Dhra, Jordan. - ٥١

Levant 12 : 30 - 39 .

Raikes. T. D., 1980 Notes on Some Neolithic and Later Sites IN Wadi ArabaAND THE Dead Sea Valley, **Levant** 12 : 40 - 60.

Kuijt, I.,and Mahasneh, M., 1995 Dhra' and Ain Waida. **American Joural of Archaeology** 99/3: 504 - 5 .

Kirkbride, A.,AND Harding, I., 1947 Hasma. **PEQ** - ٥٢

79 : 7 - 26 .

Stekelis, M., 1947 Hasma. **PEQ** 79 : 26 - 27 . - ٥٣

Kirkbride, D., 1960 Ain Abu Nkeileh. **Revue** - ٥٤

Biblique 67 : 231 - 232 .

Kikbrid, D., 1978 The Neolithic on the Wadi Rumm : Ain Abu Nekheileh. Pp. 1 - 10 IN **Archaeology IN THE Levant, Essays For Kathleen Kenyon.** Edit. By Roger Moorey and Peter Parr. Warminster : ArisAND Phillips Ltd.

Nissen. H., Muheisen. M.,and Gebe., H. 0- G., with - ٥٥

Contributions by Becker, C., Neef. R., Pachur. H., Qadi.

N.and Schult, A., 1987 Report on the First Two Seasons at Basta (1986 - 1987). **ADAJ** 31 : 79 - 120 .

Nissen. H., Muheisen. M.,and Gebe., H. 0- G., WITH Contributions BY Becker, C., Neef Hermansen. D., Karasneh. W., Qadi, N. Schults, M.,and Scherer, A., 1991 Report On the First Two Seasons at Basta (1986 - 1987). **ADAJ** 315 : 13 - 40 .

Kirkbride, D., 1960a A Short Account of the — ٥٦

Excavations at Petra IN 1955 - 56. **ADAJ** 4 - 5 : 117 - 22 .

Kirkbirde,D., 1960b The Excavation of A Neolithic Village AT Seyle Aqlat, Beidha, Near Petra. **PEQ** 92 : 136 - 145 .

Kirkbirde,D., 1962 Excavation of THE Prepottery Neolithic Village at Seyl Aqlat, Beidha. **ADAJ** 6 - 7 : 7 - 12 .

Kirkbirde,D., 1963 Seyl Aqlat, A Pre - Pottery Village near PETRA. **Illustrated London News** January 19 : 82 - 84 .

Kirkbride, D., 1966a Five Seasons at the Pre - Pottery Neolithic Village Beidha in Jordan. **PEQ** 98 : 8 - 72 .

Kirkbirde,D., 1966b Beidha. An Early Neolithic Village Jordan. **Archaeology** 19/3 : 199 - 207 .

Kirkbride, D., 1966e Beidha 1965 Campaigns. **Archaeology** 19/4: 268 - 272 .

Kirkbride, D., 1967 Beidha 1965 An Interim Report. **PEQ** 99 : 5 - 13 .

Kirkbride, D., 1968 Beidha 1975 An Interim Report. **PEQ** 100 : 90 - 96 .

Kirkbride, D., 1968 Beidha Early Neolithic Village, Life South of the Dead Sea. **Antiquity XLII :** 263 - 74 .

Kirkbride, D.,1984 The Environment of the Petra Region During THE Pre - Pottery Neolithic **Studies OF The History AND Archaeology OF Jordan** 2 : 117 - 124 .

Mortensen. P., 1970 A Preliminary Study of the - ٥٧

Chipped Industry FROM Beidha **Acta Archaeologia** 41 : 1 - 54.

Mortensen. P., 1988 A Note on A Small Box WITH Blades and Arrowheads from beidha and Implications. IN : Garrad, A.,and H. Gebel. (Eds.). **The Prehistory of Jordan.** Bar. Intern Series 396 : 199 - 207 . Oxford. B. A. R.

Perkins. D., Jr., 1966 The Fauna From Madamagh - ٥٨

AND Beidha . A Preliminary Roport. **PEQ** 98 : 66 - 67 .

Gebel, H. G., 1985 Late Epipalaeolithic - Aceramic - ٥٩

Neolithic Sites in Petra Area. (Early Holocene Research). A

reliminary Report on the 1984 Campaignes. **ADAJ** 29 : 89 - 114.

Gebel. H. - G., 1988 Late Epipalaeolithic - Aceramic Neolithic Sites in the Petra Area. IN : Garrard. A.,AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan.** Bar. Intern. Series 396 : 67 - 100 . Oxford. B. A. R.

Henry. D., O., 1982 The Prehistory of Southern -١٠
Jordan AND Relationships with the Levant. **Journal of Field Archaeology** 9/4 : 417 - 47 .

Henry. D., 1988 Summary of Prehistoric and Lalaeonvironmental Research in THE Northern Hisma. in : Garrard, A.,AND Gebel H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan.** Bar. Intern. Series 396 : 7 - 37 Oxford. B. A. R. Intern. Series 396 . Oxford. B . A. R.

Gebel, H. G., 1985 Late Epipalaeolithic - Aceramic -١١
Neolithic Sites in Petra Area. (Early Holocene Research). A Preliminary Report ON THE 1984 Campaignes. **ADAJ** 29 : 89 - 114.

Gebel. H. - G., 1988 Late Epipalaeolithic - Aceramic Neolithic Sites in The Petra Area. in : Garrard. A.,and Gebel.

H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan.** Bar. Intern. Series 396 : 67 - 100 . Oxford. B. A. R.

١٢ - Kirkbride, D., 1966 Five Seasons at the Pre - Pottery Neolithic Village Beidha IN Jordan. **PEQ** 98 : 8 - 72 .

Gebel. H. - G.,AND Starck. J. M., 1985 Investigations in to The Stone Age OF THE Petra Area (Early Holocene Researchg). A Preliminary Report on the 1984 Campaignes. **ADAJ** 29 : 89 - 114.

Gebel, H. - G., 1988 Lateepipalaeolithic - Aceramic Neolithic Sites in the Petra Area. IN : Garrard. A.,AND Gebel H. - G., (Eds.): **The Prehistory of Jordan.** Bar. Intern. Series 396 : 67 - 100. Oxford. B. A. R.

Schyle, D.,and Uerpmann. P. - H., 1988 Palaeolithic Sites in the Petra Area in : Garrard. A.,and Gebel H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan.** Bar Intern. Series 396 : 39 - 65 . Oxford. B. A. R.

١٣ - Mac Donald, B., 1980 The Wadi El Hasa Survey . 1980 A Preliminary Report. **ADAJ** 24 : 169 - 183 .

١٤ - Rollefson, G.,and Kafafi. Z., 1985 Dhirbet Hammam: ; A PPNB Village in the Wadi EL Hasa. Southern

Jordan **Bulletin of the American Schools of Oriental Research** 258 : 63 - 69 .

Najjar, M., 1994 Ghuwair I. A Neolithic Site IN - ١٥

Wadi Feinan. IN : Kerner, S., (Ed.) : **The Near East in Antiquity.** German Contributions to THE Archaeology OF Jordan. Palestine. Syria, Lebanon.and Egypt. Vol. III : 75 - 85.

Bennet. C., 1980 Soundings at Dhra, Jordan. **Levant** - ١٦

12 : 30 - 39 .

Raikes T. D., 1980 Notes ON Some Neolithic AND Later Sites IN Wadi Araba and the DEAD Sea Valley . **Levant** 12 : 40 - 60 .

Hauptmann. A.,and Wwisgerber, G., 1987 — ١٧

Archaeometallurgical and Mining Archaeological Investigations in the Area OF Feinan, Wadi Araba (Jordan.) **ADAJ** 31 : 419 - 437 .

Najjar. M., Abu Dayya A., Suleiman. E., — ١٨

Weisgerber, G.,AND Haubtman. A., 1993 Tell Wadi Feinan The First Pottery Neolithic Tell in the Southern of Jordan. **ADAJ** 34 : 17 - 56 .

Najjar, M., 1992 The Wadi Feinan / Wadi Araba: A New Pottery Neolithic Site FROM Jordan in Kerner, S., (Ed.) : **The Near East IN Antiquit.** German Contributions TO THE Arachaeology of Jordan. Palestine, Syrian Lebanon AND Egypt. Vol. III : 19 - 28 .

Khalil, L., 1987 Preliminary Report On The 1985 -٦٩

Seaseon of Excavation at El - Maqass Aqaba . **ADAJ** 31 : 481 - 84 .

Khalil. L., 1988 Excavation at EL Maqass - Aqaba 1985 . **Dirasat** 15/7: 77 - 117 .

Khalil, L., 1992 Some Technological Features FROM A Chalcolithic Site At El Maqass Aqaba **SHAJ** 4 : 143 - 48 .

Vianello E., 1985 LA Preistoria NEL Deserto **L'** -٧٠

Unverso 56/1 : 71 - 89 .

Adams R.AND Genz II., 1995 Excavations at Wadi -٧١

Fidan 4 : A Chalcolithic Village Complex in the Copper Ors District OF Feinan, Southern Jordan. **PEQ** 172 : 8 - 20 .

إشكالية مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك

الخاص

بتحطيم الأيقونات ومدى تأثيره في سياسة

الامبراطور ليو الثالث اللاأيقونية

د. عبد الرحمن محمد العبد الغني

جامعة الكويت

تذهب بعض الروايات التاريخية إلى أن الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ / ٧١٩ - ٧٢٣م) ، قد أصدر مرسوماً بتحطيم الأيقونات[1] في الكنائس والأديرة الواقعة في داخل الدولة الإسلامية .

وانقسم الباحثون المعنيون بهذه المسألة إلى فريقين ، الأول يشك في صدور مثل هذا المرسوم ، ويعد مثل هذه الروايات وهماً لا أساس تاريخي لها . أما الفريق الثاني فيكتفي بالقول إن هذا المرسوم حقيقة تاريخية لايرقى الشك إليها ، بل يذهب إلى أنه كان لهذا المرسوم تأثير كبير في بيزنطة بحيث تبنى أحد الأباطرة المعاصرين ليزيد وهو ليو الثالث الأيسوري (٧١٧ - ٧٤١م / ٩٩ - ١٢٤هـ) سياسة معادية للأيقونات .

أما وقد تضاربت الآراء حول هذا الموضوع المثير الذي يغري بالبحث والدرس فقد ولجناه لابهدف القطع الحاسم اثباتاً أو نفياً ، بقدر ما نطمح إليه من طرح الإشكالية وتوصيفها توصيفاً علمياً رصيناً ، لذلك سنقوم على رصد كل النصوص المتاحة ومناقشة مضمونها بما يحقق غرض الباحث .

أشارت المصادر التي تناولت عهد الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك إلى قيامه بتحريم وضع الأيقونات في الكنائس في الدولة الإسلامية . ومن المعروف أن الإسلام وقف واضحاً من مسألة التصوير كما سيتضح بعد قليل ، ولكن الأمر الذي يثير الحيرة هو ، لماذا أصدر خليفة من خلفاء المسلمين مرسوماً بتحريم تقليد منتشر في الكنيسة المسيحية ؟ ولماذا كل توقيت هذا المرسوم في عهد يزيد ، ولم يصدر قبل ذلك؟ وما أثر هذا المرسوم في مرسوم آخر مماثل له صدر في عهد الامبراطور البيزنطي ليو الثالث ؟ وهو المرسوم الذي بدأت به الحركة اللأيقونية في عصر الأسرة الايسورية. إن التوصل إلى اجابات شافية عن هذه التساؤلات تشكل القضية الأساسية لهذه الدراسة .

ذلك أن الامبراطورية البيزنطية شهدت في القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) حركة إصلاحية دينية واسعة استهدفت تحريم عبادة الأيقونات . وأطلق

على هذه الحركة اسم الحركة اللاأيقونية Iconoclasm ـ أي سياسة تحريم الأيقونات(١). ويرجع بعض الدارسين إلى أن هناك أسباباً ودوافع اقتصادية واجتماعية أدت إلى هذه الحركة ، ومنها رغبة أباطرة تحطيم الأيقونات إلى تقليم أظافر المؤسسات الدينية والأديرة التي كانت قد أثرت ثراء فاحشاً . وخشيتهم من تحول البيزنطيين إلى عبادة الأصنام والرموز الوثنية (٢) . وعلى الرغم من أن المؤرخين اهتموا بهذه الحركة ـ التي امتدت مابين ٧٢٦ ـ ٨٣٤م / ١٠٨ ـ ٢٢٩هـ ـ اهتماماً كبيراً ، فإنهم لم يهتموا كثيراً بالربط بينها وبين المرسوم الذي أصدره يزيد بن عبد الملك قبل ذلك بسنوات قليلة ، بل لم يحظ المرسوم نفسه إلا بقليل من الاهتمام من جانب المؤرخين الحديثين (٣) . وسنحاول في هذه الدراسة الربط بين هذين الأمرين في ضوء موقف الاسلام من التصوير ، وذلك قبل أن نتتبع ماجاء في المصادر من نصوص ذات علاقة وثيقة بهذه القضية ، بغية مقارنة ماجاء فيها مع بيان أثر الإسلام في سياسة تحريم الأيقونات في عهد الامبراطور ليو الثالث .

ذلك أنه من المعروف أن الإسلام وقف موقفاً معارضاً من تصوير الكائنات الحية أو عمل تماثيل لها . ومع أننا لانجد نصاً صريحاً في القرآن الكريم ينهى أو يبيح تصوير الكائنات الحية آدمية كانت أم حيوانية ، إلا أننا يجب أن نأخذ في الحسبان ماجاء في الأحاديث النبوية بشأن موقف النهي عن التصوير . حيث وردت بعض الأحاديث النبوية التي تنفر من تصوير الكائنات الحية وتنهى عن عمل تماثيل لها (٤) .

ومن هذه الأحاديث ماورد في البخاري « أن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون » (٥) . لذ صار المصورون مغضوباً عليهم من الفقهاء .

وعرضة لسخطهم وسخط المجتمع [٦] .

وكانت بعض هذه الأحاديث تخص صوراً وجدت داخل الكعبة ، حيث أن بعضها عبرت عن صور لبعض الأنبياء والشجر والملائكة ، من هذه الصور صورة للسيد المسيح عليه السلام وأمه السيدة العذراء [٧] . لذلك أمر الرسول الكريم بإزالة جميع الصور المعلقة واعتبرها من التي حاربها الإسلام ونهى عن عبادتها .

وقد جاء في السيرة النبوية لابن هشام « أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح ، فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم .. فأمر بتلك الصور كلها فطمست» [٨]. أما الأزرقي فيذكر رواية تفيد أن الرسول ﷺ قد أبقى على صورتي المسيح عليه السلام وأمه السيدة العذراء [٩] .

على أية حال ، لم يذهب المسلمون في أول عهدهم بالإسلام بعيداً في كراهيتهم للتصوير ، والدليل على ذلك الحديث الذي أورده البخاري ، من أن السيدة عائشة قالت : « قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سترت بقرام [١٠] لي على صهوة [١١] لي فيها تماثيل فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه ، وقال أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله ، قالت فجعلناه وسادة أو وسادتين [١٢] ونرى هنا أن غضب رسول الله ﷺ يسكن عندما صنعت السيدة عائشة من القرام وسادة أو وسادتين استعملها النبي الكريم نفسه و لم يبال بالصور التي فيها ، وذلك لأنها غير محرمة لذاتها [١٣] .

ويبدو أن مبررات النهي عن التصوير لم يقصد بها منع رسم مايشابه خلق الله ، وإنما كان للنهي هدف آخر وهو حماية المسلمين ـ الذين كانوا في أوائل عهدهم بالإسلام ـ من شبهة الوثنية وعبادة الأصنام .

وعلى هذا فإن التصوير في حد ذاته غير ممنوع ، إلا إذا تعرض لشيء فيه روح ، والدليل على ذلك أن ابن عباس أجاز التكسب من صناعة التصوير(١٤) .

ونستخلص مما سبق : أن الإسلام لم ير في التصوير شيئاً محرماً ، إلا إذا تعرض لشيء فيه روح ، أو لصناعة تماثيل بغرض عبادتها دون الله ، أو مضاهاة ماخلق الله من مخلوقات . وقد اتفق رأي كثيرين من المفسرين والفقهاء على أن الهدف من النهي عن التصوير هو ابعاد المسلمين عن عبادة الأصنام التي كانت منتشرة بين العرب قبل الإسلام ، وجوازه إذا قصد به الزينة المباحة(١٥) .

وهناك من يقول : إن النهي عند المسلمين قد تأثر بموقف الديانة اليهودية التي تحرم هي الأخرى الصور في المعابد اليهودية ، وأن المسلمين قد تأثروا ببعض اليهود الذين أسلموا(١٦) . ولكن من الثابت أن المسلمين لم يرسموا أو يزينوا مساجدهم بشيء من هذا القبيل ، ولم يعرفوا الصور المقدسة منذ مجيء الاسلام وحتى وقتنا الحاضر .

وننتقل في ضوء ماسبق لنتتبع ماجاء في المصادر على اختلافها عن مرسوم يزيد بن عبد الملك الذي نص على تحريم الأيقونات في الكنائس والأديرة الواقعة داخل الدولة الإسلامية .

والواقع أنه في دراستنا للمصادر البيزنطية لابد من الإشارة إلى رسالة البطريرك جرمانوس Germanus ، لأنه كان معاصراً للحركة اللاأيقونية ، إذ تولى كرسي بطريركية القسطنطينية في الفترة ٧١٥ إلى ٧٣٠م (٩٧ ـ ١١٢هـ) وقد كتب جرمانوس رسالة إلى توماس أسقف كلاديوس Thomas of Cloudis Polis وهو أحد الاساقفة اللاأيقونيين في آسية الصغرى ، وذلك حوالي سنة ٧٢٤م / ١٠٦هـ .

وترجع أهمية هذه الرسالة التي وصلتنا ضمن أعمال وقرارات المجمع المسكوني السابع الذي انعقدت جلساته في نيقية عام ٧٨٧ / ١٧١هـ[١٧] . إلى أنها تتضمن هجوماً على اليهود لموقفهم المعادي للصور ، فضلاً عن انتقاد المسلمين للسبب نفسه ، رغم تقديسهم للحجر الأسود على حد قوله[١٨] .

وهكذا عبّر البطريرك في هذه الرسالة عن موقفه المعادي للسياسة اللاأيقونية للامبراطور ليو الثالث ، حتى أنه رفض التوقيع على مرسوم التحريم الذي أصدره هذا الامبراطور عام ٧٣٠م / ١١٢هـ ، مما أدى إلى عزله من منصبه[١٩] .

على أن أهم مصدر في التاريخ البيزنطي يتناول جذور الحركة اللاأيقونية في الامبراطورية البيزنطية والتأثيرات اليهودية والإسلامية فيها ، هو تقرير الأسقف يوحنا المقدسي **John of Jerusalem** الذي كان نصيراً للأيقونات ، وممثلاً لاسقفيات آسية الصغرى في المجمع ، والذي قرأه في الجلسة الخامسة للمجمع المسكوني السابع السابق ذكره[٢٠] . وقد بدأ الأسقف يوحنا تقريره بالإشارة إلى أن انتشار تيار تحريم عبادة الأيقونات في الامبراطورية البيزنطية إنما يرجع إلى انتقال « وباء التحريم » من الدولة الاسلامية إلى بيزنطة ، وذكر في تقريره أن الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك كان طائشاً يفتقر إلى الحكمة وبعد النظر ، وأن أحد العرافين اليهود ويدعى بذي الأربعين ذراعاً قد جاءه في أحد الأيام ليقرأ له طالعه ، فقال له : « سوف تبقى في ملكك ثلاثين عاماً إذا اتبعت نصيحتي ، فانفرجت اسارير الخليفة وأجابه أنه على استعداد تام للعمل بما يقترحه عليه ، فقال له العراف اليهودي : « أصدر الأوامر في الحال واكتب منشوراً إلى جميع أرجاء الخلافة تنص على تحريم وتحطيم كل شكل من اشكال التصوير سواء أكان على ألواح خشبية أم على حوائط مزينة بالفسيفساء ، أو على آنية مقدسة

أو على النسيج الذي يغطي الهياكل المقدسة في الكنائس » . ويمضي التقرير قائلاً أن الخليفة يزيد استجاب للعراف ، وأرسل مبعوثين بمرسوم لتحطيم وإزالة الأيقونات من الكنائس القائمة في أقاليم الخلافة(٢١) .

وهكذا نجم عن نصيحة هذا العراف اليهودي أن تم تجريد الكنائس المسيحية من كل ما فيها من الأيقونات . وقد حدث كل هذا قبل أن ينتشر تيار تحريم وتحطيم الأيقونات في الامبراطورية البيزنطية(٢٢) . ويوضح التقرير أن المسيحين اضطروا إلى الهرب من كنائسهم فقام الولاة بتكليف اليهود والمسلمين بالقيام بمهمة تحطيم وإزالة الأيقونات كما قاموا بطلاء جدران الكنائس وكشط ماعليها من صور .

ويفهم من هذا التقرير ايضاً أن التيار المناهض لعبادة الأيقونات انتشر بعد ذلك بسرعة في الامبراطورية البيزنطية ، ولقى تأييد بعض رجال الكنيسة مثل أسقف ناكولية في شرقي آسية الصغرى . وأشار الأسقف يوحنا في ختام تقريره إلى أن الخليفة الأموي يزيد توفي بعد عامين ونصف لتعود الأيقونات إلى مكانها الأصلي في الكنائس والأديرة القائمة في الدولة الإسلامية .

ويتضح من هذا التقرير المقدم إلى المجمع والذي عادت بموجبه عبادة الأيقونات في الامبراطورية البيزنطية بشكل مؤقت عام ٧٨٧م / ١٧١هـ - أن الأسقف المذكور ألقى باللوم في انتشار الحركة اللاأيقونية في بيزنطة على تأثيرات يهودية واسلامية . كما يؤكد التقرير على صدور مرسوم للخليفة يزيد في عام ١٠٣هـ / ٧٢١م تم بموجبه تحريم عبادة الأيقونات في الكنائس والأديرة الموجودة في أنحاء الدولة الاسلامية وتحطيمها . كذلك يعد هذا المرسوم سابقاً للمرسوم الذي أصدره الامبراطور ليو الثالث الأيسوري سنة ٧٢٦م / ١٠٨هـ للغرض

نفسه[٢٣] .

وكانت الافادة التي تقدم بها الأسقف ميسانا Messana إلى المجمع نفسه ، دليلاً آخر على صدور مرسوم يزيد بن عبد الملك . فمن المعروف أن هذا الأسقف قد شارك في جلساته وأكد في إفادته على أنه كان موجوداً في بلاد الشام زمن صدور مرسوم الخليفة يزيد القاضي بتحطيم الأيقونات[٢٤] .

ومن ناحية أخرى ، تعد حولية المؤرخ ثيوفانس Theophanes (ت ٨١٨م / ٢٠٣هـ) من المصادر البيزنطية المعاصرة للفترة موضوع البحث ، فقد كتب حوليته في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ، وأكد فيها على أن يزيد بن عبد الملك أصدر مرسوماً ضد الأيقونات بسبب تأثره بساحر يهودي وفد إليه من مدينة اللاذقية ، وتنبأ له بحكم يطول أربعين عاماً إذا قام بتحطيم أيقونات الكنائس الواقعة في دولته . وبالفعل أصدر الخليفة مرسوماً بذلك ، ولكنه توفي في العام نفسه . ويوضح ثيوفانس أن وفاة يزيد بن عبد الملك بعد صدور المرسوم وبالتالي ايقاف تنفيذه كان سبباً في أن معظم السكان في أمصار الدولة الاسلامية لم يكونوا على دراية بهذا المرسوم[٢٥] . ويضيف ثيوفانس أن فحوى هذا المرسوم اللاأيقوني للخليفة الأموي قد انتقلت إلى الامبراطور البيزنطي ليو عن طريق رجل يدعى بسر Beser أو بشر Bishr . ويذكر ثيوفانس أن هذا الرجل كان مسيحياً ثم اعتنق الاسلام ، وأنه هرب من بلاد الشام (ربما بعد وفاة يزيد بن عبد الملك) متجهاً إلى القسطنطينية حيث اتصل بالامبراطور البيزنطي واكتسب ثقته ونال الحظوة لديه لما تمتع به من قوة جسمانية ، وميول هرطقية على حد قول ثيوفانس[٢٦] . ومن قراءة هذه السطور التي أوردها الأخير، يمكننا أن نستخلص أن الخليفة يزيد أصدر مرسوماً بتحطيم الأيقونات تحت تأثير عراف

يهودي . وهكذا يتضح ـ كما يرى الأستاذ فازيلييف أن بسر أو بشر المذكور في رواية ثيوفانس ، هو العراف اليهودي ذي الأربعين ذراعاً الـذي ذكـره الأسـقف يوحنـا المقدسـي في التقريـر الـذي قـرأه في الجلسـة الخامسـة للمجمـع المسـكوني السابع(٢٧) .

وتعد كتابات نقفور بطريرك القسطنطينية (٨٠٥ ــ ٨١٦م) مـن المصـادر البيزنطية التي أشارت إلى المرسوم موضوع الدراسة ، إذ ينسب لنقفور هذا ثلاث رسـائل بلاغيـة كتبهـا ضـد الامـبراطور قسـطنطين الخـامس رداً علـى الأسـس اللاهوتية والأدلة التي استند عليها الامبراطور المذكـور في الدعـوة لسياسـة تحريـم عبـادة الأيقونـات(٢٨) . فقـد أشـار في احـدى هـذه الرسـائل إلى قـدوم العـراف اليهودي من مدينة طبرية ، وأنه كـان يحمـل لقـب ذي الأربعـين ذراعـاً طـولاً . ويكرر البطريرك نقفور الرواية نفسـها الخاصـة بنبـوءة طـول العمـر والعهـد الـتي ذكرها العراف اليهودي للخليفـة يزيـد إذا قـام بتحطيـم الأيقونـات . ويقـول إن المرسوم أنتهك حرمة المقدسات بتحطيـم الأيقونـات في الكنـائس الواقعـة داخـل الدولة الاسلامية . ويتهم نقفور اليهود والمسلمين بتنفيـذ المرسـوم المذكـور ، ولم يمض وقت طويل حتى امتـد تأثير الحركـة اللاأيقونيـة مـن الدولـة الاسـلامية إلى الامبراطورية البيزنطية(٢٩) . ويقول في هذا الصدد « ومـا أن وصلـت بـذور هـذا الشر (معاداة الأيقونات) إلى الامبراطورية البيزنطية ، وبلغت الامبراطور الجالس علـى العرش ويدعـى ليـو ، الـذي كـان فاسـقاً قـاصراً مثـل ذلـك المتـبربر (يقصد يزيد) ، حتى قام بانتزاع الأيقونات من الكنائس المسيحية »(٣٠) .

وهناك رسالة رابعة لنقفور حول هذه المسألة ، ومفادها أن اليهـودي التقـى الخليفة يزيد وهو على فراش المرض ، وأنه بشره بالشفاء إذا ما أقـدم علـى تحريـم

الأيقونات وازالتها من كنائس دولته ، ويكـرر البطريرك نقفور اتهامه في هذه الرسالة لليهود والمسلمين ، بأنهم كاوا أصـل الـداء ، وأن تيـار التحريـم المعـادي للأيقونات إنما انطلق من بلاد الشام وانتشر في آسية الصغرى التابعة للامبراطورية البيزنطية[٣١] .

ولم تقتصر الاشـارة إلى مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك على حولية ثيوفانس وكتابات البطريرك نقفور ، وإنما أشـار إليه أيضاً جورج الراهـب في حوليته . والمعروف أن هذا الأخـير كتـب في عهـد الامـبراطور ميخـائيل الثـالث Michael III (٨٦٧ - ٢٥٣هـ) تاريخاً للعالم ، من بدء الخليفة حتى عام ٨٤٣م / ٢٢٨هـ[٣٢] . وكان جورج الراهب قاسياً في حكمه على اليهـود ودورهـم في تحريض الخليفة يزيد بن عبد الملك على اصدار المرسوم المذكور . ويكرر جـورج الراهب قصة تأثر الخليفة الأموي بأقوال العرافـين ، ولكنـه يوضـح أن التحريـض على تحطيم الأيقونات قام به أثنان مـن العرافـين اليهـود ، وليـس عرافـاً واحـداً . ويضيف إلى الرواية المألوفة ، أن هذين العرافين تملكهما خوف شديد عندما مات يزيد مما دفعهما إلى الهرب إلى أقليم أيسورية في شرق آسية الصغرى[٣٣] .

وتتكرر الاشارة إلى مسؤولية اليهود والمسلمين عـن انتشـار التيـار المنـاهض لعبادة الأيقونات في الامبراطورية البيزنطية في سير القدسيين . وتعد سيرة القديس ستيفن St. Stephen (المعروف بالصغير) من أهم سير القديسـين الخاصـة بفـترة الحركة اللاأيقونية في بيزنطة . والمعـروف أن القديس قـد قتـل في سنة ٧٦٥م / ١٤٨هـ في عهد الامبراطور قسطنطين الخـامس ، أمـا سيرته فقـد تم تدوينهـا في سنة ٨٠٦م / ١٩١هـ[٣٤] . ورغم أن كـاتب سـيرته لم يشر إلى يزيـد بـن عبـد الملك ، إلا أنه يتهم المسلمين باثارة التيار المعادي لعبادة الأيقونات[٣٥] .

وبالنسبة للمصادر البيزنطية اللاحقة ، يلاحظ أنها اشارة أيضاً إلى المرسوم موضوع هذه الدراسة ، ويبدو أنها اعتمدت على الحوليات البيزنطية الباكرة ، والتي سبقت الاشارة إليها . ولكنها أضافت لها أو حذفت منها بعض التفاصيل. فالمؤرخ كيدرينوس Cedrenus (عاش في القرن الثالث عشر الميلادي / السادس الهجري) يتحدث عن عدد من يهود اللاذقية الذين حضروا إلى الخليفة يزيد وقرأوا له الطالع ، وتنبأوا له بحكم يطول أربعين عاماً إذا قام بتدمير الأيقونات في الكنائس الواقعة في أمصار دولته . ويبين أن يزيد أصدر المرسوم ، إلا أنه توفي بعد ذلك بقليل أي قبل أن يتم ابلاغ ولاة الأقاليم وتنفيذه . وعندما هم خلفه بالانتقام من أولئك اليهود على النبوءة الكاذبة فرّوا إلى إقليم ايسورية(٣٦) .

أما المؤرخ زوناراس Zonaras (عاش في القرن الثاني عشر الميلادي « السادس الهجري ») فيبدو أنه اختزل في حوليته القصة ذاتها التي رواها جورج الراهب، وإن كان قد احتفظ بعناصرها الرئيسة ، فهو يتحدث عن قيام اثنين من اليهود بقراءة الطالع للخليفة يزيد بن عبد الملك ، ويشير إلى صدور مرسومه الخاص بتحطيم الأيقونات ، كما يذكر هروب العرافين إلى إقليم ايسورية بعد وفاة الخليفة الأموي(٣٧) .

ويتضح من هذا العرض للمصادر البيزنطية المعاصرة للفترة موضوع الدراسة واللاحقة على حد سواء ، أن الخليفة يزيد بن عبد الملك قد أصدر مرسوماً بتحطيم الأيقونات في الكنائس الواقعة في داخل الدولة الاسلامية . وإذا كانت التفاصيل التي تضمنتها الروايات التاريخية تشير إلى أن اليهود لعبوا دوراً في تحريض الخليفة ، فإن الباحث يرى أن كراهية تقديس الصور كانت تقليداً

معروفاً عند المسلمين ، ولم تكن قاصرة على اليهود .

أما عن المصادر اللاتينية فإنها تخلو من أية اضافة هامة بالنسبة لمرسوم يزيد بن عبد الملك موضوع هذه الدراسة ، لأن هذه المصادر كررت ما أوردته المصادر البيزنطية ، وخاصة رواية المؤرخ البيزنطي ثيوفانس دون أن تأتي بجديد . هذا على الرغم من أنها أشارت إلى تقارير أعمال المجمع المسكوني السابع(٣٨) .

وأما المصادر السريانية المعاصرة ، فإنها أشارت بوضوح إلى قيام الخليفة يزيد بن عبد الملك بإصدار المرسوم الآنف الذكر(٣٩) . ولكن تكمن أهميتها بالنسبة لهذا الموضوع في أنها تقدم اضافتين جديدتين ، الأولى أوردها ميخائيل السرياني Michel le syrien (عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر والثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلاديين « السادس - السابع الهجريين ») واعتمد فيها على مصادر باكرة لم يحددها ، ومفادها أن الامبراطور ليو عندما بدأ سياسته اللاأيقونية إنما فعل هذا سيراً على نهج الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك(٤٠) .

أما الاضافة الثانية فقد قدمها مؤرخ سرياني مجهول(٤١) ومفادها أن يزيد بن عبد الملك كلف أخاه مسلمة بن عبد الملك بتنفيذ المرسوم الذي أصدره بتحطيم كل الصور الموجودة في الكنائس والأديرة أو النقوش على الجدران أو الموجودة في المنازل أو المرسومة في الكتب . ويعد هذا المصدر الوحيد الذي يشير إلى تكليف مسلمة بن عبد الملك بتنفيذ المرسوم موضوع الدراسة(٤٢) .

كذلك أشارت المصادر الأرمنية إلى مرسوم يزيد . والمصدر الأول الذي يجب الوقوف عنده في هذا الصدد ، هو كتاب جيوفند Ghevond الذي يحمل

عنوان « تاريخ حروب وفتوحات العرب في أرمينية » والمعروف أن جيوفند عاش في النصف الثاني من القرن الثامن ، وبداية القرن التاسع الميلاديين (النصف الثاني من القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين) بمعنى أنه كان قريباً من الفترة موضوع الدراسة[٤٣] ، وذكر جيوفند أن سياسة يزيد بن عبد الملك اتصفت بالقسوة تجاه المسحيين الذين يعيشون في دولته ، بل قام باضطهادهم، والدليل على ذلك تلك الأوامر التي أصدرها بشأن تحطيم الأيقونات والصلبان ، وأنه دنس بذلك مقدسات المسيحية على حد قوله[٤٤] .

وعلى هذا فإن رواية جيوفند تؤكد من طرفها على صدور مرسوم من جانب يزيد بن عبد الملك حقيقة تاريخية على الرغم من أنها لاتضيف معلومات جديدة ، ولكن نقرأ في موضع آخر من كتاب جيوفند نفسه نصاً يفهم أن تياراً مناهضاً للأيقونات التي يقدسها النصارى قد اجتاح الدولة الاسلامية ، وأن هذا التيار تميز بالتشديد والعنف . ففي معرض حديثه عن الحملة الاسلامية التي قادها مسلمة بن عبد الملك ضد القسطنطينية عام ٧١٧ ـ ٧١٨م / ٩٩هـ يسجل جيوفند كلمات وجهها مسلمة إلى الامبراطور ليو ابان المفاوضات التي جرت بينهما أثناء زحف المسلمين عبر آسية الصغرى ، قال مسلمة فيها[٤٥] : « أنني أعلن لك بأنني عقدت العزم وأقسمت ألا أعود قبل أن أحطم دولتك وأزيل تحصينات العاصمة التي وضعت فيها كل ثقتك ، وأجعل من كنيسة آيا صوفيا التي تقدسونها مسبحاً لجنودي ، وأحطم على رأسك خشب الصليب الذي تقدسونه » . إذا كان هذا النص صحيحاً ، وليس من مخيلة المؤرخ الأرميني فإنه يعكس بالإضافة إلى تصميم مسلمة بن عبد الملك على فتح القسطنطينية ، روحاً معادية للرموز الدينية عند النصارى بما في ذلك الأيقونات . ولانستبعد قيام

الخليفة الأموي يزيد بعد ذلك بتكليف أخيه مسلمة بمهمة تحطيم الأيقونات كما ذكر المؤرخ السرياني المجهول[٤٦] .

والجدير بالذكر ، أن بقية المصادر الأرمينية رددت ما أورده جيوفند ، وأعادت اصدار روايته عن تحطيم الأيقونات في عهد يزيد بن عبد الملك ، ولكن بصورة مختلفة[٤٧] .

أما المصادر الاسلامية ، فإنها لم تغفل الاشارة إلى مرسوم يزيد . وليس صحيحاً ماقاله بعض المؤرخين الحديثين أن المصادر الاسلامية خلت من أية اشارة إليه[٤٨] . فالطبري[٤٩] مثلاً كان قد أشار إلى ذلك اليهودي الذي التقى بالخليفة يزيد ، وأكد له بأنه سيحكم مدة أربعين عاماً ، إلا أنه لم يربط هذه النبوءة بضرورة تحطيم الخليفة للأيقونات الموجودة في كنائس دولته . كما قال الكندي[٥٠] (ت ٣٥٠هـ / ٩٦١م) في أحداث سنة ١٠٤هـ / ٧٢٢م وكتب يزيد في سنة أربع ومائة بكسر الأصنام فكسرت كلها ومحيت التماثيل وكسر فيها صنم حمام زبان بن عبد العزيز ...

كما تناول سفيروس بن المقفع المصري القبطي[٥١] (عاش في أواخر القرن العاشر الميلادي « الرابع الهجري ») في كتابه تاريخ بطارقة كنيسة الأسكندرية القبطية في عهد يزيد بن عبد الملك ، وأشار إلى مرسومه الخاص بتحطيم الأيقونات ، بل رسم بقلمه صورة قاتمة لنمو مشاعر العداء ضد النصارى قبل عهد يزيد ، والتي انتشرت بشكل خاص في ولاية مصر الأموية ، ويعدد صور الاضطهاد الذي عانى منه النصارى . ويجب توخي الحذر عند قراءة وصفه لصور الاضطهاد التي تعرض لها النصارى في مصر لأن كلماته يغلب عليها السخط والانفعال .

كما أشار إلى هذا المرسوم أثنان من المؤرخين الثقات ، وإن لم يكونا معاصرين أو قريبين من الأحداث التاريخية . ولكن تكمن أهميتهما بأنهما قد يكونا اعتمدا على مصادر معاصرة لم تصلنا . سجل الإشارة الأولى المقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) بقوله[٥٢] : « هدمت الكنائس وكسرت الأصنام بأجمعها وكانت كثيرة في سنة أربع ومائة والخليفة يومئذ يزيد بن عبد الملك فلما قام هشام بن عبد الملك في الخلافة كتب إلى مصر بأن تجري النصارى على عوايدهم وما بأيدهم من العهد .... » . أما الإشارة الثانية فقد وردت عند المؤرخ أبي المحاسن بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤١٩ م) عندما قال:[٥٣] ثم ورد عليه (يقصد واليه على مصر حنظلة بن صفوان في ولايته الأولى) كتاب الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان بكسر الأصنام والتماثيل فكسرت كلها ومحيت التماثيل من ديار مصر وغيرها في أيامه.

مهما يكن من أمر ، فانه يبدو أن عهد يزيد بن الملك شهد نمو مشاعر معادية للنصارى في دولته ، بدأت قبل عهده وبلغت الذورى في أيامه ، إلا أن ذلك يجب ألا يتخذ منه البعض ذريعة على الحسم بإصدار يزيد مرسوماً في هذا الصدد . وعلى هذا فإن ماجاء في المصادر البيزنطية بخصوص تحريض اليهود للخليفة الأموي من أجل اصدار هذا المرسوم يصبح غير ذات موضوع خصوصاً وأن هذه المعلومة لاسند لها في المصادر الاسلامية .

وتترك هذه المصادر انطباعا لدى القارىء بأن هناك فترات زمنية مرت في تاريخ المسلمين ازدادت فيها مشاعر العداء ضد النصارى ورموزهم الدينية ، وعلى هذا فإن ماجرى في عهد يزيد بن عبد الملك لم يكن حدثا فريدا بل يعبر عن ظاهرة تكررت مرات . مما يؤكد وجود علاقة بين سياسة يزيد بن عبد الملك

المتشددة ازاء النصارى وبين ماجرى في الامبراطورية البيزنطية من اصدار مرسوم الامبرطور ليو الثالث في عام ٧٣٠ / ١١٢هـ . أن صدور هذا المرسوم الأخير لم يكن متزامنا مع صدور المرسوم موضوع دراستنا . تلك الحقيقة تنفي بما لايدع مجالا للشك ظنون بعض المؤرخين الذين يربطون بين اندلاع ذلك النزاع الذى مزق الامبراطورية البيزنطية والذي ثار حول عبادة الأيقونات ، والذي بدأ رسميا بمرسوم الامبرطور ليو الثالث آنف الذكر ، وبين مرسوم يزيد بن عبد الملك موضوع الدراسة .

والواقع أن الدوافع التي حددت سياسة الامبراكطور البيزنطي اللاأيقونية كانت متعددة الأصول ، ويصعب أن نفترض دافعاً واحداً وراء تلك السياسة العنيفة ، التي استهدفت تحطيم الأيقونات في الامبراطورية . ولم يخطىء المؤرخون الحديثون في آرائهم ازاء دوافع تلك السياسة اللاأيقونية .

لقد كانت الدوافع السياسية واردة فضلاً عن دوافع أخرى دينية ، واجتماعية ، واقتصادية . كما أن وجود تأثيرات شرقية وافدة عبر الحدود الاسلامية البيزنيطية ، وتأثيرها على فكر الامبرطور ليو الثالث أمر لايمكن القطع فيه بحكم .

ومن المرجح أن تأثير الولايات الشرقية من الامبراطورية البيزنطية بالمسلمين الذين كانوا يطبّقون في معارضتهم لتقديس الأيقونات تعاليم دينهم . فالمسلمون نظروا إلى عبادة الأيقونات على أنها شكل من أشكال الوثنية ، لكن ذلك لايعنى رغبتهم وقدرتهم على تطبيق تعاليم دينهم داخل « دار الحرب ».

والمعروف أن الامبراطور ليو الثالث نشأ في مدينة مرعش ، حيث قضى طفولته في شمال الشام وشرق آسية الصغرى . وكانت هذه المدينة قد سقطت في

قبضة المسلمين سنة ١٦ هـ /٦٣٦ م . ولذا تأثرت حياة ليو في شبابه بالمسلمين بحكم الاتصال الدائم بهم في مرعش . ثم أمضى ليو معظم حياته جنديا وقائدا للثيم (البند) الأناضولي الذي كانت مهمته التصدى للجيوش الاسلامية الزاحفة عبر آسية الصغرى(٥٤) .

وقد تردد في بعض الروايات أن ليو كان على معرفة جيدة بالمسلمين ، كما كان يعرف العربية ، لكن ذلك لايتخذ ذريعة البتة لزعم ثيوفانس أن كراهية الامبراطور ليو الثالث لعبادة الأيقونات قد نشأت من اتصاله بالمسلمين(٥٥) . ورغم ماقاله ثيوفانس ، يرى فازيلييف أنه لاتوجد أدلة كافية للقول بأن ليو الثالث قد تأثر بالإسلام مباشرة(٥٦) .

قد يحتج البعض بوصول تيار المعارضة لعبادة الأيقونات إلى الولايات الشرقية من الامبراطورية البيزنطية ، على أساس أن تلك الولايات كانت تجاور الدولة الإسلامية ، ومع ذلك ، من المجازفة القول بأن ماأقدم عليه الامبراطور ليو الثالث من تحطيم الأيقونات في امبراطوريته كان نتيجة عامل ثانوي مفاده تأثره بالثقافة العربية الاسلامية ، خصوصاً وأن هذه الثقافة لم تكن قد تبلورت بعد خلال الحقبة الأموية . بل أن عصر التأسيس والتدوين للثقافة العربية الاسلامية لم يحدث إلا خلال الحقبة التالية في العصر العباسي الأول . إذن لم يكن التأثير الفكري الإسلامي هو الوحيد وراء الاتجاه اللاأيقوني ، رغم وجوده ، ووضوحه وفعاليته في تلك الولايات الشرقية من الامبراطورية . ومع ذلك فإن تحري حقيقة الأمر مناط بظروف تتعلق بالجانب البيزنطي . صحيح أن الاتجاه اللاأيقوني في الولايات الشرقية كان موجوداً قبل الإسلام ، كما أن ظهور الإسلام والاتصال الحضاري بين الدولة الاسلامية وتلك الولايات والتأثير الفكري الذي ترتب على

هذا الاتصال ماكان بوسعه أن يسهم في تنشيط الاتجاه اللاأيقوني فيها . فلابد إذن من وجود ثمة عوامل أخرى وراء ذلك الاتجاه اللاأيقوني الذي انتشر في الولايات الشرقية للامبراطورية البيزنطية ، مثل المواقف المعادية لعبادة الأيقونات التي كانت تتبناها بعض المذاهب المسيحية كالبيالصة (اتباع بولص) Paulicians في المنطقة الوسطى من الحدود البيزنطية الاسلامية ، وكانت هذه الطائفة تعارض عبادة الأيقونات[٥٧] . وربما كان وجود اليهود في تلك الولايات الشرقية عاملاً آخر خاصة وأنهم هاجموا بشدة عبادة الأيقونات .

على أن العامل الفاعل في تفسير سياسة ليو الثالث اللاأيقونية إنما يرجع إلى التدهور الاقتصادي الذي حل بالامبراطورية آنذاك في وقت تصاعدت فيه أخطار القوى المتربصة بيزنطة ، ومنها الجانب الاسلامي ممثلاً في حملة مسلمة بن عبد الملك سنة ٩٩هـ / ٧١٧م . لذا لم يكن هناك مناص لمواجهة هذه الأخطار من التعويل على ماتحويه الكنائس والأديرة البيزنطية من كنوز كانت تشكل الحافز الفعلي لمصادرتها باتباع سياسة لا أيقونية . وهذا يشكك على الأقل بوجود تأثير ديني اسلامي في سياسة بيزنطة الدينية . إن الزعم بصدور أول مرسوم سجلته بعض المصادر البيزنطية ضد عبادة الأيقونات في الدولة الاسلامية سنة ١٠٣هـ / ٧٢١م في عهد يزيد بن عبد الملك أمر محفوف بالشك العلمي .

وخلاصة القول ، إن النصوص والإشارات التي وردت في المصادر التاريخية، البيزنطية والسريانية والأرمينية والاسلامية ، دفعت معظم المؤرخين الحديثين إلى القول بأن مرسوم يزيد حقيقة تاريخية ثابتة . فيرى أسد رستم[٥٨] أن الخليفة يزيد الثاني قد أمر سنة ١٠٥هـ / ٧٢٣م بتحطيم الأيقونات في كنائس النصارى، كما ترى السيدة اسماعيل كاشف[٥٩] الرأي نفسه ، وذلك نقلاً عن سير الآباء

البطاركة . وتؤكد على أن هذا القرار قد شمل جميع بلاد الدولة الاسلامية . فمصر مثلاً ، لم تنج من حركة تحطيم التماثيل والصلبان وبعض الآثار الفرعونية. أما السيد الباز العريني[٦٠] فيقول إن مرسوم يزيد صدر قبل قرار ليو الثالث بإزالة الأيقونات ، وذلك نقلاً عن ثوفانس . ويؤكد وسام عبد العزيز[٦١] على أن مرسوم الخليفة الأموي قد صدر فعلاً في عام ١٠٦هـ / ٧٢٤م ، وأن لليهود أثراً في تحريض يزيد على اصدار هذا المرسوم . ويؤكد كل من أوستروفورسكي Ostrogorsky ، وفازيلييف Vasiliev[٦٢] وهما من المؤرخين الثقات في التاريخ البيزنطي ، على أن مرسوم يزيد قد صدر فعلاً ، وأن قرار الامبراطور ليو الثالث قد تأثر بالمؤثرات الإسلامية بل واليهودية المعادية لعبادة الأيقونات .

وفي ضوء ماتقدم ، نستطيع القول إن صدور مرسوم يزيد الثاني المتضمن إزالة الأيقونات من دور العبادة المسيحية الواقعة في حماية الدولة الإسلامية ، غدا أمراً لايقبل الشك . ولكن المسائل الفرعية المتعلقة ، بشكل أو بآخر ، بهذا المرسوم لاتزال مسائل جدلية ولم تحسم بعد ، منها مثلاً : هل صدر هذا المرسوم بتأثير أحد اليهود كما ذهبت بعض المصادر البيزنطية ؟ وهل تم تنفيذ هذا المرسوم على ارض الواقع ؟ وهل نفذ في كل الأمصار الإسلامية ؟ وماهو رد فعل الرعايا المسيحيين ؟ ثم هل وصل هذا المرسوم إلى أسماع الامبراطور البيزنطي ليو الثالث، وجعله يصدر بدوره مرسوماً مماثلاً بعد ثلاث سنوات يحرم فيه عبادة الأيقونات في امبراطوريته ؟ والواقع أن الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها مما قد تثيره هذه الإشكالية غير ممكنة في ضوء المعطيات التاريخية المتاحة . بل أن المؤرخين الحديثين اختلفوا . فإذا كان البعض قد انساق وراء المصادر البيزنطية واعتقد بتأثير يهودي في صوغ قرار يزيد الثاني[٦٣] . فإن البعض الآخر ينفي ذلك نفياً قاطعاً ، ويؤكد

على أن الخليفة لم يكن دمية بأيدي العرافين اليهود ، بل لانلمس أي تأثير يهودي في سياسة بني أمية وقراراتهم . وإذا كـان بعض المؤرخين البيزنطيين المعاصرين ذهبوا إلى التأكيد على أثر اليهود في هذه المسألة ، ربما كان السبب في ذلك هو لأن اليهودية قد حاولت عبادة الأيقونات قبل الإسلام ، وظن هؤلاء المؤرخون أن الموقف الإسلامي من الأيقونات هو في حقيقته استمرار للموقف اليهودي في هذه المسألة(٦٤) .

أما فيما يتعلق بإشكالية تأثر الامبراطور ليو الثالث الأيسوري بمرسوم يزيد. فإن هناك من يرى أن القضيتين مستلقتان عن بعضهما استقلالاً كاملاً ، فلكل منهما ظروفها الخاصة . فمرسوم يزيد له ظروفه ويرتبط بالعقيدة الإسلامية وتقاليد المجتمع العربي الإسلامي بل والتراث الشرقي قاطبة ، أما مرسوم ليو الثالث فهو يرتبط بظروف بيزنطة والتراث الاغريقي ، وأحوال الامبراطورية كافة. ولهذا فإننا لانستطيع الافتراض ـ كما ذهب بعضهم ـ إلى أن مرسوم ليو الثالث جاء استمراراً أو تحت تأثير قرار الخليفة الأموي . فإن لكل منهما ظروفه الخاصة وإن صدرا في وقتين متقاربين(٦٥) . بل لماذا لانفترض أن يكون الإمبراطور البيزنطي قد احتج احتجاجاً شديداً على قرار الخليفة يزيد ، وماتبعه من اجراءات ضد المسيحيين في الدولة الاسلامية ؟ ولماذا لانفترض أن تكون بيزنطة قد اعتبرت مثل هذا القرار الإسلامي هو انتهاك لحقوق المسيحيين في البلدان الاسلامية ؟ لاسيما وأن كل الاتفاقات التي وقعت بين الفاتحين المسلمين وسكان المدن المسيحيين في الشام ومصر تضمنت تعهد المسلمين بحماية حقوقهم وعقيدتهم وأرواحهم وأملاكهم ؟

أما والأمر كذلك ، لايمكن للباحث أن يقطع برأي يرجح أو ينفي ، وحسبه أنه طرح الاشكالية لباحثين تاليين ربما يكونون أحسن حظاً في العثور على نصوص جديدة تحسم القول في هذه الإشكالية .

والله ولي النعمة والتوفيق

هوامش البحث

١ ـ الأيقونات لفظ يوناني معناه الصور أو الرسم ، ويستعمل في المصطلحات الدينية للإشارة إلى صور القديسين . أنظر : أسد رستم : **الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب** (بيروت ، ١٩٥٦) ج١، ص٣٠٢ .

٢ ـ أسد رستم : **الروم** ، ج١ ، ص٣٠٥ ، وسام عبد العزيز فرج : **دراسات في تاريخ حضارة الامبراطورية البيزنطية** (الاسكندرية ، ١٩٨٢) ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

٣ ـ من المؤرخين الحديثين الذين اهتموا بهذا الموضوع فازيلييف ، انظر
Vasiliev, A., A., " The Iconoclastic Edict of the Caliph Yazid, A. D. 721 " , DOP, 9 - 10 (1956), pp. 25 - 47 .

٤ ـ نعمت اسماعيل علام : **فنون الشرق الأوسط في العصور الاسلامية** (القاهرة ١٩٨٢) ص٤٢، عفيف بهنسي : **الفن والاستشراق** (بيروت ، ١٩٨٣) ص٢٢٨ .

٥ ـ البخاري : **صحيح البخاري** (بيروت ، بدون تاريخ) ، ج٧ ، ص٢١٥ .

٦ ـ حسن الباشا : **التصوير في الإسلام في العصور الوسطى** (القاهرة ، ١٩٧٨) ص٤٢ .

٧ ـ حسن الباشا : **التصوير في الإسلام ، ص١٠** .

٨ ـ ابن هشام : **السيرة النبوية لابن هشام** (بيروت ، بدون تاريخ) ، ج٤ ، ص٥٥ .

٩ ـ الأزرقي : **أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار** (مكة ، ١٩٢٣) ،

ص١٠٦-١٠٧ .

١٠ - القرام : الستر الأحمر أو ثوب ملون من صوف فيه رقم ونقوش أو ستر رقيق كالمقرم . الفيروز آبادي : **القاموس المحيط** (بيروت ، بدون تاريخ) ، مادة « القرم » .

١١ - السهوة : الرف والطاق يوضع فيه الشيء ، أو بيت صغير شبه الخزانة الصغيرة . للمزيد أنظر : الفيروز آبادي : **القاموس المحيط** ، مادة « سها ».

١٢ - البخاري : ج٧ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

١٣ - أبو صالح الألفي : **الفن الإسلامي** (القاهرة ، بدون تاريخ) ، ص٨٤ .

١٤ - حسن الباشا : **التصوير في الإسلام** ، ص٤٢ .

١٥ - الألفي : **الفن الإسلامي** ، ص٧٩ .

١٦ - من المعروف أن اليهود حرموا عبادة الصور . أنظر :

Vasiliev, **History of Byzantine Empire** (Madison, 1958), I, p. 255.

١٧ - Mansi, J. D., Sacrorum Conciliorum nora et Amplissia Collectio (Florence, 1967 ff.) Vol. XIII, Col. 109 B - E .

١٨ - يسمى البطريرك جرمانوس Germanus الكعبة باسم حبر Khober ويدعى بأنها حجراً في الصحراء يقدسه المسلمون . أنظر :

Mansi, Vol. XIII, Col. 109 B - E.

١٩ - Ostrogorsky, G., **Byzantine State** (Oxford, 1968), P. 149; Vasiliev, **Byzantine Empire** vol. I. p. 258 .

٢٠ - انظر نص تقرير الأسقف يوحنا المقدسي في :

Mansi, Vol., XIII, Cols. 196 - 200. B - E.

٢١ - أيضاً انظر : وسام عبد العزيز فرج : **دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية** من ٣٢٤ _ ١٢٠٥م (الاسكندرية ، ١٩٨٢) ،

ص١٨٠ - ١٨١ .

٢٢ - Cambridge Medieval History, part IV, 2nd ed. (1966), p. 66 .

انظر : السيد الباز العريني : **الدولة البيزنطية** (بيروت ، ١٩٨٢) ، ص٢٠٤.

٢٣ - انظر نص كلمات الأسقف ميسانا Mansi أمام المجمع المسكوني السابع في: **Mansi**, Vol. XIII, Col. 200 B - E .

٢٤ - Theophane, I., **The Chronicle of Theophanes**, Eng. tr. H. Turthedove (Pennsylvania, 1982), p. 93.

٢٥ - Theophanes, p. 93.

٢٦ - Theophanes, **Ibid**.

٢٧ - ويلاحظ أن ثيوفانس يذكر اسم بسر أو بشر مرتين بعد ذلك . ذكر في المرة الأولى أنه كان رفيقاً « لليو المرتد » حسب قوله ، وساعده الأيمن في سياسته « الخرقاء » يعني السياسة اللاأيقونية . وفي المرة الثانية يشير ثيوفانس إلى البطريق بسر ب « ذي الميول الإسلامية » ويوضح أنه قتل في حرب قسطنطين الخامس Constantine V (٧٤١ - ٧٧٥م / ١٢٤ - ١٥٩هـ) ضد زوج أخته أرتفازدوس Artavasdos عام ٧٤١-٧٤٢م/ ١٢٤ - ١٢٥هـ

Theophanes, p. 97 and pp. 105 - 106; Vasiliev, Iconoclastic, p. 31. .

٢٨ - عن كتابات البطريرك نقفور انظر :

Blake, R., " Note sur L'activite' Litte'raire de Nicephore Ist Patriarche of Constantinople' , B, 14 (1939), pp. 1 - 15 .

٢٩ - عن رسالة البطريرك نقفور في الرد على الأسس اللاهوتية التي استند عليها الامبراطور قسطنطين الخامس في تحريم الأيقونات ، انظر :

S. Nicephori Antirrheticus, II, in; Migne, PC, vol. 100, Cols. 528 - 532 .

٣٠- Ibid., Col. 532 .

٣١- Ibid., Cols. 201 - 202; Vasiliev, Iconoclastic, p. 32 .

٣٢- George Monachus Hamartolus, Chronicle, ed. Boor (Leipzig, 1904) 2 vols .

ويلاحظ أن الجزء الأول وشطر من الجزء الثاني نقل جورج الراهب مادتهما من حولية ثيوفانس . أما بقية الجزء الثاني الذي يغطي الفترة بين عامي ٨١٣ ، ٨٤٢م (١٩٨ ، ٢٨٨هـ) فله أهمية خاصة :

Ostrogorsky, Byzantine State, p. 147.

٣٣- George Monachus, Chronicle, vol. 2., 735 - 76 .

٣٤- للمزيد عن نص سيرة القديس ستيفن Stephen (المعروف بالصغير) انظر:

Stephani Junioris Vita, in : Migne, PG, vol. 100, Cols. 1067 - 1186 .

وانظر أيضاً : وسام **دراسات** ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ حاشية ٧٨ .

٣٥- **Ibid**., Col. 1116.

٣٦- Cedrenus, I., **Compendium Historiarum**, ed. I. Bekker (CSHB, Bonn, 1838 - 1939), vol. I. p. 788 .

٣٧- Zonaras, I., **Epitomae Historiarum**, e. M. Pinder and Th. Buttmerr - Wobest (**CHSB**, Bonn 1481 - 1897), vol. 3., pp. 257 - 258 .

٣٨- Vasiliev, **Iconclastic**, pp. 35 - 36 .

٣٩- Denys de Tell - Mahr, **La Chronique**, tr. J. B. Chabot (Paris, 1895) p. 17: Michel le Syrien, **Chronique**, tr. J. B. Chabot (Paris, 1899 - 1905), Vol. II, p. 489 .

٤٠- Michal le Syrien, II. p. 491 .

٤١- عن هذه الحولية السريانية التي كتبها مؤرخ مجهول ، انظر :

Tharossian, H., **Histoire de la Litteature Arménienne. Des Origines Jusqu a nos Jours** (Paris, 1951), pp. 108 - 109 .

وانظر :

فايز نجيب اسكندر : **أرمينية بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني جيوفند** (٦٣٢ - ٦٦١م / ١١ - ٤٠هـ) ، مكتبة نشر الثقافة (الاسكندرية ، ١٩٨٢) ، ص ٣ - ١٣ .

Histoire des Guerres .

٤٤ - Ghevond, Historie des Guerres et des Conquêtes Arabes en Arménie, trad. G. V. Chahnazarian (Paris, 1856) p. 98 .

٤٥ - Ghevond, **Histoire des Guerres**, p. 98 .

٤٦ - انظر حاشية : ٤١ و ٤٢ .

٤٧ - Asolik, S., **Historie Universelle** (Iere Partie) , trad. E. Dulaurier (PARIS, 1883) , p. 158: Vardan, **La Domination Arabe en Arménie** trad. J. Muyldermans (Paris, 1927) , p. 104 .

٤٨ - ذكر أحد مؤرخي الفن البيزنطي الفرنسيين ، أن المصادر الاسلامية خلت من أي ذكر لمرسوم يزيد ، وهذا بالطبع خطأ . انظر :

De Vaux, R., ' Une Mosaique Byzantive a Main (Trans jordanie) ", RB, 47 (1938), p. 256 .

٤٩ - الطبري : **كتاب تاريخ الرسل والملوك** (القاهرة ، ١٩٦٧) ، ج٧ ، ص٢٢ .

٥٠ - الكندي : **كتاب الولاة وكتاب القضاة** (بيروت ، ١٩٠٨) ، ص ٧١ - ٧٢ . وللمزيد عن حمام زبان . أنظر :

Arnold, T., **Painting in Islam** (Oxford, 1928) , p. 85 .

٥١ - سفيروس بن المقفع : **تاريخ بطارقة كنيسة الاسكندرية القبطية** ، قام

افت B. Evett بنشر النص العربي للحوليه مع ترجمة انجليزية في الجزء الخامس من Patrologia Orientalis . انظر :

History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria (ed. Evetts), pp. 326 - 327 .

٥٢ - المقريزي : **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقريزية)** (بيروت ، ١٩٧٢) ، ص٤٩٣ .

٥٣ - ابن تغري بردى : **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** (القاهرة ، ١٩٧١) ج١ ، ص٢٥٠ .

٥٤ - عن الثيمات ، انظر : Ostrogorsky, State, pp. 80 - 149 . وانظر : أسد رستم : **الروم** ، ج١ ، ص٣٠١ ومابعدها .

٥٥ - وسام عبد العزيز فرج : **العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي** الهيئة العامة للكتاب (الاسكندرية ، ١٩٨١) ، ص٣٩٤ .

٥٦ - Vasiliev, **Byzantine Empire**, I, p. 255 .

٥٧ - Ostrogorsky, Byzantine State, p. 221 t; Vasiliev, Byzantine Empire, p. 256 .

٥٨ - أسد رستم : **الروم** ، ج١ ، ص٣٠٦ ، يوليوس فلهوزن : **تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية** (القاهرة ، ١٩٦٨) ، ص٣١٤ .

٥٩ - **السيدة اسماعيل كاشف** ، مصر في فجر الإسلام (بيروت ، ١٩٨٦) ، ص١٩٤ - ١٩٥ .

٦٠ - السيد الباز العريني : **الدولة البيزنطية** ٣٢٣ ـ ١٠٨١ (بيروت ، ١٩٨٢) ، ص٢٠١ - ٢٠٢ .

٦١ - وسام عبد العزيم ، **دراسات** ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

٦٢ - Ostrogorsky, **State**, pp. 161 ff; Vasiliev, **Byzantine Empire**, p. 257 ff.

٦٣ - Vasiliev, Iconoclastiv, pp. 25 ff; Ostrogor sky, **State**, pp. 161 ff;

انظر : وسام عبد العزيز : **دراسات** ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ، السيد الباز : **الدولة البيزنطية** ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

٦٤ - Ostrogorsky, state, pp. 161 ff; Jenkins R., Byzantium, The Imperial Centuries AD 610 - 1071 (London, 1966), pp. 82 ff. .

٦٥ - Jenkins, **Imperial, p. 82** ; **Cam . Med. Hist**. vol. 4, pp. 66 ff.

أولا : المصادر العربية

(١) ـ ابن غري بردي (ت ٨٧٤ هـ /١٤١٩م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي : **النجوم الزاهره في ملوك مصر والقاهرة** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، ١٩٧١) .

(٢) ـ ابن هشام (ت ٢١٨ هـ /٨٢٣ م) عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري : **السيرة النبوية لابن هشام** ، دار احياء التراث العربي (بيروت ، بدون تاريخ) .

(٣) ـ الأرزقي : الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٤٤ هـ / ٨٥٨م) **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار** ، المطبعة الماجدية (مكة ، ١٩٣٣) .

(٤) ـ البخاري (ت ٢٥٦ هـ /٨٦٩ م) محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ابن المغيرة بن بردزبة البخاري : **صحيح البخاري** ، دار احياء التراث العربي (بيروت ، بدون تاريخ) .

(٥) ـ الفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـ /١٤١٤ م) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي : **القاموس المحيط** ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر (بيروت ، بدون تاريخ) .

(٦) ـ الكندي (ت ٣٥٠ هـ / ١٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف : **كتاب الولاة وكتاب القضاة** ، مطبعة الآباد اليسوعين (بيروت ، ١٩٠٨) .

(٧) ـ المقريزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) تقي الدين أحمد بن علي : **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقريزية)** ، جزءان ، دار صادر (بيروت ، ١٩٧٢) .

ثانياً : المصادر البيزنطية والارمينية والسريانية

(**1**) Asolik (Stephen De Taron) ,**Histoire Universelle** (Iere Partie), Trad . E .Dulaurier (Paris , 1883) .

(**2**) Cedrnus , I., **Compendium Historiarum** Ed. I. Bekker (Chsb , Bonn, 1838 - 1839) .2vols .

(**3**) Denys De TELL - MAHRE (ou ANONYME De Zugnin) La Chronique , Tr . J . B Chabot (Paris,1895) .

(**4**) De Vaux, R, «**Une Mosaique Byzantine A Ma, in Transjordanie**» Revue Biblique, 47 (1938) .

(**5**) George Monachus Hamartolus,**Chronicle**, Ed De Boor (Leipzig, 1904) 2vols .

(**6**) Gregorius Bar - Hebraeus, **The Chronography**, Tr. E. Budge (London, 1932),2Vols.

(**7**) Ghevond, **Histoire Des Guerres ET DES Conquêtes Arabes En Arménie,** Trad, G. V. Chahnazarian (Paris, 1856).

(**8**) Severus Ibn - Al - Muqapfa, **History Of The Patriarchs Of The Coptic Church Of Al Exandria**, Ed. And Eng. Tr. B. Evetts, In Po, (1947),pp. 254 ff.

(9) Michel Le Syrien , Chronique, Tr. J.B.Chabot (Paris 1899 - 1905) 3Vols.

(10) S.Nicephori Antirrheticus iii, In :Migne, **Pg,Vol.** 100,Cols. 528 - 532.

(11) **Stephani Junioris Vita** In : Migne Pg, Vol. 100. Cols. 1067-1186.

(12) Theophanes, 1., **Chronicle Of Theophanes**, 1982 Eng. Tr H.Turledov.(Pennsylvania,1982).

(13) Vardan **La Domination Arabe en Arménie** Trad. J.Muyldermas (Paris, 1927).

(14) Zonaras , I. , **Epitomae Historiarum** , Edd.M.Pinder And Th. Buttner - Wobst (CSHB,Bonn 1841-1897), 3Vols.

ثالثا : المراجع العربية والمعربة

١ ـ اسد رستم : **الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب** ، ط١ ،دار المكشوف (بيروت ، ١٩٥٦) .

٢ ـ أبو صالح الألفي : الفن الاسلامي أصوله ، فلسفته ، مدراسه ، ط٣ ، دار المعارف (القاهرة ، بدون) .

٣ ـ حسن الباشا : **التصوير الاسلامي في العصور الوسطى** ، ك٢ ، مكتبة النهضة العربية (القاهرة ، ١٩٧٨) .

٤ ـ السيد الباز العريني : **الدولة اليزنطية** ٣٢٣ ـ ١٠٨١م ، دار النهضة العربية (بيروت ، ١٩٨٢) .

٥ ـ عفيف بهنسي : **موسوعة تاريخ الفن والعمارة** ـ الفن والاستشراق ، المجلد الثالث ، ط٢ (بيروت ، ١٩٨٣) .

٦ ـ فايز نجيب اسكندر : **أرمينية بين اليزنطيين والخلفاء الراشدين في ضوء كتابات المؤرخ الارمني جيوفند** (٢٣٦ _ ١٦٦ م/١١ ـ ٤٠هـ) ، مكتبة نشر الثقافة (الاسكندرية ، ١٩٨٢) .

٧ ـ نعمت اسماعيل علام : **فنون الشرق الأوسط في العصور الاسلامية** ، ط٣ ، دار المعارف (القاهرة ، ١٩٨٢).

٨ ـ وسام عبد العزيز فرج : **دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية** من ٣٢٤ ـ ١٠٢٥ م ، مطبعة مصنع اسكندرية (الاسكندرية ، ١٩٨٢) .

٩ ـ وسام عبد العزيز فرج : **العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (الاسكندرية ن ١٩٨١) .

١٠ ـ يوليوس فلهوزن : **تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام إلى نهاية الدولة الأموية** ، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ، ١٩٦٨) .

رابعاً : المراجع الأجنبية

(1) - Arnold, T., **Painting in Islam** (Oxford, 1928) .

(2) - B. Byzantion .

(3) - Blake, R., " Note sur L'activite' litteraire de Nicephore Ĭ Patriarche de Constantinople " , B, 14 (1939), pp. 1 - 15.

(4) - Bury, J. B., **A History of the later Roman Empire** A. D. to 800 A. D. (London, 1889) .

(5) - **Cambridge Medieval history,** IV: The Byzantine Empire, Part I; Byzantium and its Neighbour, Ed. by J. M. Hussey (Cambridge, 1966, 1967) .

(6) - Creswell, K., " **The Lawfalness of Painting in Early Islam** " A. I. 11 - 12 (1946) .

(7) - Crowfoot, J., " **The Christian churches (at Gerasa)" in : Gerasa city of the Decapolis,** ed. C. Kraeling (New Haven, 1938) .

(8) - Finaly, G., **History of Greece** (Oxford, 1877) .

(9) - Heinz, G., **Die Syrischen Wustwschlosser** (Wiesbaden, 1979) .

(10) - Jenkins, R., Byzantium, **The Imperiae Centuries** AD 610 - 1071 (London, 1966) .

(11) - Mansi, J. D. Mansi, **Sacrorum Conciliorim Nota** et Amplissima Collectio (Florence, 1769 ff.) .

(12) - Musil, A., **Kusejr' Amra** I, Textband (Vienna, 1907) .

(13) - Ostrogorsky, G., **A History ot the Byzantine State**, tr., J. M. Hussey (Oxford, 1968) .

(14) - Ostrogorsly, G., " **Les de'buts de la querelle des Images** ", Melanges Charles Diehl, (Paris, 1930) , pp. 235 - 255 .

(15) - PO **Patrologia Orientalis** .

(16) - Thorossian, H., **Histoire de la litte'rature** arme'nienne. Des Origines jusqu'à nos jours (Paris, 1951).

(17) - Vasiliev, A. A., **History of the Byzantine Empire** (Madison, 1958) .

(18) - Vasiliev, A., A., Justin the First : **An introduction to the Epoch of Justinian the Great** (Cambridge, Mass., 1950).

(19) - Vasiliev, A. A., " **The Iconcolastic Edict of the Caliph Yazid II,** A. D. 721 " , DOP, 9 - 10 (1956), pp. 25 - 47 .

التجارة بين مصر والشام
في العصر الفاطمي

د. محمد زيود

جامعة دمشق

يعد موضوع العلاقات بين مصر والشام قديماً قدم التاريخ ، وربطت بين البلدين أواصر التعاون والقربى ، ودعمتها علاقات حضارية وعززتها علاقات تجارية قديمة[1] .

والعلاقات بين مصر والشام في العصر الفاطمي من الموضوعات المهمة والجديرة بالبحث . فعلى الرغم من الأبحاث العديدة التي تناولت الحديث عن البلدين خلال الحقبة الفاطمية[2] إلا أنها لاتزال بحاجة إلى المزيد من الدراسات والأبحاث التي تلقي الضوء على جوانبها المختلفة، لاسيما العلاقات التجارية التي توضح عمق العلاقات الحضارية بين البلدين وتكشف النقاب عن مزاياها وطبيعتها[3] .

من المعلوم أن الشام ومصر قد أصبحتا منذ بداية الفتوحات العربية الاسلامية ولايتين تتبعان مركزاً سياساً واحداً، حتى قيام الدولة الطولونية في أواسط القرن الثالث الهجري ، حيث اندمجتا كلياً وشكلتا دولة واحدة . ولاشك أن هذه التطورات السياسية وهذا الوضع الجديد للبلدين قد ساعد على توثيق أواصر الروابط القديمة بين هذين الاقليمين ودعّمها على جميع الصعد الحضارية[4].

لقد أدرك الطولونيون ومن بعدهم الاخشيديون أن موقع مصر والشام ومواردها الاقتصادية والبشرية تشكلان قوة كبيرة يهابها الأعداء والأصدقاء على السواء، فيما إذا أحسن استخدامها، لهذا لم يترددوا في الافادة من امكانات البلدين وتوظيفها لحماية استقلالهما السياسي وازدهارهما في مختلف مظاهر الحياة الحضارية والاجتماعية منها والثقافية والاقتصادية بخاصة، وقاد ذلك كله لوضع عسكري مهيب وقوة فعالة[5] ، لكن سرعان ما كانت هذه القوة تنهار أثر

سياسة الصراعات الاقليمية والأطماع الشخصية وضعف الرؤى للحكام في البلدين ، ودليلنا على ذلك ماسجله المؤرخون في العصرين الطولوني والأخشيدي من تقدم حضاري مرموق ونشاط تجاري ملحوظ[٦] .

ولاشك أن العلاقات بأشكالها المختلفة غدت في العصر الفاطمي أكثر عمقاً وشمولاً ، بحيث قامت خلافة فاطمية مستقلة كل الاستقلال عن الخلافة العباسية في بغداد ، وكان لها أهداف وتطلعات عقائدية وفكرية دفعتها إلى التوجه إلى الشرق وبخاصة إلى مصر والشام، منذ أن بزغ فجرها في المغرب العربي في عام ٢٩٦هـ / ٩٠٨م[٧] . ودفع الفاطميين نحو الشرق ، الضرورات الاستراتيجية والفكرية والايدلوجية واقامة خلافة فاطمية تقود العالم العربي الاسلامي سياسياً وحضارياً ، وبالتالي السيطرة على امكانات البلدين الكبيرة والوصول إلى الديار المقدسة في فلسطين والحجاز ، والحصول على شرف حمايتها وحراسة وتأمين الطرق المؤدية إليها، وكسب الرأي العام العربي الاسلامي الذي زاد استياؤه وتذمره من التعديات على قوافل الحجاج ونهبها واختلال أمن الطرقات[٨] .

وما أن تم لجوهر الاستيلاء على مصر، حتى دعت الضرورات السياسية والعسكرية والاقتصادية التوجه إلى بلاد الشام ، لذلك قرر الشروع فوراً بارسال جيش لضمّها[٩] ، ولتأمين نشر الدعوة الفاطمية فضلاً عن الرغبة في تأمين حدود الدولة الفاطمية في مصر، التي باتت مهددة بأخطار كبيرة، على رأسها الدولة البيزنطية والقرامطة والخلافة العباسية وغيرهم من الطامعين. لكل ذلك جهز جوهر جيشا في أواخر عام ٣٥٩هـ / ٩٧٠م ، ولم يلق هذا الجيش مقاومة كبيرة من القوات الأخشيدية، وتمكن بفترة وجيزة من أن يسيطر على الرملة وطبرية وحوران والبثنية ، ودخل القائد الفاطمي دمشق وأقام الخطبة للخليفة المعز فيها

وقطعت الخطبة للخليفة العباسي المطيع في بغداد، من العام السابق الذكر نفسه[١٠] .

ولقد سيطر على الحكم الفاطمي لبلاد الشام ولاسيما في عهد القائد الفاطمي الأول[١١] « جعفر بن فلاح الكتامي » ، وربما كان ذلك نتيجةً للصعوبات التي واجهها الحكم الفاطمي فيها، أو نتيجة لسوء التصرف الذي حصل من القائد جعفر وجنوده وردود الفعل على اعتماده وعساكره من المغاربة، أسلوب البطش والقتل والتدمير والحرق والنهب للمدن والقرى ، واهانة الأهالي في دمشق وغيرها من المدن الشامية .

كما أنه مما لاشك فيه، أن السر في الصراع العنيف بين القرامطة والفاطميين في بلاد الشام، يعود إلى أن القرامطة قد خسروا نفوذهم الاقتصادي والتجاري في بلاد الشام، أثر امتداد النفوذ الفاطمي عليها ورفض هؤلاء دفع الأتاوة والفروض المقررة للقرامطة على المدن الشامية بموجب الاتفاقات منذ أيام الأخشيديين[١٢] .

ومع أن الفاطميين اعتمدوا أساليب متعددة لتوطيد نفوذهم السياسي والاقتصادي في مصر والشام، إلا أن الدبلوماسية والتسامح الديني[١٣] والتقرب إلى الشعب كانت من أبرز هذه الأساليب، وأعطوا سائر الفئات والطوائف ولاسيما أهل الذمة كامل التصرف والعمل ، وظهر هذا التوجه أكثر ماظهر في مصر .

ومن المعروف أن التسامح الفاطمي لم يقتصر على علاقات الفاطميين برعاياهم الذميين وغيرهم، وانما امتدّ ليشمل التجار الوافدين من العالم الغربي إلى موانىء مصر والشام ، ودليلنا على ذلك مالقيه تجار إيطالية، ولاسيما تجار (أمالفي والبندقية وجنوه) من تسهيلات، وما تمتعوا به من امتيازات تجارية

مكنتهم من ممارسة نشاطات تجارية مثمرة في كل من مصر والشام ، وجاءت بالفائدة المشتركة للجميع . ومما لاشك فيه أن هذه العلاقات التجارية كانت لمصلحة الطرفين الايطالي والفاطمي، التي استمرت حتى الحروب الصليبية . فاذا كان التجار الايطاليون قد افادوا من نقل السلع والمتاجر إلى الغرب الاوربي ، إلا أن الفاطميين افادوا بدورهم من الحصول على بعض السلع الضرورية اللازمة لمجهوداتها العسكرية من جهة ، وزيادات واردات الدولة من جهة أخرى، لقاء ماكان يؤخذ من التجار، من رسوم وضرائب وسلع مهمة على رأسها الخشب والحديد والرقيق وكانت هذه السلع مجال منافسة كبيرة بينهم وبين بيزنطة والغرب، الممثل بالبابوية والمدن التجارية الايطالية وغيرهم(١٤) .

وعلى الرغم من كل الظروف التي كانت تحيط بالدولة الفاطمية ، فلقد شهدت الحقبة الفاطمية الاولى منها تقدما اقتصاديا وتجاريا كبيرا وملحوظا، شمل جميع شعوب حوض البحر المتوسط العربية منها والاجنبية . وتؤكد الوثائق والمصادر والمعلومات التاريخية هذا النشاط الاقتصادي في العصر الفاطمي الأول وحتى الغزو الفرنجي للشام ومصر(١٥) .

عمل الفاطميون على التمسك بالشام وبذلوا جهودا مضنية للاحتفاظ بها ، وتعرضوا فيها لدسائس واعداء كثر ، وغدت الشام طريقاً لجبهتين حربيتين : العباسيون وقواهم في بغداد ، والبيزنطيون في القسطنطينة . وهؤلاء لم يغيروا استراتيجيتهم طوال العصر الفاطمي، حيث استمرت بيزنطة في شن حروبها على جميع الاصعدة السياسية منها والاقتصادية والعسكرية ضد الفاطميين، وذلك كي لاتسمح لهم بتشكيل قوة سياسية في الشام ومصر، تهدد مصالحها الاقتصادية ولاسيما التجارية منها، في بلاد الشام وحوض البحر المتوسط . وقد وصلت

الاطماع البيزنطية إلى ذروتها قبيل التوسع الفاطمي في جنوب الشام ، وتجلى ذلك بالغزو البيزنطي لشمال الشام وتطويق حاضرته السياسية والتجارية «حلب»، وفرض بيزنطة وصايتها عليها وعلى المناطق التابعة لها وذلك بفرض معاهدة أبرمتها مع بقايا الحمدانيين فيها، في صفر سنة ٣٥٩ هـ ديسمبر / يناير ٩٦٩/٩٧٠م ، وجعلت هذه الاتفاقية من حلب والمناطق التابعة لها، منطقة نفوذ بيزنطي ومجالا للتوسع الاقتصادي لهم وفتح تجارتهم مع الشرق وسلعه عبر اسواق حلب وقيسارياتها التجارية النشطة .

لهذا أخذت بينزنطة تساند القوى المحلية من حمدانية وغيرها ، ضد الفاطميين وتعمل جاهدة على منع شمال بلاد الشام من الهيمنة الفاطمية . ومما يؤكد هذا الأهتمام البيزنطي بحلب، ما ورد صراحة في نص الاتفاقية الانفة الذكر، مفاده أن يتعهد والي حلب « قرعويه » ومن يأتي بعده بحماية القوافل التجارية القادمة من بيزنطة ومن ثم أن يقوم باستلامها وحراستها[١٦] . ولاشك أن هذا التدخل البيزنطي في شمال بلاد الشام، يفسر لنا العلاقات المتوترة بين بيزنطة والفاطميين .

غيرأن القوة العسكرية والسياسية للفاطميين كانت تفرض وجودها، وتجبر بعض اباطرة بيزنطة إلى اعتماد سياسة التفاهم[١٧] . ولهذا كثيرا ما كانت بيزنطة تعقد المعاهدات والاتفاقات مع الفاطميين ، وتعيد العلاقات التجارية معهم وتتم عمليات التبادل التجاري بينهما . لكن سرعان ماكان اباطرة بيزنطة ينقضون هذه الاتفاقات عند اول فرصة تسمح لهم الظروف بذلك انسجاما، مع السياسة البيزنطية المعادية للفاطميين وغيرهم من القوى الفاعلة الاسلامية في الشام ومصر.

وتؤكد المصادر اخبار الجهود الفاطمية فيما يخص التجارة وخدمتها، وذلك بعقد اتفاقات التفاهم مع بيزنطة وغيرها ، كاتفاقية عام ٤٢٩ هـ ١٠٣٨م

و٤٣٩هـ/١٠٥٤م وغيرها. وكثيرا ما تضمنت هذه الاتفاقات بنودا خاصة تتعلق بالتجارة ، وذلك ادراكا من الفاطميين لاهمية التجارة وضرورة المبادلات التجارية ، وذلك على الرغم من موقف بيزنطة الحذر والمتذبذب في هذا الاتجاه . ولم تستجب بيزنطة للرغبات الفاطمية الا بعد أن فرض هؤلاء قوتهم العسكرية في مصر أولا ومن ثم في بلاد الشام ، وأحكموا سيطرتهم عليها على يد بعض القادة كالدزيري وغيره ، وذلك أوائل حكم المستنصر الفاطمي (٤٢٧ — ٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م). لهذا اضطر ميخائيل الرابع الفلاغوني (١٠٤١م) للجنوح إلى السلام ووقع الهدنة مع الخليفة المستنصر الفاطمي في عام ٤٢٩هـ/١٠٣٨م آنفة الذكر . واستمرت العلاقات الفاطمية البيزنطية حتى نهاية الحكم الفاطمي يشوبها هذا الشعور المشحون بالحذر[١٩] .

وعلى الرغم مما تعرضت له السياسة الفاطمية في بلاد الشام من معارضة عنيفة، فقد استمر الفاطميون متمسكين بحكم الشام والعمل على ابقائه تحت سيطرتهم بهدف تأمين مصالحهم وحماية حدود دولتهم . وتحملوا الكثير من المتاعب وصرفوا الأموال الطائلة ، واشتروا الاتباع من أجل أحكام السيطرة على الشام، ولاسيما محور فلسطين دمشق (محور عسقلان الرملة طبرية دمشق)، الذي يؤمن لهم الطرق التجارية بين البلدين ويحميها من جهة ويؤمن طريق التجارة بخاصة مع الغرب الأوروبي والمدن الايطالية التجارية من جهة أخرى . كما يؤمن لهم الطرق التجارية في شرق البحر المتوسط وانعاش الطريق تحت نفوذهم من الشام حتى أقصى افريقية[١٩] ، وعلى هذا الاساس أدرك الفاطميون أهمية بقاء الشام بأيديهم ، بأسواقه وموانئه المليئة دائماً بالبضائع والسلع الشرقية الاتية براً وبحراً بوساطة منافذ الخليج العربي وغيره من الموانىء الشامية ومنها في

اتجاه أوروبة . وهذا مايفسر لنا موقف الفاطمين من ثورة الملاّح «علامة» في مدينة صور، ودعم البيزنطيين له عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م، والتشدد الفاطمي في القضاء على هذه الثورة والمؤيدين لها من زعماء بني طي في فلسطين، والقسوة في عقاب هذا الثائر وغيره[٢٠] . ولاشك في أن فظاعة هذا الانتقام تعطي الدليل على خطر صور وغيرها من المدن الساحلية الشامية ومكانتها في دولة الفاطمين . ولقد استمر الوضع في بلاد الشام في الميدان السياسي والعسكري مضطربا ، وظهرت آثار الحروب والصراعات العسكرية في القرى والمدن الشامية، حيث تعرضت للنهب والتدمير خلال تلك المنازعات، وشكّل ذلك عاملا معيقا ووقف حائلا أمام التطور الاقتصادي بشكل عام والنهوض التجاري بشكل خاص، وخسرت البلاد الكثير من مواردها وامكاناتها ، وصرفت الأموال الباهظة لاخماد الثورات والفتن والحروب[٢١] .

العوامل التي اسهمت في النشاط التجاري :

كان على الفاطميين بعد أن اتخذوا القاهرة حاضرة لخلافتهم الفتية وبعد تحقيق الكسب السياسي الكبير، أن يعملوا على حماية هذا النجاح ويدعموه بتقدم وتفوق اقتصادي، يتناسب مع المشروع الفاطمي الكبير وأهدافهم وحجم المسؤولية الخطيرة، بعد السيطرة التي فرضوها على أهم ولايتين واقليمين في الدولة العربية الاسلامية . ومن خلال استعراض الاحوال الاقتصادية لمصر والشام في العصر الفاطمي الأول، يتضح أن هناك عوامل كثيرة كانت الى حد كبير وراء الازدهار التجاري ويمكن أن يأتي في مقدمتها :

أولا : الموقع الجغرافي والاستراتيجي الهام للبلدين ، هذا الموقع الذي أهلّها لان تكون طوال هذه الحقبة، تلعب دورا مهما ورئيساً في التجارة الدولية، ساعدها على زيادة فعاليتها ونشاطها التجاري. وحظيت معظم المدن الساحلية

:بهذا النشاط أمثال : طرابلس وبيروت وصيدا وصور الاسكندرية ودمياط وغيرها ، هذا فضلا عن أهمية كل من البحرين المتوسط والأحمر وأهميتهما في التجارة الدولية وتحكمهما بمنافذهـا طوال العصور الوسطى . كما واستمرت المدن الداخلية محافظة على نشاطها التجاري، نتيجة لهذا الموقع الهام، فامتلأت بالسلع الشرقية الاتية من الهند والصي،ن وشكلت اسواقها مراكز تخزين هامة ومناطق عبور لهذه السلع المتجهة منها وعبرموانيء الشام ومصر إلى أوروبة . ويكفي أن نتذكر كل من حلب ودمشق والفسطاط وتينس والقاهرة وغيرها من المدن الشامية والمصرية، لنؤكد مدى النشاط التجاري الذي وصلته خلال هذه الحقبة الفاطمية(٤٢) .

ثانيا : التوجهات الاسلامية والسياسية العامة للحكام الفاطميين المستندة على التعاليم الاسلامية ومبادئه وقيمه ، هذه المبادىء والدعائم القائمة على العدل والكسب الحلال والعمل الجاد ، ومنع الاستغلال والجشع المادي . كما كانت السياسة العامة للحكام والخلفاء الفاطميين، تقوم على العناية بالتجارة والحثّ على عوامل النهوض بها ومتابعة رعايتها، من خلال الاهتمام بطرق القوافل التجارية وحفر الأبار لتأمين مياه الشرب ، وتشييد الرباطات والاسواق والفنادق والوكالات، ورفع المنارات في الموانىء والثغور الحربية والتجارية وبناء الأساطيل لحماية الشواطيء من غارات الاعداء والمتربصين بالارض وبالاموال والممتلكات، واقامة الجسور والقناطر على الانهار وتعمير الطرق وصيانتها وتقسيمها إلى مراحل ووضع الاشارات الخاصة عليها، للدلالة وتخصيص النفقات الباهظة لحراسة الطرق وخفارتها إلى غير ذلك من اجراءات كثيرة قامت بها السلطات الفاطمية بهدف خدمة التجارة والعمل التجاري. واشار إلى كل ذلك الرحالة

والجغرافيون والمؤرخون والعلماء المهتمون بالحضارة العربية الاسلامية[٢٣] .

ثالثا : الموارد الاقتصادية، حيث انبتت أرض مصر والشام موارد زراعية وصناعية وانفردتا بخيرات ومواد أولية وسلع صناعية، كان لها من الأهمية بحيث لايمكن الاستغناء عنها واستمرار الحضارة البشرية من دونها ، ولاسيما أنهما انفردتا بمحاصيل متميزة كاالشب ، والنطرون والبلسان وماء الورد والسكر والورق والبردى والاترج والنارنج وغيرها من مواد وسلع لاتتوفر الا في مناطقهما . وقد ساعدت هذه الموارد الزراعية والصناعية ـ فضلا عن المواد الخام الطبيعية التي كانت دفينة في أرض البلدين ، والتي أفاضت بذكرها المصادر ـ على قيام صناعات زراعية وتحويلية متنوعة ومتقدمة، وساهمت في تقديم بعض السلع والموارد التي صدرت للغرب والشرق ، بحيث كان من العسير الاستغناء عنها، نظرا لأهميتها، ونخص بالذكر من هذه الصناعات التي لاقت رواجاً وتقدماً في العصر الفاطمي في كل من مصر والشام : الصناعات النسيجية المختلفة الحريرية والكتانية والقطنية ، ثم صناعة السكر والعسل والحلوى والصابون الزيوت ، وماء الورد ، ومن ثم صناعة الزجاج والخزف وصناعة الورق والصناعات البحرية الهامة كالسفن والمراكب الحربية والتجارية[٢٤] ، وغير ذلك من صناعات كثيرة هامة ومتطورة . ولقد كان للحياة الاجتماعية المترفة والتي رافقت التطور العام في العصر الفاطمي الأثر الكبير على التقدم الصناعي من حيث الكم والكيف ، ومن ثم استخدموا اساليب جديدة في المجال الصناعي والتجاري، لتلبية الحاجة الاجتماعية الراقية والمترفة وبخاصة في البلاط الفاطمي والفئات الحاكمة والغنية .

سياسة الفاطميين الاقتصادية :

اعتمد الفاطميون سياسة اقتصادية ساعدت على النهوض الاقتصادي والتجاري منذ قيام دولتهم وقد قامت هذه السياسة على الأسس التالية :

آ ـ محاولة نشر الأمن ومحاربة الفوضى والخارجين على النظام[٢٥] والمرتشين وانهاء الرشوة واسقاط الضرائب الجائرة ، وعدم نشر المعلومات عن ارتفاع النيل وانخفاضه، وحصر ذلك بسلطة القصر، كي لا يستغلها التجار والمحتكرون. واسناد أمر تنفيذ هذه الاوامر إلى المحتسب الذي اختير من الثقات الخلّص للفاطميين وممن يدين بالولاء الكامل لهم ، وأعطي صلاحيات واسعة تتناسب مع مهماته وأعماله .

ب ـ التسامح الديني الكبير مع سائر الطوائف والعناصر التي خضعت للنفوذ الفاطمي في معظم مراحل تاريخ الدولة، وفتح الباب أمام الجميع للنهوض بالوضع الاقتصادي وبالعمل التجاري[٢٦] دون قيد ، وذلك اذا استثنينا فترة حكم «الخليفة الحاكم » الفاطمي المضطربة ، وتعرّض بعض اسواق الفسطاط للنهب والاعتداء .

جـ ـ العناية بالزراعة وبوسائل نهوضها وتأمين الزراع ومعاملة الفلاحين باللين والرحمة، وعدم تركهم تحت رحمة المتقبلين أو المقتطعين لتقدير فرض الضرائب كما يشاؤون ، بل تدخل الفاطميون فحددوا فئات هذه الضرائب وكانوا يراجعونها من حين إلى آخر[٢٧] على الرغم من قيام بعض الحكام بنقض هذا التوجه العام .

د ـ تحديد الدولة للاسعار والتدخل اثناء الازمات الاقتصادية وارتفاع الاسعار، وذلك لمحاربة الاحتكار . وكان المحتسب يشرف على الغلال وينظم عملية بيعها بأسعار منخفضة مناسبة ، وتحديد سعر عام للسلع، حماية للمصالح

العامة[٢٨] . وكانت الدولة تتدخل للخروج من الازمات الاقتصادية، التي كثيرا ما كانت تتعرض لها البلاد ، وتقف بحزم ولا تتراخى[٢٩] وتعتبر التجار وبائعي الحبوب والسماسرة مسؤولين عن نقص الاقوات . وكان المحتسب يقوم بردع المخالفين والمحتكرين ، ولم يتردد باستخدام الاساليب الكفيلة بتسوية الأمور والقضاء على الاختناقات ، ولاسيما في العصر الفاطمي الأول عندما كان الخلفاء مصدر السلطة[٣٠] .

هـ ـ المخازن السلطانية : اعتمد الفاطميون سياسة شراء بعض السلع وتخزينها « بالمخازن السلطانية ». ومن أهمها القمح ، وطرحها بالاسواق اثناء الشدائد وبيعها بسعر معقول، للمساهمة في عمليات الافراج في الاسواق ومنع الاختناقات والاحتكارات والازمات، التي كثيرا ماكانت تظهر على اثر انخفاض مياه النيل أو زيادتها عن الحد الأعلى وحدوث الاستبحار وفي كلتا الحالتين تهدد الزراعة في الدلتا[٣١] .

و ـ المعاهدات والتسهيلات التجارية : من المعروف ان الفاطميين لم يترددوا في الانفتاح على العالم الخارجي وفي عقد الاتفاقات والمعاهدات واعطاء التسهيلات وتقديم المزايا للتجار الاجانب، وذلك بغية الحصول على السلع المهمة والضرورية، كالخشب والحديد والرقيق اللازمة للصناعات الحربية والتجهيزات البحرية والعسكرية والتجارية والمواد الاخرى التي تساهم في المجهود العسكري وغيره، والتي لايمكن الاستغناء عنها[٣٢] . وكل ذلك أدى إلى زيادة التبادل التجاري وكثرة ورود التجار والسفن من الغرب الاوروبي وغيره بكثرة إلى مصر والشام ، وظهرت مؤسساتهم التجارية في الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس ، وغيرها من المدن والمرافىء المصرية والشامية ومراكزها التجارية .

ز ـ ثروة الفاطميين من الأموال والذهب « المتجر الفاطمي » :

جلب الفاطميون إلى مصر كميات هائلة من ذهب المغرب وافريقية وجاءتهم بأساليب مختلفة ، وقد استغلوا هذه الثروة الهائلة بالتجارة وبخاصة الشرقية وشجعوها . ثم تطور دور الحكومة الفاطمية في العمل التجاري، عندما اقدموا على احتكار العديد من السلع الضرورية والكمالية. وقصد الفاطميون من ذلك تحقيق هدفين : **الاول** زيادة استثمار اموال الدولة والوزراء وكبار رجال البلاط والاغنياء والحصول على ارباح من وراء ذلك، بما لايسبب أية اضرار حيث كانت الدولة تبيع السلع بالسعر العادي والمناسب ، أما الهدف **الثاني** فهو القضاء على الاحتكار التجاري بالأسواق، وعندما تشتد وطأة الاحتكارات كانت الحكومة تخرج من مخازنها الغلال وتوزعها على الاسواق وتقضي بذلك على الأزمة[٣٣] .

ولقد احتكرت الدولة صناعة المنسوجات وبخاصة الطراز ، والمناجم والاخشاب ومحصولي الشب والنطرون . وكانت الدولة تبيعها لتجار الروم في الاسكندرية، وكانت تدر ارباحا كبيرة لبيت المال . كما وكانوا يقايضونها مع تجار المدن الايطالية ، بالخشب الضروري ، والهام للصناعات المصرية . وكان المتجر يعرض محصول الشب فيشتريها الصناع والصيّاغ والحرفيون اللبوديون ، وأما النطرون فيباع لصناع النحاس ومبيضي الأواني ... وقد استمر نظام المتجر الفاطمي يؤدي دروه ويحقق الارباح والاستثمارات ، وكانت أهم سلع المتجر ، هي الحبوب والاخشاب ، والحديد ، والصابون والعسل والرصاص ، اضافة إلى الشب والنطرون وغيرها من المواد التي احتكرتها الدولة الفاطمية[٣٤] .

ح : الحج : كان الحج إلى الاماكن المقدسة في فلسطين وغيرها، بما في ذلك الحج الاسلامي والمسيحي، من العوامل المهمة في تنشيط التجارة وزيادة حجمها بين الغرب والشرق . ويورد « بنيامن التطيلي » في رحلته عن قافلة حج تعد أكبر قافلة عن الحجاج قبيل الحروب الصليبية، وهي التي رأسها أربعة اساقفة كبار. وكانت في سنة ٤٥٧ هـ/١٠٦٤م/١٠٦٥م .

ط ـ الاهتمام بالأسواق : واخيرا هناك عوامل كثيرة اعتمدها الفاطميون وأسهمت في النهوض التجاري، منها الاهتمام بالاسواق وعدم السماح بنشر الفوضى فيها وحمايتها حتى اثناء الخطوب والازمات السياسية . ونتيجة لاهتمام الدولة بأمن التجار ومتاجرهم، فقد بلغ من الحد لدرجة أن البزازين « تجار القماش » وتجار الجواهر والصيارفة كانوا لايغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر ، ولم يكن يجرؤ أحد على مد يده إلى شيء منها[٣٥] . كما كان التجار بالسوق أن الخليفة لايظلم أحدا ولايطمع بمال أحد . وكان زعماء الدولة والقادة العسكريون لايتجاسرون على مصادرة أموال التجار نتيجة لقوة نفوذهم في البلاط الفاطمي .

وهناك رواية في غاية الأهمية، يرويها صاحب (سيرة البديعة المقدسة) توضح ما كان التجار يتمتعون به من أمان، وما كان القضاء عليه من عدل واحترام. فقد أورد قاضي ابن النعمان القول : « أنه وصل إلى مصر رجل ببضاعة وهي زبيب وعسل للاكل وعمل الحلوى وانها احرقت فأتى القاضي فجاء بالحاكم فساواهما بالجلوس في المحكمة والتمس التاجر ماله وقيمته ثمن البضاعة الف دينار بعد أن اقسم التجار على صدق قوله فرد الحاكم ثمن البضاعة له »[٣٦] .

ومما ساعد على التجارة أيضاً، قيام الحكومة الفاطمية بتأمين الحوانيت والمخازن والقياسر وغيرها من المؤسسات التجارية وتأجيرها بأسعار مناسبة . كما ساد في العصر الفاطمي نظام تأجير الاربطة التجارية، مثل رباط الوزير وكذلك تأجير الدور ووجد بمدينة الفسطاط مائتا رباط مستأجرة طيلة العصر الفاطمي(٣٧) .

كما اهتمت الدولة في العصر الفاطمي باقامة الوكالات التجارية، مساهمة منها في خدمة التجارة وتشجيعها . ومن أهم الوكالات في مصر في العصر الفاطمي وكالة الحراني في الفسطاط ، ثم الوكالة الأميرية التي شيدها المأمون البطائحي(٣٨) وزير الخليفة الآمر بأحكام الله، سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م، في *القاهرة، للتجار القادمين* من الشام والعراق ، وكذلك وكالة ابن ميسر التي أنشأها سنة ٥٣١هـ / ١١٣٧م، وغيرها الكثير من الوكالات والفنادق والقياسر والخانات مما أشارت إليها المصادر ، وكثرة اشادتها في العصر الفاطمي يؤكد النشاط التجاري الخارجي في البلدين ، وزيادة التبادل الداخلي بين البلدين: الشام ومصر .

العوامل التي أسهمت في ضعف النشاط التجاري :

يمكن أن نوجز هذه العوامل التي أعاقت النشاط التجاري بعاملين اثنين وهما: العوامل السياسية ، والعوامل الطبيعية .

أما فيما يتعلق بالعوامل السياسية، فهي الحروب والصراعات التي اندلعت بين القوى المختلفة على النفوذ والحكم في كل من الشام ومصر ، وعملت على نشر الفوضى وتخريب المحاصيل ونهب الأموال والممتلكات وقطع الطرق وفقدان الأمن، الذي يعد أهم ركن من اركان النشاط التجاري . وفي هذه الحقبة

الفاطمية، تعرضت الشام ومصر لأحداث كثيرة عملت في نشر الفوضى ، فمن ثورات داخلية وأزمات سياسية ، وحركات قرمطية ، وتنافس على السلطة وتهديد بيزنطي واجتياح تركي سلجوقي ، ثم غزو صليبي . ومن ثم التنافس بين الخلافتين الاسلاميتين: العباسية في بغداد ، والفاطمية في القاهرة . كما وتعرضت طرق القوافل التجارية وطرق الحج لهجمات قبائل البدو وقطاع الطرق سواء في البر أو في البحر ، وأفادت مصادر تلك الفترة اشارات كثيرة إلى هذه الجوانب(٣٩) .

ثم جاءت العوامل الطبيعية ، وماترتب عنها من محن وكوارث وزلازل اجتاحت المنطقة في هذه الحقبة ، وكانت من العوامل التي أسهمت أيضاً في الحد من النشاط الاقتصادي(٤٠) في كلا البلدين . وقد أشارت المصادر إلى العديد من هذه الكوارث الطبيعية التي حدَّت من النشاط التجاري في العصر الفاطمي(٤١) .

الغزو الصليبي للشام وأثره على تجارة البلدين :

تأثرت الشام ومصر تجارياً بهذا الغزو ، حيث عمل الصليبيون على قطع طرق المواصلات التجارية البرية والبحرية بين البلدين(٤٢) ، وتحقق لهم ذلك بحرياً باحتلالهم أهم الموانىء الشامية البحرية التجارية في شرق البحر المتوسط .

كان من أهم آثار هذا الغزو، وقوع جميع موانىء الساحل الشرقي للبحر المتوسط تحت السيطرة الأوروبية الصليبية، وذلك حتى ٥٨٣هـ / ١١٨٧. كما نتج عن هذا الغزو، تعاظم الدور الايطالي في التجارة الدولية، وذلك على حساب التجارة العربية الاسلامية . فحتى قيام الحركة الصليبية، كانت التجارة بين

الشرق والغرب تسير وفق اتجاه واحد لصالح التجار العرب المسلمين في الشام ومصر[٤٣] . لكن على أثر هذا الغزو، تم ابعاد التجار الشاميين من النشاط التجاري في عالم المتوسط .

وفي الواقع، لم يكن النشاط التجاري في بلاد الشام مقتصراً على المدن الساحلية فحسب بل شهدت بعض مدنها الداخلية كحلب ودمشق نشاطاً تجارياً ملموساً[٤٤] . لكن هذا النشاط التجاري اجمالاً كان لصالح التجارة الأوروبية والمدن الايطالية، بخاصة حيث نما على حساب التجارة الشامية والمصرية[٤٥] .

أمافيما يتعلق بالاتصال التجاري البري بين الشام ومصر، فقد كانت الضرورات الاقتصادية والعسكرية تفرض على الصليبيين أن يتحكموا بها وبطرقها، بهدف تشديد الخناق على مصر وقطع سبل الاتصال البري مع كل من الشام والحجاز واضعافها اقتصادياً وعسكرياً . لهذا أنصبت الجهود الصليبية، ولاسيما في مملكة بيت المقدس، على السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبي البحر الميت وحتى خليج العقبة، وهي المنطقة المعروفة باسم وادي عربة[٤٦] . وكان هدف هذا المشروع الصليبي، هو تحقيق التحكم الصليبي في الطريق البري بين مصر والشام والحجاز والعراق، وتهديد القوافل التجارية . و لم تمض سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م، إلا وكانت سيطرتهم قد تمت على هذا الوادي، وأقاموا عدة حصون وقلاع أهمها: الشوبك والكرك، واتخذوها مراكز للهيمنة على الطرق ومهاجمة القوافل المتجهة من مصر إلى فلسطين، ومنها لبقية مدن الشام وغيرها . ثم أكمل الصليبيون عملهم باحتلال العقبة، وتمكنوا من الاشراف على شبه جزيرة سيناء ، وتحكموا بكل اتصال بري مابين الشام ومصر بعد ذلك . ثم قادهم طمعهم لاستكمال تنفيذ مخططهم الاستعماري الاقتصادي وتوسيع هذا

المشروع الصليبي، بالتوجه إلى مصر واحتلالها. لهذا حاول بلدوين الأول (ت ٥١٢هـ) (١١١٨م) تنفيذ هذا المشروع بالهجوم على الفرما في سنة ٥١٢هـ ـ ١١١٨م ودفع حياته ثمناً لذلك ... وحاول الصليبيون بعد ذلك احتلال مصر والسيطرة عليها ودخلوا بذلك في سباق مع نور الدين زنكي (ت ٥٧١هـ ـ ١١٧٤م)، صاحب دمشق وخسروا السباق . وهذه الخسارة جعلتهم يشددون قبضتهم على طريق الكرك /الشوبك/ العقبة ، وظهرت أطماع الأحمق ، أرناط، صاحب الكرك الذي حاول النفوذ إلى البحر الأحمر وتجارته وتهديد التجارة المصرية هناك، بعد أن غدا الطريق الرئيسي والوحيد لمصر في هذه الحقبة[٤٧] .

كل ذلك أثر في الحركة التجارية المصرية وتكدست السلع التجارية بأسواق الفسطاط والاسكندرية ، وذلك لتوجه التجارة إلى الموانيء الشامية الصليبية. وأخذت مع الأيام حركة الموانيء المصرية بالضعف ، ولم تجد السلع المصرية أسواقاً لها للتصريف واستمر ذلك بعض الوقت ... ورافق ذلك الاضطرابات الأخيرة التي أخذت تعصف بالدولة الفاطمية وأحدثت فيها الهزات العنيفة. وفُقِدَ الذهب والفضة في مصر. وأشارت المصادر إلى ذلك وندر الذهب في ٥٦٧هـ / ١١٧١م، وهي السنة التي سقطت فيها الخلافة الفاطمية في مصر[٤٨] . لهذا كان على الحكام في القاهرة أن يفتشوا عن مخرج لتخطي هذه الأزمة ، وذلك عن طريق تشجيع التجارة إلى الشرق في البحر الأحمر من جهة ، واعطاء امتيازات تجارية لتجار المدن الايطالية من جهة أخرى، بهدف جذبهم إلى الأسواق المصرية.

وعلى الرغم من الحروب بين الصليبيين والمسلمين، فإن العمليات التجارية لم تنقطع بين الشام ومصر من جهة وبين مدن الشام الداخلية والساحلية الواقعة

تحت النفوذ الصليبي والخارجة عنه . واستمرت التجارة بلا توقف، إلا في أثناء الحروب ، حيث كانت تعود إلى النشاط بعد توقف القتال ، وذلك ادراكاً من القوى المتصارعة بأن المصلحة تقتضي الاستمرار في هذه التجارة[٤٩] . وفي الواقع، كان المستفيد الأول من هذه التجارة ونشاطها تجار المدن الايطالية، الذين كانوا قد حصلوا على امتيازات تجارية منذ بداية الحركة الصليبية[٥٠] . وكان الوازع الديني لتجار المدن الايطالية ضعيفاً أمام الحس التجاري والجشع المادي ، وكان شعار البنادقة في عصر الحروب الصليبية واضحاً ، وهو أنهم بنادقة أولاً ثم مسيحين ثانياً ... وتوضح المصادر أن الحروب الصليبية لم تؤثر كثيراً على الحركة التجارية، ولاسيما في الشام . وقد لفت ابن جبير الانتباه إلى ذلك ، حيث أوضح أن النشاط التجاري بين دمشق وعكا الصليبية ظل قائماً دون توقف في عصر الحروب الصليبية، حيث يقول : « ومن عجيب مايحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج من بلاد الافرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد الشام .. وأهل الحروب مشغولين بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب »[٥١] .

وعلى الرغم من أن ارناط ، صاحب الكرك والشوبك، قام أكثر من مرة باعتراض القوافل التجارية، الاسلامية ونهبها، وهي في طريقها مصر إلى الشام وبالعكس ، غير أن القوافل لم تتوقف بين الطرفين ... كما أشار ابن الأثير إلى هذه العلاقات التجارية في معرض حديثه عن تهريب الغلال إلى انطاكية لبيعها بأسعار مرتفعة بسبب ندرتها هناك ... كما تحدثت مصادر كثيرة عن هذه العلاقات التجارية بين المسلمين والصليبين ، ولفتت الانتباه إليها والاهتمام المتبادل بها والاشتراك في حراستها وتأمين حمايتها، كل في محيطه ومناطق نفوذه وسيطرته[٥٢] .

كما نشطت التجارة وتطورت عن طريق البحر الأحمر، وازدهرت الطرق المؤدية إليه، البرية منها والبحرية، ونشطت مراكزه التجارية وذلك تحقيقاً للأهداف والمصالح الفاطمية . ووصلت التجارة الفاطمية في البحر الأحمر إلى قمة الازدهار، زمن الصليحيين ومن جاء بعدهم من بني زريع في اليمن .

هذه الأهمية التجارية لهذا الطريق التجاري الشرقي البحري يمكن أن تفسر الاهتمام الفاطمي باليمن وشبه الجزيرة العربية، منذ أيام الدعوة الاسماعيلية المبكرة واستمرارها بهذا الاهتمام وقيامهم بارسال الدعاة . وقد نجح هؤلاء باقامة الحكم الصليحي باليمن، والذي استند على النشاط الدعوي الفكري و لم يدعم بأية قوة عسكرية. واستمر النفوذ الفاطمي باليمن بعد ذلك مايزيد عن مائة سنة، بعد عام ٤٥٥هـ / ١٠٤٧م وإلى نهاية الدولة الفاطمية في مصر . وعن طريق الصليحيين، امتدت الدعوى الفاطمية إلى الشرق واسندت بالدعاة إلى الهند والتي كان الحكام الصليحيون كثيراً مايقومون بتعينهم هناك ، كما كانوا عوناً للفاطميين في نشر نفوذهم في مكة والمدينة[٥٣] . وأدت التجارة الشرقية هذه دورها في نشر الدعوى الفاطمية في بلاد الهند وارتبطت معها على يد هؤلاء التجار الكارميه ، حتى أن أهالي الهند لم يكونوا يفرقون بين الدعاة والتجار ، وكان يطلقون على الاسماعيلي منهم اسم « البُهرة » أي تاجر البهار. وقد امدتنا وثائق الجنيزة بمعلومات هامة عن التجارة الكارميه[٥٤] ، في البحر الأحمر وأهم مراكزها التجارية وطرقها وسلعها وعلاقاتها بالوطن الأم مصر وببلاد الشرق الأقصى. واتضح منها أن عدن وعذاب وقوص والفسطاط ، كانت من أهم المراكز البرية والبحرية على هذا الخط التجاري الشرقي الكارمي. ونشطت في هذه الحقبة التجارة الكارمية في البحر الأحمر ، وكانت محل اهتمام الحكومة الفاطمية وتقوم

بحمايتها ، وكانت تجارة الكارم محط انظار الجميع في مصر، حيث كان الشعب ينتظر قدوم سفن الكارم من الشرق بشغف وهي تحمل السلع والبضائع التي كانت مطلباً للجميع ومحط أنظارهم(٥٥) ... والكارمية كما تحدثت عنها وثائق الجنيزة هم فئة من كبار التجار، اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى وفي تجارة التوابل بخاصة وما إليها من سلع. وكان مركز نشاطهم التجاري الأول في المحيط الهندي وقد أصاب هذه الحركة التجارية الكثير من الركود بسبب الغزو الصليبي والمقاطعة الصليبية للتجارة المصرية ، التي قادت كما اشرنا إلى كساد تجاري في الموانيء المصرية ، وزاد تفاقماً في نهاية الدولة الفاطمية. لكن سرعان ما فشل هذا الحصار الصليبي نتيجة لسيطرة وقوة المصالح الاقتصادية والتجارية بخاصة ، وهيمنتها على تجار المدن الايطالية ، إذ وجد هؤلاء أنه ليس من مصلحتهم أن يضحوا بمصالحهم التجارية لمساندة دعوة باطلة، ولاشك أنها خاسرة في النهاية . لهذا اتجه تجار المدن الايطالية صوب مصر والتجارة معها ، وتبين أن هذه المدن التجارية وبخاصة البندقية أنها بندقية أولاً وأخيراً ... وقد شجع هذا التوجه نحو مصر ، أيضاً رغبة الحكام في مصر من فاطميين وغيرهم لكسر طوق هذه العزلة بالانفتاح التجاري وزيادة التسهيلات والمعاملات التجارية والاكثار من تقديم المزايا للتجار وحمايتهم في ارض مصر . وقد انتقد كل من الفاطميين وصلاح الدين ، لسلوكهم هذه السياسة في خضم المعارك العسكرية والعداء بين الشرق والغرب. وظهر ذلك في خطاب موجه من صلاح الدين في مصر إلى الخليفة العباسي المستضيء في سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤من نقله صاحب كتاب الروضتين وبين فيه وجهة نظر صلاح الدين ودفاعه عن موقفه من المدن الايطالية وتجارها ومبرراته التجارية مع الغرب الأوروبي(٥٦) .

وهكذا سرعان ما رفع الحصار الاقتصادي عن مصر، وذلك ادراكاً من تجار المدن الايطالية أن الصفقات مع مصر أكثر ربحاً وأقل كلفة ومجازفة وأوسع سلعاً من موانىء الشام ، لهذا اتجهوا نحو مصر وبدأت ترجح كفة الاتجار مع مصر وموانئها، وأخذت الاساطيل الايطالية وغيرها ترد إلى الاسكندرية بكثرة قبل معركة حطين(٥٧) . ولقد كان هذا التوجه لصالح تجارة مصر أيضاً وظهرت ثمرات ذلك فيما بعد في العصرين الأيوبي والمملوكي .

التجارة الخارجية لمصر والشام :

أما فيما يتعلق بالتبادل التجاري بين الشام ومصر والعالم الخارجي فقط، اتضح أنه كان للشام ومصر علاقات كبيرة مع الدول والأقوام العربية والمناطق القريبة والبعيدة .

وكانت الشام تصدر إلى مصر الأخشاب والحديد لبناء السفن وتطوير الأسطول الفاطمي ، ثم الحرير الذي استعمل في صناعة الملابس الفاخرة، والذي كان يؤخذ من دودة القز التي كانت تنسج على نفسها هذا الخام، وكان يطلق عليه القرمز الأحمر ، وهو من المنسوجات الحريرية الراقية الصنع . كما صدرت الشام إلى مصر الزيت والصابون الجيد ، وكذلك السيوف الدمشقية المشهورة ، والزجاج المطلي بالمينا ، والورق النقي الجيد ، وبعض الحاصلات الغذائية ، كالفستق والحلوى ، وقمر الدين(٥٨) ثم التفاح الشامي الفاخر . وذكر ناصر خسرو أنه كان يؤتى إلى مصر من الشام يومياً بقوافل الثلج إلى القصور الفاطمية، والتي قدرت باربعة عشر حملاً من أحمال الجمال ، كما كانت ترد من دمشق ، الأواني والقدور النحاسية التي أطلق عليها اسم الدمشقية بأسواق مصر، ومن شهرة طلائها تحسبها من الذهب الخالص . كما جاء تجار الشام إلى مصر

بالتحف والنفائس والستور وغيرها ، من مواد أكدت عمق العلاقات الاقتصادية والتجارية بين البلدين[٥٩] .

وكانت مصر بالمقابل تصدر المنتجات المصرية الفاخرة ، من الأقمشة والملابس وبخاصة المنسوجات المذهبة والمطرزة بالطراز الذي تقدمت صناعاته في العصر الفاطمي . ثم الكتان والمنسوجات الكتانية ، وكان هذا يصدر إلى الشام كمواد خام أيضاً لكثرته في مصر وقلته في الشام . ونظراً لشهرة مصر بالصناعات الجلدية ، فكانت تصدر إلى الشام أنواع الأنطاع والأكمار وخرائط الجلد والستور والقسي وغيرها من مواد وسلع جادت بها أرض مصر ، ومدنها الصناعية المشهورة كالفسطاط وتنيس ودبيق وغيرها في العصر الفاطمي لاسيما دهن البلسان والحوت البوري من دمياط والتحف الفاخرة وغيرها من المواد والسلع[٦٠] .

وكانت أهم واردات الشام ومصر من عمان اللؤلؤ العماني ، كما استوردت مصر والشام من الجزيرة العربية الخيول العربية الأصيلة والجمال ، ومن اليمن البر والدروع والقات واللبان والاسلحة وبعض المعادن النفيسة مثل العقيق من صنعاء ومن عدن وعمان العنبر واللبان والبخور[٦١] .

وكانت العلاقات التجارية مع أوروبة أقوى أوبخاصة مع جزر البحر المتوسط كصقلية وقبرص ، وكريت والمدن التجارية الايطالية: كامالفي وجنوه والبندقية وبيزا . وكانت أهم السلع التي تركزت عليها التجارة مع هذه المناطق الخشب والمعادن (الحديد والنحاس والفضة والذهب) ، ثم الرقيق بمختلف ألوانه وأجناسه ، وكان الجبن أكثر ما تطرحه السفن الأوروبية في أسواق مصر. كذلك كانت بيزنطه تصدر إلى أسواق مصر والشام المنسوجات والملابس

الحريرية وبخاصة ملابس النساء(٦٢) .

وأما قبرص وكريت، فكانت أكثر ما تصدران العسل والشمع ... وبالمقابل كانت الشام ومصر تصدران إلى هذه المناطق الزيوت مثل دهن القوطم والبلسان وزيت السلجم والخروع والاهليلج والخيار سنبر والشب والنطرون ، ثم الزجاج بأنواعه وأشكاله والأرز والصوف والفواكه النادرة، أمثال الليمون والرمان والتفاح والأترج ، وغير ذلك من صناعات شامية مصرية كثيرة متنوعة(٦٣) وجيدة ... اضافة إلى السلع الشرقية الواردة إلى أسواق كل من مصر والشام ، التي كانت تشغل أسواقها مخازن كبيرة ومهمة لها ومناطق عبور أيضاً تصل إلى أوروبة، عن طريق البر والبحر بوساطة التجار والوسطاء التجاريين من بيزنطيين وشاميين ويهود وأفارقة وغيرهم من تجار المدن الايطالية(٦٤) .

أما هدف التبادل التجاري المصري والشامي مع الهند والصين وجزر الهند الشرقية وغيرها من بلاد الشرق الأقصى ، فكان الحصول على مواردها الهامة والكثيرة وفي مقدمتها: الحرير والكافور والقرنفل وخشب العود والصندل وجوز الهند والحديد والمسك والكاغد والهيل والزنجبيل وجوز الطيب والدراصيني والفخار والخزف الصيني والسيوف المطعمة والجواهر النادرة والسروج المذهبة والياقوت والمرجان من الهند والعقيق والماس من جزيرة سيلان فضلاً عن التوابل والعطور والأفاويه وكان بعضها يستهلك من الداخل وبعضها يصدر إلى أوروبة(٦٥) وكان الفلفل يرد بكميات هائلة إلى مصر ، وكان الكافور يصل من ساحل زنجبار والصبر من جزر الهند ومن جاوه وخشب الساج المستخدم بصفة أساسية في صناعة السفن من شبه جزيرة الملايو، واللوز والجوز من بلاد الهند، ثم البخور والجواهر والأحجار الكريمة فضلاً عن العقاقير الطبية والأدوية مثل

الأطريفل والهليليج والبلاذر وغيرها من مواد كثيرة[٦٦] .

بالمقابل، كانت الشام ومصر تصدران إلى الشرق السكر والقطن والأقمشة والزجاج والورد المستخرج من المزة « بدمشق » والذي كان يسمى هناك الزهر، والعسل ، ثم البلسان ودهن الخروع والكتان والزمرد والعاج[٦٧] .

أما من بلاد فارس، فكان يؤتى بالفضة من مدينة كرمان وكابل وفرغانة ومن بخارى أيضاً ، كما صدرت هذه المدن النحاس الأصفر أيضاً ، وصدرت بلاد فارس كذلك ماء الورد ولاسيما إلى مصر[٦٨] وكان يضع فيها من زهور الورد والقيسوم والزعفران . وكانت الشام ومصر تصدران إلى بلاد فارس منتوجاتها وأهمها المنسوجات الجيدة بجميع أنواعها الحريرية والقطنية والكتانية[٦٩] .

الخلاصـــة :

- أكدت المصادر عمق العلاقات بين الشام ومصر وأوضحت مدى الروابط القوية بينهما وتشابك هذه الروابط السياسية والاقتصادية ، ومدى أهمية كل من البحرين المتوسط والأحمر بالنسبة لتجارة البلدين ، عبر العصور وكذلك على التجارة العالمية . لهذا كانا مصدر نزاع وصراع القوى للسيطرة عليهما، وعلى منافذهما الهامة[٧٠] . كما أوضحت المصادر أن الخطر الداهم بالنسبة لمصر كان يأتيها دائماً عبر الشام، لهذا اهتمت الحكومات المصرية بأمر الشام واعتبرت أمنه من أمنها .

- أدرك الصليبيون وغيرهم من الغزاة أهمية العلاقات التجارية بين الشام ومصر ومدى تأثيرها على امكاناتها السياسية والاقتصادية، لذلك عملوا على قطع وفصم عرى هذه الصلات التجارية لاضعاف البلدين ، واستخدموا ذلك ورقة ضغط على الفاطميين وغيرهم لاسقاط دولهم في الشام ومصر[٧١] .

- نظراً لأهمية كل من الشام ومصر وتحكمهما بمعظم النهايات للطرق التجارية البرية منها والبحرية، والتي كانت تتحكم بالتجارة العالمية وعملياتها طوال العصور الوسطى الاسلامية وقبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، لهذا فقد اكدت المصادر على أنه من يمتلك هذين البلدين يمكنه الامساك بعجلة الاقتصاد العالمي ، وبالتالي التحكم بالتجارة الدولية .

الهوامش

١ - عن هذه العلاقات انظر :

- احمد فخري : **الاهرامات المصرية** : ص١١١ / ١١٣ / ١٢٦ (القاهرة ١٩٦٣م) .

- سليم حسن : **مصر القديمة** : ج٦ ص٣٧ (القاهرة ١٩٤٨م) .

- رشيد الناضوري : **أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان** ص٦ ومابعدها (مجلة كلية الآداب - الاسكندرية ١٩٦٨) .

- لوكاس : **المواد والصناعات عند قدماء المصريين** ص٧٠١ / ٧٥٥ (ترجمة زكي اسكندر ، ومحمد زكريا غنيم « القاهرة ») .

- محمود عبد الحميد أحمد : **سلسلة العلاقات السورية المصرية عبر العصور** ص ١١ / ٢٦ (دمشق ١٩٨٥م) .

- عبد القادر عبد المنعم : **علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهاية عصر الدولة الحديثة** ص ٣٤ - ٣٥ (الاسكندرية ١٩٦١) .

٢ - انظر :

- حسن ابراهيم حسن : **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر والشام وبلاد العرب** ص ١٠٠ ومابعدها (القاهرة ١٩٥٨م) .

- عبد المنعم ماجد : **ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها** ص١٠٩ ومابعدها (القاهرة ١٩٩٤م) .

- محمد جمال الدين سرور : **تاريخ الدولة الفاطمية** ص ٢٦٩ / ٢٧٠

ومابعدها (القاهرة ١٩٩٥م) .

ـ أيمن فؤاد سيد : **الدولـة الفاطمية في مصـر** ص ١٢٥ / ١٢٩ / ١٤٣ / ٢٠٧ ومابعدها (القاهرة ١٩٩٢م) .

ـ حسن أحمد محمـود ، وسيد اسمـاعيل كاشـف : **حضـارة مصـر، العصـر الطولوني** ص١١ ومابعدها (القاهرة ١٩٦٠م) .

٣ ـ انظر المصادر والمراجع السابقة في (١ ـ ٢) .

٤ ـ عـادل رضـا : **التـاريخ لاتحركـه الصدفـة** : ص.ص ٤٦٦ / ٤٦٧ / ٤٩٦ (القاهرة ١٩٩٣م) .

ـ محمد عبد الهادي شعيرة : شا مصر (المغرب) في عصور الاسـلام ص١٩ ومابعدها الاسكندرية مكتبة سعيد رافق ١٩٧١م .

ـ سيده كاشـف وحسـن محمـود : **حضـارة مصـر في عصـر الطولونيـين والاخشيدين** ص ١١ / ٤٩ / ٥٠ / ٢٧١ (القاهرة ١٩٦٠م) .

ـ سيده كاشف : **مصر في عصـر الأخشـيدين** ص ٧٥ ـ ٣٧٣ (القـاهرة ١٩٧٠م) .

وانظر : البلوي : **سـيرة أحمـد بـن طولـون** ص ٤٢ / ٤٨ ـ ١٠٩ / ١١٠ ومابعدها تحقيق محمد كرد علي ـ دمشق ١٩٣٩م .

وابن سعيد : **المغرب في حلي المغـرب القسـم الخـاص** بمصـر ج١ تحقيـق : زكي محمد حسن ورفاقه ، (القاهرة ١٩٥٣م ص ٧٣ / ١٦٧ ـ إلى ٢١٠) .

ـ محمـد زيـود : **العلاقـات بـين مصـر والشـام في العهديـن الطولونـي والاخشيدي** ص ٥٦ / ٥٩ / ٦٠ / ٢٨٦ (دمشق ١٩٨٩) .

٦ ـ سيده كاشف : **مصر في العصر الأخشيدي** ص ٢٨٩ / ٢٩٣ / ٣٠٢ / ٣٠٤ / ٣١٠ / ٣١٤ ... الخ .

ـ حسن أحمد محمود وسيده الكاشف : **المرجع السابق** ص ٨٩ / ١٢٣ / ٢٢٨ / ٢٣٥ / ٢٤١ .. الخ .

ـ أرشيبالد : **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط** (٥٠٠ ـ ١١٠٠م) ص ٢٥٦ / ٢٥٨ ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة محمد شفيق غربال القاهرة ١٩٦٠ .

ـ محمد زيود : **المرجع السابق** ص ٥٥ / ٣٥٥ ـ **والنشاط التجاري والصناعي لبلاد الشام في القرنين الثالث والرابع للهجرة** ص ٢١٢ / ٢٢٤ مقال مؤتمر بلاد الشام الخامس، عمان ١٩٩٠م .

٧ ـ **النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة** ص ٣٩ / ٤٠ تحقيق حسين نصار، القاهرة ١٩٧٠ (وفيه اشارة واضحة للمعز وتخطيطه لحكم الشرق كله) .

ـ المقريزي : **اتعاظ الحنفا** ج١ ص ٩٩ / ٩٨، تحقيق الشيال، القاهرة ١٩٦٧م .

٨ ـ انظر :

ـ **كتاب الأمان لأهالي مصر من القائد جوهر في اتعاظ الحنفا** ج١ ص١٠٣ / ١٠٤ / ١٠٥ ومابعدها .

٩ ـ وعن التوجهات الفاطمية إلى بلاد الشام وعواملها يمكن العودة إلى :

ـ ابن القلانسي : **ذيل تاريخ دمشق** ص١ ومابعدها (بيروت ١٩٠٨م) .

ـ المقريزي : اتعاظ، ج١، ص ٩٩ / ١٠٢ / ١٠٧ / ١١٠ / ١٢٠ / ١٢٣ / ١٢٧ ، عبد المنعم ماجد : **ظهور** ص ٦٢ / ٦٣ ـ وابن الأثير : الكامل ج٨ ، ص ٩١ / ٥٩٢ واحداث سنوات (٣٥٩ / ٣٦٣هـ) ، وابن خلدون : العبر ج١ ص ٤٨ / ٩٠ ـ **النجوم الزاهرة** ج٤ ص ١١٠ ـ وايمن فؤاد سيد الدولة ص٨٥ / ٨٧ ـ خاشع العاضدي : **الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي** ص ٢٢ / ٢٩ بغداد ١٩٧٥م ـ درويش النخيلي : **فتح الفاطميين للشام ومصر في مرحلته الأولى** ص٢٢ / ٣٠ (بغداد ١٩٧٦م) .

ـ انظر المصادر والمراجع السابقة .

١١ ـ المقريزي : اتعاظ ج١، ص ١٢٢/١٢٣ / ١٢٤ / ١٢٥ / ومابعدها.

ـ ابن القلانسي : **ذيل** : ص١ / ١ / ٤ ـ ابن الأثير : **الكامل** : ج٨، ص٩١ أحداث سنة ٣٥٩هـ .

ـ سرور : **المرجع السابق** ، ص ٢٧٤ / ٢٧٥ ـ ومابعدها .

١٢ ـ ثابت بن سنان : **اخبار القرامطة** ص٦٢ ـ ابن الجوزي : **المنتظم في تاريخ الملوك** والأمم ج٧، ص٨٢ ـ المقريزي : **اتعاظ** ج١، ص ١٧٨ / ١٨٩ .

ـ أبو المحاسن : **النجوم** ج٤، ج١، ص٧٥ .

ـ محمد جمال سرور : **المرجع السابق** ، ص٢٧٩ ـ أيمن فؤاد : **المرجع السابق** ص٨٦ .

١٣ ـ عن التسامح الفاطمي وسياستهم حيال شعب مصر انظر :

ـ المقريزي : **اتعاظ** ج١، ص١٠٣ / ١٠٧ / ١١٩ / ٢٢٥ ـ ابن سعيد : **المغرب** ص١٨٣ ص١٨٤ ـ النويري : **نهاية الأرب** ج٢٦ ص٤٠ .

ـ راشد البراوي : **حالة مصـر الاقتصاديـة في العصـر الفـاطمي** ص١٥٣ / ٢٢١ القاهرة ١٩٤٨م .

ـ حسن ابراهيم حسن : **تاريخ الدولة** ص ١٤١ / ٢٠٤ ـ سرور : المرجـع السابق ص٨١ ومابعدها .

١٤ ـ صابر دياب : **سياسة الدول الاسـلامية في حـوض البحـر المتوسـط** ص٢٤٥ / ٢٤٦ (القاهرة ١٩٧٣م) .

ـ المقريزي : **الخطط** ج١ ص١٠٩ .

ـ ابن صماتي : **قوانين** ص٢٣ ـ ابن جبير : **رحلته** ص٢٦٠ .

ـ هايد : **تاريخ التجارة** ج١ ص ١١٤ / ١٢٨ / ١٢٩ / ١٣١ / ١٤٥ .

ـ احمد دراج : **أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة** ج١ ص١٢٦ / ١٢٧ (القاهرة ١٩٧٥م) **والمماليك والفرنجة** ص٧٠ (القاهرة ١٩٦٠م) .

ـ مصطفى حسن محمـد الكنـاني : **العلاقـات بـين جنـوه والشـرق الأدنـى الاسـلامي ، أضـواء جديـدة علـى الحركـة الصليبيـة** القـاهرة ١٩٨١ ص٣٩٦ وماقبلها ومابعدها .

ـ راشد البراوي : **حالة** ص٢١٢ / ٢١٣ / ٢١٥ / ٢٢٤ .

ـ عطية القوصي : **مصر وعالم البحر المتوسط** ص١١٦ / ١٢٠ / ١٣٧ .

١٥ ـ محمد جمـال الدين سرور : **تـاريخ الحضـارة الاسـلامية في الشـرق** ص١٤٥ / ١٥٠ / ١٥٨ .

ـ كلود كاهن : تجار القاهرة الأجانب في العهديـن الفـاطمي والأيوبـي مـن أبحاث التدورة الدولية لتاريخ القاهرة ج٢ ص٨٧١ .

ـ أرشيبالد : **القوى البحارية والتجارية** ص٣٢٦ / ٣٢٧ / ٣٢٨ .

- عطية القوصي : **المرجع السابق** ص١١٦ / ١٢٠ .

- أحمد دراج : **الوثائق العربية** ص١١٨ / ١٢٦ .

- آدم متز : **الحضارة الاسلامية** ج٢ ص٣١٤ .

- سليمان مصطفى زبيسي : **المامة عن أحوال القاهرة وعلاقاتها مع الخارج في عهد الفاطميين** ، من أبحاث الندوة الدولية القاهرة ج١ ص٥٢٩ .

١٦ - انظر :

- ابن العديم : **زبدة الحلب** ج١ ص١٦٣ / ١٦٤ .

- بيبرس الدوادار : **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة** مخطوط جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٦ / ٢٤٠٢٧ .

- زيود : **حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي** ص٣٠ (دار الفكر بيروت ١٩٩٢م) .

١٧ - الروزراري : **ديل تجارب الأمم** ص١٨٥ (القاهرة ١٩١٤م) .

- أبو المحاسن **النجوم** : ج٤ ص ١٥١ / ٢٥٢ - المقريزي : **الخطط** ج٢ ص١٦٩ .

- عبد المنعم ماجد : **ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها** ص١٢٣ / ١٤٠ / ١٤٥ / ١٤٧ (القاهرة ١٩٦٨م) .

- شاكر مصطفى : **فلسطين مابين العهدين الفاطمي والأيوبي** ص ٣٥٥ ومابعدها (الموسوعة الفلسطينية) .

١٨ - المقريزي : **الخطط** ج٢ ص١٣٧ - **اتعاظ الحنفا** ج١ ص ١٦٦ / ١٦٨ .

- أبو المحاسن : **النجوم** : ج٤ ص١٩٢ .

- ابن الأثير : **الكامل** ج٨ ص١٦ / ٢٩ / ٤٦ / ٥٩ .

- ماجد : **ظهور** : ص١٥٠ / ١٥٤ .

ومجموعة الوثائق الفاطمية ج١ ص١٩٢ - زيود : **حالة** : ص٢٩١ / ٢٩٢.

١٩ - ابن القلانسي : **ذيل** ص١٥ / ١٩ / ٢٠ / ٤٦ ومابعدها .

- ابن العديم : **زبدة** ج١ ص١٨٥ - ابن الأثير : **الكامل** ج٨ ص٦٦١ .

- مسكويه : **تجارب** ج٢ ص٤٠٢ - شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٣٥٥ / ٣٥٦ .

- زيود : **حالة** : ص٣١ / ٣٤ .

- أيمن فؤاد : **المرجع السابق** ص٢٩٨ ومابعدها .

٢٠ - وتجدر الاشارة إلى أن الفاطميين بعد هزيمة هذا الثائر واسره أُحضر إلى القاهرة وسلخ جلده حيا ثم صلب ، بعد أن حشي جلده تبناً وقتل أصحابه.

انظر : ابن الفلانسي : **ذيل** ص٥٠ / ٥١ .

- ابن خلدون : **العبر** ج٤ ص٢٦ / ٢٧ .

- شاكر مصطفى : **المرجع السابق** : ص٣٥٦ .

- زيود : **حالة** : ص٤٢٧ .

٢١ - ابن الجوزي : **المنتظم** ج٧ ص٢٤٣ / ٢٤٤ .

- البوزراوي : **ذيل** مجلد ٣ ص٢٢٣ / ٢٢٦ .

- مسكويه : **تجارب** ج٢ ص٤٠٢ .

- يحيى بن سعيد الانطاكي **تاريخه** ج٢ ص٥٠٤ .

- زيود : **حالة** : ص٣٥ / ٥٩ .

٢٢ - محمد زيود : **حالة** : ص٣٢٦ / ٣٣١ .

- أمينة أحمد امام الشوربجي : **رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي** ص٣١٠ / ٣٣١ (الهيئة المصرية العامة القاهرة ١٩٩٤م) .

- وانظر المصادر التي كتبت عن هذه المدن وبخاصة الرحالة والجغرافيين كابن خرداذبه ، والمقدسي ، وابن جبير وناصر خسروا وابو الفداء ، وابن بسام التنيسي ، وابن حوقل وياقوت الحموي من خلال وصفهم المدن .

- راشد البرادي : **حالة مصر** : ص١٩٩ ومابعدها .

- عطية القوصي : **تجارة مصر في البحر الأحمر** ص١٣١ .

٢٣ - أنظر المقريزي : **اتعاظ** ج١ ص١٠٧ / ١١٧ .

- **الخطط** ج١ ص٨٢ / ١١١ .

- **اغاثة الأمة** ص١٣ / ١٤ .

- ابن زولاق : **فضائل مصر** ورقة ٤٧ظ .

- زيود : **حالة** : ص٢٨٧ .

- ابن اياس : **بدائع الزهور** ج١ ق١ ص١٩١ .

٢٤ - انظر المقدسي : **أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم** ص١٧٩ / ١٨٠ / ١٨١ / ١٨١ ومابعدها .

- الثعالبي : **لطائف المصارف** ص١٦٠ .

- ابن حوقل : **صورة الأرض** ص١٥٢ .

- ابن حماتي : **قوانين** : ص٢٣٠ / ٢٣١ .

- زكي محمد حسن : **كنوز الفاطميين** : ص١١١ / ١١٢ / ١١٦ .

- المقريزي : **الخطط** : ج١ ص٤٦٤ .

- دائرة المعارف الاسلامية : **مادة طراز** .

- ارشيبالد : **القوى** : ص٣٢٨ .

- امينة أحمد امام الشوربجي : **المرجع السابق** ص٢١٦ / ٢٧٠ .

- راشد البراوي : حالة مصر ص١٢١ / ١٢٤ / ١٢٧ / ١٤٤ / ١٩٤ / ١٩٧ / ١٩٨ / ٢٠٤ / ٢٢٦ / ٣١١ / ٣١٣ .

- زيود : **حالة** : ص١٢٣ / ١٣٠ / ١٣٧ / ١٣٨ .

- أيمن فؤاد سيد : **الدولة الفاطمية** ص٢٩٦ .

٢٥ - المقريزي : **المقفى** : ص٣٤٣ .

- **أتعاظ** ج١ ص١١٧ .

- **الخطط** ج١ ص١١١ .

- أيمن فؤاد سيد ص٨٠ / ١٤٣ / ١٤٤ / ١٤٥ .

٢٦ - ساويرس بن المقفع : **تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية** ج٢ ق٢ ص٩٦ / ٩٧ .

- ابن سعيد : **المغرب** ص١٨٣ / ١٨٤ .

- أبو شجاع : **ذيل تجارب الأمم** ص١٨٦ .

- ابن الأثير : **الكامل** ج٩ ص٤٩ .

- ابن الجوزي : **المنتظم** ج٧ ص١٩٠ .

- ابن اياس : **بدائع الزهور** ج١ ق١ ص١٩٦ - المقريزي : **اتعاظ** ج١ ص٢٢٥ / ٢٩٧ .

- جمال سرور : **الدولة الفاطمية** ص٨٦ - أيمن فؤاد سيد : **الدولة** ص٨٩ / ٩٢ .

٢٧ ـ المقريزي : **الخطط** ج١ ص٦١ / ٨٢ / ٩٩ ـ **اغاثة الأمة** ص٢٠ / ٢١ .

ـ ابن زولاق : **فضائل مصر** ورقة ٤٧ ظهر ـ أبو المحاسن : **النجوم** : ج٤ ص٤٦ و ج٥ ص٣١٦ .

ـ أيمن فؤاد سيد : **الدولة** ص٨١ ـ البراوي : **حالة** ص١٠٢ وص١٠٥ / ١٠٦ / ١٠٧ .

٢٨ ـ المقريزي : **اغاثة** ص١٣ ز ١٤ / ٢٧ / ٢٨ ـ **اتعاظ** : ج١ ص١٢٠ ـ الخطط ج٢ ص٣٤٠ .

ـ محمد بركات البيلي : **الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر الاسلامية** ص١٩ / ٨١ / ٩١ (القاهرة ١٩٨٦) ـ البراوي : **حالة** ص٣٤٨ / ٣٤٩ ـ بدر عبد الرحمن محمد : **النشاط التجاري في مصر في العصر الفاطمي** (٤٩٤هـ ـ ٥٨٣هـ) (١٠٩٩ ـ ١١٨٧م) جامعة القاهرة رسالة دكتوراه ص٥٣ لم تطبع بعد .

ـ ممدوح عبد الرحيم الريطي : **أسواق الفسطاط والقاهرة في العصر الفاطمي** من (٣٥٨هـ ـ ٥٦٧هـ) (٩٦٩ ـ ١١٧١م) رسالة دكتوراه جامعة المنيا لعام ١٩٩٢ : ص٣٢٧ / ٣٢٨ .

٢٩ ـ المسبحي : **اخبار مصر** ص٤٥ / ٤٧ .

٣٠ ـ وعن المحتسب ومهماته انظر :

ـ الماوردي : **الأحكام السلطانية** ص٢٢٧ / ٢٣٠ (مطبعة الوطن ١٢٩٨هـ) .

- دائرة المعارف الاسلامية **مادة حسبة** - ابن الأخوة : **معالم القربة** ص٢٤٠ - ابن خلدون **المقدمة** ص٢١٣ - المقريزي : **اغاثة** ص١٦ / ١٧ / ١٩ ـ الخطط ج٢ ص٢٩٧ - الشيزري : **نهاية الرتبة** ص٣٠ ـ المسبحي : **أخبار مصر** ج٤ ص٣٦ .

- القلقشندي : **الأعشى** : ج٣ ص٤٨٧ - زيود : **الحسبة ونظام المحتسب في الاسلام** : مجلة دراسات تاريخية العددان ٢٩ / ٣٠ آذار (دمشق ١٩٨٨م).

٣١ - المقريزي : **اغاثة** ص٢٧ / ٢٨ ـ محمد بركات البيلي : **الأزمات** ص٨١ / ٩١ .

- ابن مماتي : **قوانين** : ص٣٦٧ .

٣٢ ـ أبو المحاسن : **النجوم** ص٤ ص١٩٢ ـ المقريزي : **اتعاظ ج١** ص١٣٨ / ١٦٦ / ١٦٩ / ٢٩٠ ـ **والخطط** ج٣ ص١٤٤ ـ ناصر خسرو : سفر نامة ص٨٨ - ابن الأثير : **الكامل** : ج٨ ص١٦ / ٢٩ / ٤٦ .

- هايد : ج١ ص٣٨٨ . ماجد ، **ظهور** ص١٥٠ / ١٥٤ - دراج : **الوثائق** ج١ ص١٢٦ / ١٢٧ ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

- القوصي : **مصر وعالم البحر المتوسط** ص١٦٠ / ١٦٥ - بنيامين التطيلي : **الرحلة** ٢٢/٢٠ ، ١٧٨ / ١٧٩ ، الكناني : **العلاقات** ص٣٨٩ ـ البراوي : **حالة** ص٢٠٩ / ٢١٠ .

٣٣ - المقريزي : **اغاثة** ص٢٨ ـ سليمان مصطفى زبليس : **المامة عن أحوال مصر الاقتصادية وعلاقاتها مع الخارج في عهد الفاطميين** : ص٨٨د (مقال الندوة الدولية لتاريخ القاهرة) ج٢ لسنة ١٩٦٩م .

٣٤ - المقريزي : **الخطط** ج١ ص١٠٩ / ١١٠ - **اغاثة** ص١٨ / ١٩ - ابن ميسر : **اخبار مصر** ص١٣٥ .

٣٥ - ناصرخسرو : **سفر** ص٦٤ / ٦٥ - بدر عبد الرحمن : **النشاط التجاري في مصر في العصر الفاطمي** (رسالة دكتوراه جامعة القاهرة ١٩٧٠).

٣٦ - المقريزي : **اغاثة** ص٢٦ **الخطط** ج٢ ص٤٤ - خسرو : صفر ص٦١ / ٦٢ .

- ابن ميخائيل : **ذيل سيرة الأباء البطارقة** ج٣ ورقة ٢٤ مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٦٤٣٤ ح.

٣٧ - خسرو : **سفر** ص١٢٦ / ١٢٧ - جرو هلمان : **أوراق البردى** ج٦ ص١٧٥ / ١٨٢ .

٣٨ - ابن ميسر : **أخبار مصر** ص٦٢ / ٨٠ - ابن الأثير : **الكامل** ج٨ ص١٧٢ .

٣٩ - وعن الفتن والأحداث العسكرية والاضطرابات يمكن العودة إلى :

- ابن ميسر : **تاريخ مصر** ص١٢ / ١٣ / ٢١ / ٢٢ / ٣٠ (القاهرة ١٩٩١م) .

- المقريزي : **اتعاظ** ج١ ص١٢٠ / ١٢٣ / ١٢٧ / ١٤٢ / ٢٠٥ - ابن القلانسي : **ذيل** ص١ / ٢ / ١٨ / ٢١ .

الكامل : ج٥ ص٩١ / ٩٢ / ٦٦ - ابن خلدون : **العبر** ج٤ ص٤٨ / ٩٠

- النويري : **نهاية** ج٢٨ ص١٨٠ / ١٨١ / ١٨٥ - سرور : **سياسة الفاطميين الخارجية** ص١٣٧ - **الدولة الفاطمية** ص١٠١ / ١١٠ .

- المعاضدي : **الحياة السياسية** ص٢٠ / ٧٨ - أيمن فؤاد : **الدولة** ص١٣٧ / ١٧٣ / ١٩٥ .

- البراوي : **حالة** ص٢٤٦ .

- النجوم الزاهرة : ج٤ ص٦٠ / ٧٠ / ١١٠ .

٤٠ - الفارقي : **تاريخه** ص١٦١ - عبد اللطيف البغدادي : **الافادة والاعتبار في المشاهد والحوادث المعانية بأرض مصر** ص٤٥ القاهرة رقم ١١٢٣٦ نسخة خطية بمكتبة جامعة القاهرة .

- ابن سعيد : **الاعتياظ في حلي مدينة الفسطاط** ص٢ - حجير الدين : **الأنس الجليل** ج١ ص٣٠٤ .

- المقريزي : **نفح الطيب** ج٨ ص١٧٧ - شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٤٦٤ / ٤٦٥ .

- البراوي : **حالة** ص٧٩ / ٨٢ - زيود : **حالة** : ص٥٥ / ٥٦ / ٥٧ / ٥٨ .

وتجدر الاشارة إلى أن هناك نص عن دمشق يعود لهذه الحقبة أورده كل من سبط من الخوري ، وابن القلانسي عن دمشق وماحقها من أذى وتضرر لقاء ما تعرضت له من أحداث وخطوات آثرنا ايراده على الرغم ماقد يحمل من مبالغة لكنه يقدم الدليل الكافي على الضرر الذي حدث أثر هذه المحن والخطوب بعد الاجتياح الغزي للشام .

- النص يقول : « بلغت دمشق نتيجة لهذه الحروب حافة الانهيار و لم يبقى لها » دمشق من أهلها سوى ثلاث آلاف انسان بعد خمسمائة الف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء ... وكان بها مائتان وأربعون خباز فصار بها خبازان والأسواق

خالية والدار التي تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها بعشرة دنانير فلا يشتريها أحد والدار الذي كان يساوي ألف دينار ماتشتري بدينار وكان الضعفاء يأتون إلى الدار الجليلة ذات الاثمان الثقيلة فيضرمون فيها النار فتحترق ويجعلون أخشابها فحماً يصطلون به ، وأكلت الكلاب والسنانير (القطط) وكان الناس يقفون في الأزمة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم وكان لا مرأة داران قد أعطيت قديماً في كل دار ثلاثمائة دينار أو أربعمائة ولما ارتفعت الشدة عن الناس ظهر الفأر فاحتاجت إلى سنور فباعت أحد الدارين بأربعة قيراطاً واشترت به سنوراً .

ـ وفي التاريخ نفسه يورد ابن الفلانسي في احداث سنة ٤٦٠ / ١٠٦٧م أنه حدثت زلزلة عظيمة في فلسطين هدمت أكثر دور الرملة وسورها وتضعضع جامعها ومات أكثر أهلها تحت الردم ، وحكي أن معلماً كان في مكتبه مايقدر بمائتي صبي فوقع المكتب عليهم وما سأل أحد عنهم من أهاليهم لهلاكهم جميعاً وأن الماء تدفق من أفواه الابار لعظم الزلزلة ، كما وهلك في بانياس تحت الردم كثيرون وكذلك حدث في بيت المقدس) .

ـ انظر : ابن القلانسي : **ذيل** ص٩٤ .

٤١ ـ انظر المصادر والمراجع التي وردت في ٣٩ / ٤٠ .

٤٢ ـ هايد : **التجارة** ج١ ص١٣٢ / ١٥١ / ١٥٢ / ١٥٦ / ١٥٧ ـ جوزيف نسيم يوسف : **تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق في العصور الوسطى** ص٣٧ / ٣٨ الاسكندرية ١٩٣٨م .

ـ سعيد عاشور : **الحركة الصليبية** ج١ ص٣١٨ / ٣١٩ / ٢٦٣ / ٢٦٤ / ٢٦٥ ، وشخصية الدولة الفاطمية ص٣٥ / ٣٦ ـ عطية القوصي : **مصر**

الفاطمية وعالم البحر المتوسط اعداد وتقديم رؤوف عباس (القاهرة ١٩٨٥) ص١٣٧ / ١٣٩ .

- ارشيبالد : **القوى** ص٣٦١ و ٣٦٢ - مصطفى حسن الكناني : **العلاقات بين جنوه والفاطميين في الشرق الأدنى** ج١ ص٨٥ / ٨٦ / ١٤٠ (١٠٩٥ — ١١٧١م **أضواء جديدة على الحركة الصليبية** الهيئة المصرية العامة ١٩٨١) .

- شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٣٧١ / ٤٨٤ — محمود محمد الجويري: **الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر** ص١٠٧ (القاهرة ١٩٧٩م) .

- راشد البراوي : **حالة** ص٢٤١ .

٤٣ - ارشيبالد : **القوى** : ص - شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٤٨٠ / ٤٨٢ / ٤٨٣ - قاسم عبده قاسم : **ماهية الحركة الصليبية** ص٢١٦ .

٤٤ - ابن جبير : **رحلته** ص١٨٠ / ١٨٣ / ٢٠١ / ٢٠٢ / ٢١١ / ٢٢٣ / ٢٢٦ / ٢٢٧ / ٢٣٤ / ٢٦٠ / ٢٦٩ / ٢٧٦ / ٢٧٧ / ٢٨١ .

- أبو شامة : **كتاب الروضتين** : ج١ ص٤٤٣ - أسامة بن منقذ : **الاعتبار** ص١٢٧ (تحقيق حتي ١٩٣٠) ناصر خسرو : **سفر** ص١٣ — هايد : **تاريخ التجارة** ج١ ص١٨٠ / ١٨١ / ١٨٢ / ١٨٥ / ١٨٦ / ١٨٨ / ١٩٢ / ٣٦٠ - ابن شاهين : **زبده كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك** ص٤٧ / ٤٨ (بيروت ١٩٨٢) .

- شاكر مضطفى : **المرجع السابق** ص٤٨٥ — ابن شداد : **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** (تحقيق الشيال) ط١ القاهرة ١٩٦٤م ص٦٦ / ٣٣٦ .

ـ المقريزي : **السلوك** ج١ ص٩٤ / ٢٦٠ ـ الكناني : **العلاقات** ج١ ص٢٧٢ ص٨٦ / ١١٧ / ١٢٣ / ٢٨٧ / ٢٩٠ وج٢ ص٨٣ / ٨٤ / ٨٨ .

٤٥ ـ قاسم عبده قاسم : **ماهية الحركة الصليبية** ص٢١٧ ـ عبد الحافظ عبد الخالق يوسف : **الأسواق في المناطق الصليبية في بلاد الشام في الفترة من ٤٩٥ـ ٦٨٧هـ** (١٠٩٩ ـ ١٢٩١م) رسالة ماجستير لم تطبع بعد جامعة الزقاريق ص١ / ٥٨ .

ـ قاسم عبد الرحمن هاشم الطحاوي : **الحياة الاقتصادية في المستعمرات الصليبية في بلاد الشام** (٤٩٤ ـ ٥٨٣هـ) (١٠٩٩ ـ ١١٨٧) رسالة ماجستير جامعة عين شمس ص١ /٦٣ / ١٣٥ .

٤٦ ـ سعيد عاشور : **الحركة الصليبية** ج١ ص٣١٨ / ٣١٩ .

ـ وانظر : شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٣٨٣ .

٤٧ ـ شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٤٨٤ .

٤٨ ـ المقريزي : **السلوك** ج١ ص٤٦ ـ شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٤٨٤ .

٤٩ ـ انظر المصادر والمراجع الواردة في هامش ٤٤ / ٤٥ .

٥٠ ـ الكناني : **المرجع السابق** ج١ ص٨٦ / ١٠٧ / ١٠٠ / ١٢٣ / ١٨٧ / ٢٩٠ وح٢ ص٨٣ / ٨٤ / ٨٨ .

ـ عاشور : **الحركة الصليبية** ج١ ص٣٥ ـ عفاف صبره : **العلاقات بين الشرق والغرب** ص١٩ / ٢١ / ٨٥ (القاهرة ١٩٨٣) .

٥١ ـ ابن جبير : **رحلته** ص٢٠٨ ومابعدها ٢٦٠ / ٢٧١ .

عن كل ذلك انظر :

٥٢ ـ ابن جبير : **رحلته** ص٢٠١ / ٢٠٨ / ٢١١ ـ بهاء الدين ابن شداد : **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** : ص٦٦ (تحقيق الشيال القاهرة ١٩٦٤)

ـ ابن القلانسي : ص١٨٩ .

ـ عبد الخالق عبد الحافظ : **المرجع السابق** ص٤٩ .

ـ وليم الصوري : ج١ ص٥٨ ـ ابن الأثير : **الكامل** ج١٢ ص٣٥ .

ـ اسامة ابن منقذ : **الاعتبار** ص٧ / ١٢ .

ـ المقريزي : **السلوك** : ج١ ص٩٤ .

٥٣ ـ محمد أمين صالح : العلاقات الفاطمية الصليحية ص٧٦ بجلة المؤرخ المصري العدد ١٩٦ .

٥٤ ـ تجارة الكارم : تعود أول اشارة إلى تجارة الكارم إلى ما أورده ابن أيبك عن تأخر وصولها في سنة ٤٥٦ / ١٠٦٣م وهذه الاشارة تؤكد أنها كانت معروفة قبل هذا التاريخ ويؤيد ذلك مئات الأوراق من الجنيزة والتي تعود إلى العصر الفاطمي ، ولم يتفق على تحديد موعد للكارم ومعناها والتي ذكرت مراراً في المصادر العربية وأوراق الجنيزة انظر بهذا الخصوص : صبحي لبيب : **التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى** . المجلة التاريخية المصرية العدد (٤) مايو ١٩٥٢ ـ ص٦/٧ ـ ويذكر جويتين أن هذه الكلمة ، توجد في لغة التاميل بجنوب الهند وهي كلمة (كاريام) وتعني ضمن ما تحمل من معاني الأعمال والأشغال ، ولما كانت أعمال الشرق الأوسط الرئيسة مع ساحل الهند الشرقي هي بالأساس أعمال تجارية فمن المحتمل أن يكون ذلك الاسم قد أطلق على ملاك السفن من التجار المترددين على هذه البلاد انظر : ـ الشاطر بعيلي حيث يرى رأياً قريباً من رأي جويتين ولكنه يرجح الكلمة إلى أصل عربي وأنها تتكون

من مقطعين : كار . ويم وكار بمعنى الحرفة أو التجارة ويم بمعنى المحيط أو البحر البعيد الشواطيء وسقطت الياء فصارت كارم أي حرفة التجارة في البحار .

ـ الشاطر بعيلي : **الكارمية** : المجلة التاريخية المصرية العدد ١٣ سنة ١٩٦٧م ص٢٢٠ وعن الكارمية انظر :

ـ عطية القوصي : **تجارة مصر في البحر الأحمر** ص٩١ ـ والسيد عبد العزيز سالم : **البحر الأحمر** ص٣٠ ـ وأيمن فؤاد سيد : **الدولة** ص٣٠٨ ـ ومحمد بركات البيلي : **بداية الكارمية ومعناه في العصر الفاطمي** ص٨٩ / ١٠٨ مجلة المؤرخ المصري العدد ١٣ سنة ١٩٩٤م .

انظر ابن أيبك : كنز الدرر ج٦ ص٣٨٠ ـ وحسنين محمد ربيع : **وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي** ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية : ج٢ ص١٣٤ (الرياض ١٩٧٩م) ـ جواتياين : **دراسات في التاريخ الاسلامي:** تعريب وترجمة عطية القوصي الكويت ١٩٨٠ .

٥٥ ـ انظر المصادر السابقة .

٥٦ ـ أبو شامة : **الروضتين** ج١ ص٢٣٤ ـ شاكر مصطفى ص٤٨٥ .

٥٧ ـ المصادر السابقة والصفحات .

٥٨ ـ المقدسي : **أحسن التقاسيم** ص١٦٠ / ١٦١ / ١٨٠ / ١٨١ ـ ابن حوقل ـ **المسالك** ص١٤٢ / ١٦٢ / ١٦٤ ـ ناصر خسرو : **سفر نامة** : ص٥٦ / ١٥٢ / ١٥٨ .

ـ ابن العديم : **بغية** ج١ ص٤١ / ٥١ / ٦١ / ٦٣ ـ ابن ميسر : أخبار مصر ج٤٠ ص٨٢ (تحقيق أيمن فؤاد سيد) ـ الثعالبي : **لطائف** من ١٥٠ / ١٥٧ ـ ابن الشحنة : **تاريخ مملكة حلب** : ص١٤٩ .

- المقريزي : **خطط** : ج٢ ص٢٥٢ / ٢٥٤ / ٤٥٤ .

- ياقوت : **معجم** : ج٥ ص١٤٥ - اشتور : **التـاريخ الاقتصـادي** : ص٩٥ /١١٤ / ٢٠٧ .

- موريس لومبار : **الاسلام في فجـر عظمتـه** : ص١٩٤ / ٢١٢ / ٢١٣ / ٢١٨ / ٢١٩ .

- زكي محمد حسن : **كنوز الفاطميين** : ص١٨١ - محمد زيـود : **النشـاط التجاري والصناعي لبلاد الشام في القرنـين الثـالث والرابـع للهجـرة** : المؤتمـر الخامس لتاريخ بلاد الشام (عمان ١٩٩٢م) ص٢١١ إلى ٢٤٨ .

٥٩ - المصادر والمراجع السابقة .

٦٠ - ابـن حوقـل : **المسـالك** : ص١٠٥ - خسـرو : ص٦٧ - **المقدسـي** ص٢٠٣ - المقريزي : **الخطـط** ج١ ص١٦٣ / ٢٦٦ / ٣٦٧ / ٢٣٠١٣ / ٤١٤ / ٤٢٤ / ٤٦٥ - ابن المأمون : **أخبار مصـر** ص٦٥ / ٦٦ - موريـس لومبـار : **الاسلام** : ص٢١٢ / ٢١٣ - خليفة : **تـاريخ المنسوجات** ص٩٩ - البـراوي : حالـة : ص١٣٦ / ١٤٠ و ٢٣٣ / ٢٣٤ / ٢٦٢ - حسـن ابراهيـم حسـن : **الدولة الفاطمية** ص٥٩٠ .

٦١ - الثعالبي : **لطائف** ص١٦٦ (القاهرة ١٩٦٠) - الدمشقي : **الاشارة إلى محاسن التجارة** : ص٢٢ (القاهرة ١٣١٨هـ) - الجاحظ : **التبصر بالتجارة** ص٢١ .

- المقدسـي : **أحسـن التقاسيم** ص١٤٥ - هـايد : **تـاريخ التجـارة** ج٢ ص٥٧٥.

- البراوي : **حالة** : ص٢٣٥ - نقولا زياده : **تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر العباسي بين سنتي (١٣٢ - ٤٥١ هـ - ٧٥٠ / ١٠٥٩م)** مؤتمر بلاد الشام الخامس (عمان ١٩٩٢م) .

٦٢ - ابن حوقل : **المسالك** ص١٣٧ / ١٥٠ - الادريسي : **نزهة المشتاق** ص٢٧ - **المقدسي** : ص١٤٥ / ١٤٦ / ١٤٨ - **خسرو** : سفر ص١٣ / ٤٥ .

- النويري : **الالمام بما قضت به الأحكام** ص١٢٣ - كلود كاهن : **تجارة القاهرة الأجانب في عهد الفاطمين والأيوبيين من أبحاث** الندوة الدولية لتاريخ القاهرة لعام ١٩٧٦ ص١٧١ .

- البراوي : **حالة** ص٢١٣ / ٢٢٢ / ٢٣٠ .

- القوصي : **تجارة** ص٢٠٨ - حامد زيان : **العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ابان الحروب الصليبية** ص١٦٢ / ١٦٥ - رسالة دكتوراه جامعة القاهرة لم تطبع لعام ١٩٧٣م ..

٦٣ - ابن حوقل : **المسالك** ص١٠١ - ابن زولاق : **فضائل مصر** : مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٨١٦ ورقة ١٣٥ .

- ابن اياس : **نشق الأزهار في عجائب الأقطار** مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٢٠٧ ورقة ١٦٦ .

- راشد البراوي : **حالة** ص٢١٥ / ٢٣٠ - القوصي : **تجارة مصر** ص٢٠٩.

٦٤ - عطية القوصي : **تجارة مصر** ص٢٠٧ / ٢٠٨ - شاكر مصطفى : **المرجع السابق** ص٤٨٠ / ٤٨٧ .

- البراوي : **حالة** ص٢١٣ .

٦٥ ــ ٦٦ ــ ابن خرداذبة : **المســالك** ص١٥٣ / ١٥٤ ــ **المقدسـي** : ص٣٤.

ـ اليعقوبي : **البلدان** ص٢٣٤ (نشرفييت القاهرة ١٩٣٧) ـ هـايد : **التجارة** ج٢ ص٢٨٠ و ٥٦١ / ٦٥٩ / ٥٧٥ سلمان التاجر : **أخبار الصين والهند** : ص١١ / ١٢ .

ـ ابن جبير : **رحلتـه** ٤٠ / ٤٢ ص٤٣ / ٦٧ / ٢٥٦ ـ أشتور : **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** : ص١٢٨ / ١٢٩ ـ **ابن سينا الطبيب الصيني** : مجلة تاريخ الطب الصيني العدد الثامن يونيو ١٩٥٢ بكين ـ البراوي : **حالة** ص٢٥٥ / ٢٥٦ .

ـ نعيم زكـي سليفان : **طـرق التجـارة الدولـية بـين الشـرق والمغـرب في العصـور الوسـطى** ص١٧١ / ١٩١ / ٢٥٤ ـ سـليمان ابراهيـم العسـكري : **التجارة والملاحـة في الخليـج العربي** ص٤٩٦ ـ فهمـي هويـدي : **الاسـلام في الصين** ص٥٠ / ٥١ .

٦٧ ــ ابـن خرداذبه : **المسالك** ص١٥٣ / ١٥٤ ـ المقدسـي : **أحسـن** : ص١٨٠ / ١٨١ .

ـ ابن الفقيه : **البلدان** ص٢٧٠ ـ ابن العديم : **بغية** ج١ ورقة ٥٠ظ و٥١ .

ـ سـليمان التـاجر : **أخبـار الصـين والهنـد** : ص٢٣ / ٢٤ / ٢٩ / ٤٨ ـ لومبار : الاسلام ص٢٤٦ / ٢٤٧ .

ـ سـليمان ابراهيـم العسـكري : **التجـارة والملاحـة في الخليــج العربـي** : ص١٣٧ ـ البراوي : **حالة** ص٢٣٨ / ٢٣٩ / ٢٤٠ .

٦٨ ـ المقدسي : **أحسن** : ص٢١٢ / ٤٣٣ / ٤٣٤ (ليدن ١٩٦٧م) .

- جرو هلمان : **أوراق البردى العربية** ج٦ ص١٠٤ / ١٨١ دار الكتب المصرية .

٦٩ - جمال سرور : **الدولة الفاطمية** ص١٥٥ - **وتاريخ الحضارة الاسلامية** ص١٣٦ .

- عثمان الكعاك : **الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط** ص١٠٤ .

٧٠ - رؤوف عباس : **مصر وعالم البحر المتوسط** : ص١٤٣ / ١٦٤ - عطية القوصي : بحث **مصر الفاطمية وعالم البحر المتوسط** (القاهرة ١٩٨٦) - **وتجارة مصر في البحر الأحمر** ص١٢٣ / ١٣١ .

- أرشيبالد : **القوى البحرية** ص٨٩ / ٩٠ / ٩٥ - السيد عبد العزيز سالم : البحر **الأحمر في التاريخ الاسلامي** ص١٢ وما بعدها - جورج فضلو حوراني : **العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى** : ص٥٣ / ٩٠. / ١٩٠ / ٢٢٨ .

- علي حسن الخربطلي : **الاسلام في حوض البحر المتوسط** : ص٩ / ١٥ / ١٦ .

٧١ - أرشيبالد : **القوى** : ص٣٥ / ٨٧ / ١٥٧ / ١٦٢ / ١٨٤ / ٢١٦.

- الروضتين ج١ ص٣٣١ / ٣٣٣ - ابن شداد : **النوادر السلطانية** ص٣٦.

- المقريزي : **اتعاظ** ج٣ ص٢٦٤ - **الخطط** ج١ ص٣٣٨ - النجوم : ج٥ ص٣٣٨ / ٣٨٧ .

- أيمن فؤاد سيد : **الدولة** ص٢٢٢ / ٢٣٩ .

اليهود في الأندلس والمغرب
خلال العصور الوسطى

د. علي أحمد

جامعة دمشق

مقدمـــة :

في أندلس الأمس ومغرب اليوم ، عاشت مجموعة من اليهود عيشة طيبة رافهة ، يكتنفها الهدوء وتعززها الثقة والأمان ، لأن العرب في كل مكان وفي كل أيام مجدهم، كانوا ينظرون إلى جميع سكان بلادهم نظرة واحدة ، تقوم على أساس أنهم مواطنون في دولة واحدة ، تنظم شؤون حياتهم مجموعة قانونية واحدة ، تطبق موادها على الجميع ، بغض النظر عن الجنس واللون والدين .

في هذا الجو الممتاز ، وجد اليهود بيئة صالحة مناسبة للعيش ، استغلّوها لصالحهم إلى أبعد حدود الاستغلال ، مستفيدين من جو الحرية العامة ، التي تمتعوا بها تحت مظلة الدولة العربية ، فوصلوا إلى مراتب ادارية عالية ، كان ذلك على حد سواء في عصر القوة العربية في الأندلس خلال عصر الامارة والخلافة ، أو في عصر السقوط في زمن دول الطوائف بالأندلس ايضاً . وهذا إن دلّ على شيء ، إنما يدل على سعة الصدر العربي ، الذي تمكن من استيعاب الجميع تحت قيادة عربية واحدة قوية ، وهو بالتالي يشير إلى مدى قدرة العرب على قيادة الناس قيادة حازمة ، تجمع بين العلم والرحمة وبين الحزم واللين .

وعلى الرغم من ذلك الواقع الطيب للعرب ، فإن اليهود لم يقدّروا لهم هذه المعاملة ، وتلك النظرة الانسانية العظيمة ، ولاسيما أن العرب هم الذين خلصوهم من كوابيس الظلم والاضطهاد والعذاب ، التي لحقت بهم خلال فترة طويلة سبقت وصول العرب إلى الأندلس ، فقاموا بتحريرهم وعتقهم واطلاق سراحهم في كل مجال من مجالات الحياة . ومع ذلك فقد وقفوا ضد العرب ، حتى في أيام قوتهم ، عندما كانوا يحاولون اعطاء زخم جديد للمسائل اليهودية، وبخاصة الدينية منها ، مستغلين بذلك روح التسامح العربية ، التي سادت

الأندلس والمغرب وقتاً طويلاً . أما في أيام تراجع العرب وسقوط هيبتهم ، وضعف قوتهم ، فحدِّث ولاحرج . فقد انتقلوا إلى جانب الأسبان ، يقومون بخدمتهم ، والدفاع عن حقوقهم العامة ضد العرب ، الذين أعطوهم كل شيء . وكانوا في كثير من الأحيان اشد ظلماً وعدواناً من الأسبان على العرب، برغم أنه لولا ثقافة العرب وعلومهم ، التي درسوها واستفادوا منها ، لما تمكنوا من الوصول إلى المناصب الادارية والاقتصادية الرفيعة ، التي شغلوها في الجانب الاسباني المعادي للعرب .

تفاصيل هذه الأمور ستظهر واضحة من خلال تتبع مضمون الصفحات التالية ، التي قصدنا من كتابتها الوقوف على جانب هام من جوانب حياة اليهود في ظل دولة العرب المتقدمة في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى ، ذلك لأن الوقوف على هذا الجانب التاريخي الهام من حياة اليهود ، يمكّن المرء من معرفة أكيدة ، في أن الشعب اليهودي ، لايمكن أن يرقى إلى المستوى الانساني، الذي يجعله يظر إلى الآخرين نظرة عادلة ، تعتمد في أصولها على حقوق جميع البشر في التمتع بحياتهم العامة والخاصة ، بحيث لايكون ذلك على حساب الآخرين . كما أنهم دوماً يجعلون من أنفسهم سادة غيرهم ، وحتى تستقيم الحياة برأيهم (الظالم) فلابد من أن تكون البشرية تحت سيطرتهم الثقافية والمادية والمعنوية .

نبدأ بالتساؤل عن الأصول الغابرة لليهود في المغرب والأندلس . للإجابة على ذلك نقول : إننا لن نذهب بعيداً في التحري والبحث عن الأماكن ، التي رحل منها اليهود إلى الأندلس والمغرب ، لأن في ثنايا ذلك أوهام وأغلاط وآراء لاطائل منها ، وبالتالي لايمكن للمرء أن يبلور فكرة راسخة حولها . وكل مايمكن

ذكره في هذا المقام ، أن قسماً مهمّاً من اليهود في اسبانية والمغرب ، يعود في أصوله إلى العصر الروماني . أما القسم الآخر المتبقي من اليهود ، منهم من أصل أوروبي شرقي ، ومن ثم من اصل خزري ، وهذا يعني أن أسلاف معظم اليهود المعاصرين ، لم يأتوا من وادي الأردن وإنما من الفولغا ، ولم ينحدروا من كنعان، وإنما من القفقاس . وأنهم أوثق انتماءً وراثياً إلى قبائل الهون والمجر منهم إلى ذرية ابراهيم واسحق ويعقوب(١) .

ومن ذلك يُستنتج أن اليهود كانوا طارئين على شبه الجزيرة الايبرية (اسبانية) مثلهم في ذلك مثل جميع اليهود في كل مكان . ولم يكن لهم صلة جنسية أو دينية بسائر سكان الأندلس ، وكانت الحياة الاقتصادية في أيديهم وتحت سيطرتهم ، يقدمون القروض والأتاوات والاغراءات للطبقات الحاكمة ، ويبتزون الأموال من الطبقات المحكومة دون تفريق بين غني أو فقير ، أو بين محتاج ومتخم ، ثم كانوا يقرضون المال للجميع بالربا والفوائد ومايتصل بذلك(٢) .

وكما كانت الدولة تضطهد اليهود، كان الأشراف ورجال الدين الاسبان يضطهدونهم أيضاً . وقد جعل رجال الدين اضطهاد اليهود سياسة صريحة لهم، وحملوا الدولة على تبني تلك السياسة ، وكانوا لايبايعون ملكاً على اسبانية إلا إذا تعهد بتنفيذ هذه السياسة . وحجة رجال الدين في اضطهاد اليهود ، هي أن اليهود قتلوا المسيح ، وأنهم يأخذون الربا ، وأنهم يعملون في النخاسة . وأقرت الكنيسة سياسة الاضطهاد هذه سنة (٦١٦م)في أيام الملك سيسيبوت (٦١٢ – ٦٣١م) وكان روماني الهوى وكاتباً باللغة اللاتينية ، وكذلك في أيام الملك سيسيناندو ، الذي عُقد المجمع الرابع الكنسي في عهده في مدينة طليطلة سنة

(٦٣٣م) ، والذي اتخذ بحق اليهود قرارات مجحفة غير انسانية[٣] .

وقد أدت هذه السياسة الجائرة ومآآلت إليه من أحوال سيئة باليهود ، أن يطلبوا التخلص منها ومن عواقبها ، فراحوا يتآمرون على الدولة الايبيرية بشتى الوسائل ، دون أن يفكروا في أمر وماهية الدولة المقبلة ، التي تخلصهم من هذا الواقع الصعب . وهذا ماجعلهم يميلون إلى الترحيب بقدوم العرب ، لاحبّاً بهم ولاايماناً بجدارتهم ، لأنهم لايحبّون أحداً في الأرض ، بل لأنهم كانوا يأملون بالتخلص من ظلم الاسبان ، الذي شمل كل جوانب حياتهم ، وأن العرب اتصفوا في ذلك الحين بعدلهم وتسامحهم ومحبتهم وإنصاف المظلومين برفع الظلامات عنهم ، من أي الناس كانوا ومن أي الانتماءات . والحقيقة فإن الذي حدث بالفعل ، هو أن العرب لما وصلوا إلى الأندلس ، لم يضطهدوا اليهود دينياً ولاكانوا يأخذون منهم أموالاً بغير حق ، كما كان يفعل القوط ، وبذلك ارتفعت مكانتهم في ظل الحكم العربي[٤] . ومنذ ذلك الحين تمتع اليهود بنعمة الهدوء والاطمئنان والعيش الكريم ، ولم يتعكر صفو حياتهم لحظة واحدة ، إلا عندما كانوا يقومون بأعمال شائنة ، تثير حفيظة العرب ، الذين منحوهم العطف والرحمة ، وقدموا لهم جميع ألوان المساعدة[٥] .

وقد تركز الوجود اليهودي في الأندلس في كل المناطق مع اختلاف في كثافة هذا الوجود ، حيث كان كثيفاً في المناطق الجنوبية العامرة في الحياة والغنية في الأرزاق والايرادات والامكانات المتنوعة ، مثل مدينة غرناطة ، التي دعيت بغرناطة اليهود[٦] ومدينة اشبيلية التي اكتظت بأعداد غزيرة منهم . لكن أكبر مراكز وجودهم في الأندلس ، كان في بلدة اليسانة القريبة من قرطبة ، التي اختصت باليهود دون غيرهم[٧] ، وقد كان وجودهم في هذه البلدة مميزاً ، لأنهم

كـــانوا أكـــثر ثـــروة ومـــالاً وبحبوحـــة اقتصاديـــة مـــن ســـائر اليهـــود في الأندلس[٨] .

وأهم مناطق اليهود في الأندلس ، كانت مدينة طليطلة عاصمة اسبانية القديمة التي كانت تعرف في العصور الوسطى بالثغر الأوسط . وقد كان اليهود فيها كثيري العدد ، وأصبحوا ذوي شأن رفيع في ظل الحكم العربي المتسامح ، الذي سمح لهم بالامتلاك والبيع والتصرف ، كما لو أنهم من العرب المسلمين ، ودليل ذلك وجود كثير من الصكوك البيع والشراء ، كانت تحتوي على أسماء رجال لهم مقام اجتماعي رفيع ، مثل الصك الذي ذكر فيه ماكان يمتلكه أبو هارون موسى بن الشحات الاسرائيلي [٩] .

وبالجملة فإن وجود اليهود في الأندلس ، تركز في المدن الكبرى ، وبعض التجمعات السكنية الكثيفة ، التي يكثر فيها النشاط الاقتصادي ، ولاسيما النشاط التجاري ، الذي برع اليهود في مضماره ، كما سنرى في الفقرات التالية.

وقد ظل اليهود إلى جانب الفئات الأخرى غير العربية ، لم يعيشوا في أحياء خاصة بهم في المدن سابقة الذكر . ولم يكن لهم زي خاص بهم ، يتميزون به عن سواهم خلال القرون الأولى من حكم العرب في الأندلس والمغرب على الأقل ، كما كانت العادة في المشرق العربي[١٠] وكانت بيوتهم في أحيائهم قريبة من بعضها ، تتصل فيما بينها بدروب ضيقة وساحات صغيرة ، وفي هذه الأحياء يوجد بعض الحمَّامات والمعابد[١١] .

وفي المغرب العربي كغيره من بلدان العالم ، وجدت بعض الجاليات ليهودية، التي انتشرت في عدد كبير من مدنه وبلداته ، من حدود بلدة شالة في

المغرب الأقصى حتى تاهرت في المغرب الأوسط ، ومن بداية افريقية (تونس) حتى نهايتها . وكانت هذه الجاليات تتوضع بشكل خاص في المدن الكبرى ، مستغلة في ذلك وقبل كل شيء روح التسامح العربية ، ومقدرة العرب على استيعاب جميع السكان والمساواة فيما بينهم ، إذا التزموا في حدود القانون والنظام العام . فمنذ القديم ضم المجتمع القرطاجني ، الذي شمل رقعة واسعة من ارض المغرب العربي ، ولاسيما الأقسام الشمالية منه ، ضم بعض الجاليات اليهودية ، التي بدأت بالمجيء إليه منذ سنة ٥٨٨ ق.م، على أثر قيام الملك البابلي بختنصر بتنقية مجتمع مدينة بيت المقدس في فلسطين من الشرور اليهودية[١٢] . ولايستبعد أن تكون مجموعة مهمة من يهود اسبانية ، قد انتقلت إلى المغرب قبل وبعد الفتح العربي الاسلامي للاندلس والمغرب . فقد ظهر اليهود قبل الفتح على صعيد التدخل في الشؤون السياسية لكلا البلدين ، مثال ذلك أنهم قاموا بمساعدة الفاندال في اسبانية ، وكذلك في المغرب عندما احتله الفاندال ، وذلك انتقاماً من المسيحيين الإسبان ، الذين كانوا يعاملونهم بقسوة[١٣] . وبقي اليهود يتمتعون بحرية الإقامة والإنتقال في كل أقطار المغرب العربي ، عندما فتح العرب جميع أقطاره ، وازداد استقرارهم تدعيماً وقوة في عهد الدول الانفصالية، التي قامت في القرن الثاني الهجري ، كدولة الأغالبة في تونس ، والدولة الاباضية الرستمية في تاهرت بالمغرب الأوسط (الجزائر اليوم) ، ودولة بني مدرار في سجلماسة بالمغرب الأقصى ، حيث باشر اليهود أعمالاً متعددة الوجوه ، ولاسيما التجارة التي نشطت خلال القرن الثالث الهجري بين أقطار المغرب وافريقية من جهة ، وبين الاندلس من جهة ثانية ، وبخاصة تجارة الذهب ، التي تميز اليهود بها ، وعرفوا اسرار نجاحها وطرقها المربحة .

ويبدو أن عدد الجالية اليهودية في المغرب ، كـان كبيراً إلى حد مـا ، يـدل على ذلك ، أن اليهود كانوا أكثر من المسيحين في المغرب. فمنذ الأيـام الأولى لبناء مدينة فاس المغربية ، شكل اليهود فيها جالية كبيرة ، فيذكـر ابن أبي زرع في كتابه (الأنيس المطرب بروض القرطاس) أن إدريس الثاني فرض الجزية على يهود فاس ، فكان مبلغ جزيتهم في كل سنة ثلاثين ألفاً(١٤) . ويذكر ابـن حوقـل في عدة مواضع من اراضي الفـاطميين ، كـانت تجبى ضريبـة تسـمى (الجـوالي)، ويكاد يكون من المؤكد أن هذه الضريبة هي الجزية نفسها ، الـتي كـانت تفـرض على غير المسلمين(١٥) .

وعلى الرغم من التسامح العربي شبه الكامل مع اليهود في المغرب العربـي ، فقد يبدو من الواضح في تاريخ المغرب والأندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، أنه لاوجود لليهود في ميدان الادارة العامة على الاطـلاق ، وإن وجد استثناء لذلك ، فهو قليل ونادر جداً ، وربما يعود سبب ذلـك إلى قـوة الوجود العربي على هذا الصعيد ، حيث الكوادر العربية الادارية متوافرة بصـورة كافية ، وهذه الكوادر تتفوق على غيرها بالعلم والمعرفة والخـبرة والتوجـه ، هـذا بالاضافة إلى تماسك الدولة وقوتها وزخمها الحي ، وبخاصة خـلال عصر الامـارة والخلافة الأموية في الأندلس ، وبالتحديد خلال فترة حكم الخليفـة الناصر لدين الله وولده الحكم المستنصر ، والتي استمرت من سنة ٣٠٠ ـ ٣٦٦هـ / ٩١٣ ـ ٩٧٧م ، حيث وصل يهودي واحد إلى شغل منصب الوزارة، ساعده على ذلـك تعمقـه في أصـول وأنـواع الثقافـة العربيـة ، وكذلـك التسـامح العربي في عصـر الخلافة، الذي ترافق مع تقدم البلاد على كل الصعد ، ولاسيما منهـا الاقتصادية والعلمية . هذا الوزير هو أبو يوسف حسداي ابن اسحق بن عزرا بن شـبروط

المتوفى سنة ٣٥٩هـ / ٩٧١م ، الذي اشتغل عند الخليفتين سابقي الذكر في ميدان الادارة والطب على حد سواء ، وقد كانا يشاورانه في كثير من الأمور الكبيرة الخاصة بالدولة[١٦] .

أما فيما بعد هذه الفترة الذهبية ، فقد اختلف الأمر بصورة جذرية ، ولاسيما خلال عصر دول الطوائف بالأندلس ، عندما سقطت الخلافة الأموية ، وظهر عدد كبير من الدول ، كان التناحر والتقاتل هو القاسم المشترك فيما بينها، الأمر الذي أدى إلى استخدام العناصر غير العربية ، ليس في مجال الادارة فحسب، بل في جميع المجالات . وبرز من بين هذه العناصر ، العنصر اليهودي ، الذي استطاع بذكاء وحسن تدبير من الدخول إلى أعماق وكيان حكام دول الطوائف ، الذين تغافلوا عن كل شيء يتعلق بحقوق الوطن ، وراحوا يركضون خلف مصالحهم الشخصية والعائلية والقبلية .

وقد اعتمد حكام الطوائف على اليهود في بعض الأعمال المهمة في مجال الادارة ، وحاول هؤلاء اليهود من خلال المناصب التي شغلوها ، إلى الاساءة للعرب ، وذلك بالوقوف ضد مصالحهم الوطنية . وفي تاريخ الأندلس الكثير من الأمثلة على ذلك ، نسوق بعضها على سبيل التمثيل لواقعهم الحقيقي في الأندلس. فحينما استقر الحكم للزيريين في غرناطة ، وأصبحت واحدة من دول الطوائف في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، قام باديس بن حبوس ، أحد حكامها المشهورين بتعيين اسماعيل بن نغريلة اليهودي وابنه يوسف وزراء في بلاطه . وخلال فترة قصيرة من الزمن ، اشتهر أمر اسماعيل ، فأصبح المتصرف الوحيد والرئيس في جميع الأشغال والأعمال في دولة باديس ، وفاز بالجاه والمال ورفع إلى أعلى منزلة ، فاتخذ عمالاً ومتصرفين في الأشغال من ابناء

جنسه (اليهود) فاكتسبوا المال والمراتب ، وتطاولوا على العرب . وفيه يقول الشاعر الأندلسي عبد العزيز بن خيرة القرطبي المعروف بالمنفتل :

قرن الفضائل والفواضل	فشأى الأواخر والأوائل
سقطوا برفعة فضله	كالشمس في شرف المناقل
متقلد سيف العلا	والمكرمات له حمائل

وقد أثارت هذه الأبيات وغيرها حفيظة وغضب ابن بسام الشنتريني فعلق في أواخر القصيدة قائلاً : « ... وأبعد الله المنفتل فيما نظم فيه وفصل وقبحه وقبح ما أمل »[١٧] .

وكان من عظمته في دولة الحبوسيين بغرناطة ، أن قبل فيه بعد أن شوهد في قرطبة مع سيده باديس بن حبوس حاكم غرناطة : « ولم أفرق بين الرئيس والمرؤوس وتشابهت المناكب والرؤوس » . وقال عنه ابن السقاء الوزير القرطبي المعاصر : « إنه نسي اليهودية وكان منهمك في نظر الكتب ، ونشد أشياء من علم العرب ، وكان آخر أمره أن حجب صاحبه عن الناس ، وسجنه بين الدن والكاس ، ملحاً في أمره مبرماً لأسباب غدره ... »[١٨] .

ولم يرض بهذه المكانة الرفيعة ، التي شغلها في دولة الحبوسيين بغرناطة ، بل راح يتآمر على سيده ، الذي جعله أهم شخصية بعده ، وذلك بالاجهاز على السلطان الزيري كله واستبداله بسلطان بني صمادح أصحاب المرية ، واتخذ الترتيبات المناسبة لتحقيق انتصارهم ، واحتلال مدينة غرناطة . وقد أفلح هذا اليهودي في إخراج القواد الأقوياء من غرناطة بحجة حمايتها من غزو ابن عباد صاحب اشبيلية ، وأثار طمعهم بالأموال المخصصة لهم ، بينما أغفل الحصون الشرقية المجاورة لدولة المرية ، وأغفل تزويدها بالعدد والمؤن الضرورية ، حتى

خلا الكثير منها ، وفكر القائمون عليها أنه لم يعد هناك دولة ولاسلطان . وحيثما وجد الفرصة مناسبة ، أشار على ابن صمادح بالتقدم ، واستطاع احتلال وادي آش بسهولة ، وتقدم نحو غرناطة ، حيث تظاهر اليهود بالخوف كالآخرين ، وانتقل من المدينة إلى القصبة . وفي الليلة المتفق عليها لفتح الأبواب لابن صمادح أفشى أحد العبيد الضالعين في المؤامرة بالسر ، وصاح بذلك بين الناس محذراً ومشيراً إلى مدبرها ، فقامت العامة على اليهودي وهاجموه في محبسه وأحرقوه بالفحم ، ولوحق اليهود على أثر ذلك ، فقتل منهم أكثر من أربعة آلاف شخص في غرناطة(١٩) . وكان هذا اليهودي معداً اعداداً تاماً للقيام بأعباء الوزارة ، حيث كان يمتلك جميع المؤهلات العلمية والتثقيفية ، إلا أنه كان يحتاج إلى لين الجانب والتواضع ، وراح يظهر بمظهر أميرهُ باديس ممتطياً جواده إلى جانبه ، وشارته في الملبس كشارته ، حتى أن الناظر اليهما ، لايفرق بين الأمير ووزيره بل كان هو المسيطر المتسلط على باديس(٢٠) .

إلى جانب آل النغريلة ، فقد اشتهر في غرناطة خلال عصر الطوائف أيضاً، اليهودي صموئيل هاليفي وكان يدعى عباد بن نغدلة ، الذي ولد في قرطبة ، ودرس التلمود على الربان هانوخ الرئيس الروحي للجالية اليهودية . ثم انصرف بجد ونجاح إلى دراسة الأدب العربي ، وتثقف بأكثر العلوم ، التي كانت معروفة إلى ذلك العهد ، ثم اشتغل في مجال التجارة مدة طويلة في قرطبة ومالقة، ثم ضحك له الحظ ، وانتشلته بعض الفرص السعيدة من هذا المركز الوضيع ، ذلك أن حانوته كان قريباً من قصر أبي القاسم بن العريف وزير حبوس ملك غرناطة. وكان على رجال القصر في الغالب ، أن يراسلوا مولاهم فيما يعرض لهم من الشؤون . ولكونهم جهلاء بفن الكتابة لجأوا إلى صموئيل هذا ، فكتب لهم

ماتمس إليه الحاجة من تلـك الرسـائل ، الـتي أثـارت اعجـاب الوزيـر ، إذ ألفاهـا مكتوبة بأبلغ وأجزل أسلوب عربي ، مما حمل الوزير عنـد عودتـه إلى مالقـة ، أن يسأل عن المنشيء لتلك الرسائل ، ولما علم أنه اليهـودي استقدمه إليـه وخاطبـه بقوله : « وليس خليقاً بك أن تبقى صاحب حـانوت ، ومـا أجـدرك أن تكـون كوكباً يسطع لألاؤه في بـلاط الملـك ، فـإذا توافـرت علـى ذلـك رغبتـك فـإني متخذك لي ناموساً خاصاً فتقبل منه هذه المنة شاكراً ، وصحبـه الوزيـر معـه عنـد عودتـه إلى غرناطـة وازداد اعجابـه بـه ، عندمـا أخـذ يبادلـه الحديـث في شـؤون الدولة، إذ وقف منه على رجل نادر الذكـاء بـين الرجـال ، بعيـد النظـر ، سـديد الرأي ، حتـى قـال بعـض المؤرخين اليهـود : « إن النصـائح الـتي كـان يسـديها صموئيـل كـانت بمثابـة أقـوال صـادرة عـن إنسـان ملهـم يسـتوحي كـلام الله ويستفسره » ولهذا كان الوزير يـأخذ بهـا ، ويخصـه بجميـل الثنـاء . ولمـا أحـس الوزير بدنو الأجل في مرضه ، الذي مات فيه ، جاء الملـك يعوده ، وقـد داخلـه حزن عميق علىوزيره وخادمه الأمين ، فانتهز الوزير هذه الفرصة وقال للملـك: « ولم تكن النصائح والآراء الرشيدة التي كنت أبديها لـك أيهـا الملـك في العهـد الأخير صادرة مني ، بل كانت وحياً أتلقاه من صموئيل ذلـك اليهـودي ، الـذي آثرت أن يكون ناموسي الخاص ، فاقصر نظرك عليـه واتخـذه أبـاً لـك ووزيـراً ، أخذ الله بيدك وشدّ به أزرك » .

وقد عمل الملك الغرناطي حبوس بهذه النصيحة ، وأحـلّ صموئيـل بـالقصر محلّ وزيره الراحل ، وصار ناموس الملك ومستشاره ، وهي الفرصة الأولى ، الـتي توصل فيها اليهود إلى الوزارة في الأندلس ، علماً أن بعض اليهـود قـد تمتـع علـى الأرجح بشيء من الاعتبار والحظوة لدى بعض حكام الأندلس العرب المسـلمين،

الذين كانوا يستعملونهم غالباً على وزارة المالية . ولكن التسامح العربي في الأندلس ، لم يبلغ إلى حد أن يتولى يهودي رئيس الوزراء ، وإذا جاز هذا الأمر في جهات أخرى ، فلم يكن ليجوز في غرناطة ، تلك المدينة التي كثر عدد اليهود المقيمين فيها . ولما كانت في أيديهم معظم الثروة ، فقد كانوا يتدخلون غالباً في شؤون الدولة .

ويصح أن يفسر سمو صموئيل إلى هذا المنصب بأسلوب آخر ، فإنه لم يكن من السهل على ملك غرناطة ، أن يعثر على من يقلده منصب الوزير الأول ، إذ من المحقق أنه لم يكن باستطاعته أن يسند هذا المنصب الخطير ، لا إلى رجل من المغاربة ، ولا إلى آخر من العرب من غير المغاربة ، لأنه لم يكن يثق باي من الطرفين ، ولم يبق أمامه سوى اليهود[٢١] .

وهكذا اتخذ من هذا الرجل وزيراً له . فعلى الرغم من أنه بقي على دينه، كان لاينحرف وهو يكتب لأساطين المسلمين عن أن يستعمل في رسائله ومكاتباته الصيغ والنصوص والعبارات الدينية المألوفة عند كتاب المسلمين . فلابدّ أن يكون هذا الرجل قد أحرز من البلاغة العربية كنزاً ثميناً ، كان ينفق منه كلما أراد الكتابة ، ولهذا لم يشعر الملك وقد رفعه إلى منصة رئاسة الوزراء بخجل، والعرب أنفسهم قد ارتاحوا إلى هذا الاختيار ووافقوا عليه ، أما لأنهم كانوا يشعرون أنه نتاج الثقافة العربية الواحدة ، أو أنهم أرادوا تأييد ارداة الحاكم على المستوى الظاهري على الأقل .

وقد استغل مكانته ، فقام يسهر على المصالح اليهودية ، ويعنى بالشبيبة اليهودية عناية أبوية ، ويتفقد فقراء الحال منهم ، ويمدهم بما يسد حاجتهم على كل صعيد ، وكان في خدمته كتاب ينسخون (المشنا والتلمود) فكان يوزع

نسخها جوائز على التلاميذ ، الذين لايستطيعون شراءها . ولم تكن مكارمه وخيراته واحساناته ، لتقتصر على أتباع دينه في اسبانية فحسب ، بل كانت تتعداهم إلى أمثالهم في افريقية وصقلية والمشرق . وقد أصبح اليهود في كل صقع وبلد ، يعتمدون عليه كمصدر للمعونات والرزق . لذلك فقد قام يهود غرناطة بمنحه لقب (ناغد) أي زعيم أو أمير يهود غرناطة(٢٢) .

وفي غرناطة أيضاً ، عُرف بعض الاداريين اليهود الآخرين . وكانت مناصبهم الادارية التي شغلوها من أهم المناصب لحساسيتها ودقتها وتأثيرها على الصعيد الاقتصادي . فقد استلم أبو الربيع اليهودي منصب الخازن في دولة غرناطة . والخازن كما هو معروف في ذلك العهد ، كان يقوم بوظيفة الاشراف على عدد من المهمات الكبيرة ، فقد كان مسؤولاً عن خزانة الأموال العامة ، من حيث جمعها وتوزيعها في شتى الوجوه والسبل ، كما كان مسؤولاً عن ادارة المستودعات العامة لمواد التموين المختلفة من غذاء وكساء ومرافق . وقد كان أبو الربيع اليهودي سالف الذكر مسؤولاً عن خزانة الأموال في دويلة غرناطة في عهد حاكمها باديس بن حبوس ، الذي اشتهر كأعظم حاكم أندلسي ومغربي اعتمد على اليهود في مجال الادارة العامة(٢٣) .

ولم تكن دويلة غرناطة وحدها ، التي اعتمدت على اليهود في الميدان الاداري ، كما لم يكن الغرناطيون وحدهم ، الذين انفردوا بايصال اليهود إلى مرتبة الوزارة ، بل حدث الشيء نفسه في بلاط بني هود بولاية سرقطة (الثغر الأعلى) في شمال شرق الأندلس . حيث وصل إلى وزارتهم اليهودي أبو الفضل بن حسداي ، الذي تحول من اليهودية إلى الاسلام ، وكان من مشاهير الأدباء في الأندلس(٢٤) . وفي عصر دول الطوائف أيضاً ، استخدم اليهود بكثرة لجمع

الضرائب والمكوس من العرب وأهل الذمة ، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً[٢٥] .

وقد استخدمهم الجانب الاسباني في المجال الاداري ، وبخاصة في الادارة المالية ففي سنة ٤٧٥هـ / ١٠٨٢م قام الفونسو السادس بإرسال وفد إلى حاكم اشبيلية المعتمد بن عباد ، يطالبه بدفع الجزية المترتبة عليه ، وكان رئيس هذا الوفد يدعى ابن شاليب اليهودي ، الذي رفض عيار الذهب المقدم كجزية إلى الفونسو، وهدد الاشبيليين بكل وقاحة وجرأة ، بأن الجزية ستؤخذ في العام القادم على هيئة أراضٍ ، مما أثار حنق وغضب المعتمد بن عباد ، الذي شعر بالذل والمهانة من خلال هذا التهديد ، الذي يعني في أبسط اشكاله ، أنه لاقيمة لحكمه ولا لشخصه ولا لوجوده ، فأمر بسجن الوفد وصلب ابن شاليب اليهودي منكساً[٢٦] ، وهذا يشير إلى حقيقة هامة ، تتجلى في أن اليهود في الأندلس في ذلك العصر ، كانوا يشعرون أنه لاقيمة للعرب ، بعد أن تفرقوا على هيئة دول مدن هزيلة ، ولن يكون بمقدورهم عمل شيء ، مهما كانت الأذية بالغة الضرر، الأمر الذي شجع ابن شاليب على القيام بتصرفه سابق الذكر . ويشير من ناحية أخرى إلى أن اليهود في الأندلس ، كانوا دوماً مع الجانب القوي والمنتصر . ويبدو أن الإسبان في عهد الطوائف ، حاولوا استقطاب اليهود في صراعهم ضد العرب في الأندلس ، فسمحوا لهم بإقامة اشياء لم يكن مسموحاً بها في العصور الماضية ، الأمر الذي كان يستهوي قلوب اليهود ، ويجعلهم يفضلونه ، من منطلق أن كفة الرجحان كانت تميل لصالح الاسبان . فقد قام الإسبان في مدينة طليطلة باعتماد صموئيل اللاوي وزيراً في بلاطهم خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي . وعلى عادة اليهود فقد استغل

منصبه هذا ، فبنى كنيساً لليهود على نفقته الخاصة . وأطلق عليه تسمية كنيس (الانتقال) وظل قائماً حتى قام كاثوليك إسبانية بطرد اليهود ، وحولوا هذا الكنيس إلى كنيسة باسم (سان بنيتو)(٢٧) .

وفي المغرب العربي وجد اليهود تشجيعاً قوياً من قبل الحكام ، حتى ماقبل نهاية القرن الخامس الهجري بسنين قليلة ، ذلك لأن عرب المغرب كانوا كأخوتهم في الأندلس خلال عهود القوة العربية الواحدة ، ولاسيما خلال عصر الامارة والخلافة الأموية ، كانوا يعاملون اليهود معاملة طيبة ، وذلك انطلاقاً من نظرتهم الانسانية الرائعة، هذه النظرة التي لاتفرق بين الناس ، طالما هم ملتزمون بمسيرة الحكم العامة .

ففي عصر الفاطميين في المغرب ، تمتع اليهود بحرية واسعة في ممارستهم لأعمالهم العادية والضرورية ، الأمر الذي مكنهم من شغل مناصب إدارية عالية في الدولة . نذكر على ذلك مثلاً يعقوب بن كلس اليهودي ، الذي دخل في خدمة المعتز الفاطمي سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م ، واعتمد عليه في أمور خطيرة جداً، منها أنه قام بتشجيعه على الهجوم على مصر(٢٨) .

وكان المعتز الفاطمي يعتمد اعتماداً كبيراً على آراء الحاخام اليهودي بلطيل ابن شفاطيا ، الذي كان يقوم بتقديم معلومات فلكية وتنجيمية للمعز ، حينما كانت قواته تحاصر منطقة أوريا ORIA في جنوب ايطالية ، فبشره بالخير بخصوص نجاح هذه القوات في أعمالها الحربية ، فاعتمده مستشاراً خاصاً به ، ووزيراً لمملكته في المغرب عند اقامته بمدينة القيروان ، وكذلك بعد انتقاله إلى مصر(٢٩) . وفي عصر دولة بني مرين في المغرب الأقصى ، اشتهر كثيرٌ من اليهود، الذين كانوا يعيشون في مدينة فاس. وقد تمكنوا من الوصول إلى البلاط المريني،

ولاسيما في فترة حكم يوسف المريني، فكانوا يرافقونه في حله وترحاله ويقومون بخدمته، وذلك منذ طفولته، وكانوا يتولون ادارة شؤون بيته، ويقضون أموره الخاصة به، ويجالسونه في خلواته وينادمونه في ساعات أنسه ولهوه. وبشكل عام فقد عظم شأن اليهود عند سلاطين بني مرين، فاستخدموهم في أعمال كثيرة، من أمثال خليفة بن وقاصة وأخوه ابراهيم، وصهره موسى بن السبتي، وابن عمه خليفة الأصفر وغيرهم. وقد استمروا على ذلك فترة من الزمن، إلى أن قام السلطان يوسف المريني سنة ٧٠١هـ / ١٣٠٢م بقتل هؤلاء جميعاً، ماعدا خليفة الأصفر، الذي قتله بعد مدة(٣٠).

ولما مات الخليفة يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، خلفه ابنه أبو الربيع سليمان ابن يوسف بن يعقوب، فرفع من شأن الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مرين. كما كان في أيام والده. وكان بنو وقاصة اليهود، يرون أن سبب نكبتهم أيام السلطان يوسف، كانت بسعاية أبي محمد بن أبي مرين، وكان خليفة الأصفر اليهودي منهم، وقد أفلت من الموت، وتمكن من استلام بعض أعمال السلطان أبي الربيع، بجعل محور عمله التآمر على أبي مرين والانتقام منه. فبلغ السلطان بأن أبا مرين قام بإنشاء بعض خصوصيات السلطان، ولاسيما موعد خلوته مع نساء حاشيته، فأمر بقتل أبي مرين. ولم تمض فترة وجيزة حتى اكتشف أمره، فجاء باليهودي خليفة بن وصافة الأصفر وحاشيته فقتلوا جميعاً(٣١).

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد عاد السلاطين المرينيون فيما بعد إلى استخدام اليهود في الادارة، وفي أماكن حساسة للغاية، كما فعل السلطان عبد الحق المريني، عندما قتل وزيره يحيى بن يحيى الوطاسي وحاشيته، وعين مكانه

رجلين من اليهود، قاما بمعاملة أهل فاس معاملة قاسية، مما أثار حفيظة أهلها على السلطان فقاموا بقتله سنة ٨٦٩هـ / ١٤٦٥م[٣٢] . وهكذا فإن اليهود، الذين عملوا في الميدان الإداري في المغرب والأندلس، لم يلتزموا بحدود الخطة التي رسمت لهم من قبل حكامهم، فراحوا يسعون لتحقيق مصالحهم ومصالح الجالية اليهودية في كل من المغرب والأندلس، وأدى بهم الأمر إلى التطاول على العرب من خلال قوة مناصبهم الادارية.

وشغل اليهود في الحياة السياسية في المغرب والأندلس دوراً هاماً للغاية ، الأمر الذي يجعلنا نقف عنده وقفة متأنية ودقيقة ، لأنه مؤشر ثابت في عمق الحياة اليهودية في كل زمان ومكان عاش فيها اليهود على الأرض .

قام العرب الفاتحون في الأندلس باستخدام اليهود في حاميات المدن، التي كان يفتحها الجيش العربي، حتى يتمكنوا من المحافظة على قوة الجيش كاملة. وكان اليهود يريدون من خلال وقوفهم في الصف العربي، نسف الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية، وكذلك الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية والممالك الفرنجية بأسرها، وبشكل خاص قهر الإسبان، والتخلص من الظلم الإسباني، الذي عكر صفو حياتهم العامة[٣٣] . ويؤكد هذه الحقيقة أيضاً لويس برتراند عضو الأكاديمية الفرنسية في كتابه (تاريخ اسبانية) بقوله : « إن موقف اليهود عبر القرون لم يتبدل، إنهم حلفاء الافريقيين ضد الإسبان وحلفاء الإسلام ضد المسيحين، وحلفاء المسيحين ضد المسلمين عندما تبدل نجمهم. إنهم يفرقون بين أعدائهم ليسيطروا عليهم[٣٤] . ولم يقتصر دورهم على التفريق بين العدو والصديق، بل قاموا بالتفريق بين الصديق وصديقه، وبين الأخ وأخيه، مثال ذلك، أنه كان عند عبد الرحمن بين حبيب والي افريقية رجل يهودي ، هو الذي

شجعه على طرد عبد الرحمن الداخل من المغرب، حينما أخبر عبد الرحمن بن حبيب، بأن الداخل ينوي اقامة دولة أموية في المغرب[٣٥] .

ويبدو أن اليهود منذ قديم الزمان، تعودوا على استخدام طريقة شائنة ومخزية في القضاء على الخصوم السياسيين، تتجلى في استخدام النساء كأداة للتنفيذ. ففي عصر الإمارة الأموية بالأندلس وخلال فترة حكم الأمير عبد الله بن محمد الأموي، اشتهر أمر الثائر سعيد بن جودي، الذي التجأ إلى عمر بن حفصون، زعيم الثائرين في هذه الفترة على الأمويين، وبقي عنده فترة من الزمن، و لم يتمكن الأمير الأموي من التخلص منه، إلا من خلال التآمر مع عيشقة له من اليهوديات، حيث قتل في دارها[٣٦] .

مع ذلك فقد اعتمد العرب على اليهود في مسائل بالغة الخطورة والحساسية. فقد اعتمدوا عليهم في تحضير وإعداد الأطعمة. فكان للمنصور محمد بن أبي عامر رجل من اليهود، لاعمل له سوى البحث عن توضع النحل في الكهوف والشعاب الجبلية في الأندلس، وذلك من أجل استخراج العسل الخاص، الذي يتألف كما هومعروف من رحيق الأزهار المتنوعة في بيئة الأندلس[٣٧] .

وفي عصر الإزدهار العربي في الأندلس، الذي صادف عصر الخلافة الأموية فيها، قام أشهر خليفة أندلسي، وهو عبد الرحمن الناصر لدين الله بإرسال سفير من اليهود، هو حسداي بن شبروط إلى جليقية لعقد صلح مع رذمير الثاني في سنة ٣٢٩هـ / ٩٤١م وإطلاق سراح محمد بن هاشم التجيبي ، القائد الذي أسر في وقعة الخندق سنة ٣٢٧هـ / ٩٣٩م . وقد نجحت السفارة في اطلاق سراح التجيبي وعاد مع السفير اليهودي حسداي بن شبروط[٣٨] .

واستخدم اليهود في مدينة قرطبة في بعض الأحداث السياسية، التي كان وقعها كبيراً في نفوس الأندلسيين، من ذلك استخدام أحد اليهود، الذي كانت فيه بعض نواحي شبه بشخص الخليفة هشام المؤيد الأموي، على أنه هو الخليفة، فقد أمر محمد بن هشام بن عبد الجبار، أن يشهد بعض من حضر وفاته من أصحابه، على أنه هشام المؤيد الأموي، وأحضر القاضي ابن ذكوان والفقهاء بمجموعة من عامة الناس، فصلوا عليه وقاموا بتقديم العزاء لاقربائه كما هي العادة[٣٩] .

وفي بعض بلاطات حكام الأندلس، اعتمد اليهود كمنجمين، يتوقعون ويستنبطون بطرق سحرية عجيبة، ماسيكون عليه الأمر في المستقبل. يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الحكام رأوا اليهود في أحلام نومهم، فاستبشروا ببعض الأمور المفجعة، كما جرى مع أحد أمراء المنصور محمد بن أبي عامر خلال الربع الأخير من القرن الرابع الهجري، حينما رأى في أحلام نومه يهودياً يمشي في أزقة مدينة الزاهرة[٤٠] ، وهو يحمل خرجه على عنقه وينادي بعبارة (خروبش) فسأل المفسر عن ذلك ، فأخبره باقتراب خراب الزاهرة[٤١] .

أما في عصر الطوائف بالأندلس، فقد كثرت فيه مشاكل اليهود، وأخذت شكلاً أكثر خطورة وتأثيراً في الحياة السياسية العامة، مستغلين بذلك حالة الإنقسام، التي وقعت في صفوف العرب في الأندلس، فراحوا يتدخلون في كل أمر يستطيعون من خلاله إثارة نار الفتنة والخلاف بين حكام دول الطوائف، وبينهم وبين بعض رجال إدارتهم. فعلى الرغم من الصداقة، التي بدأت بين المعتمد بن عباد، وبين الوزير ابن عمار في إشبيلية منذ أن كانا صغيرين، فقد تمكن الواشون من الوقيعة بينهما، وكانوا من اليهود الذين حصلوا على نسخة من

قصيدة لإبن عمار يهجو فيها المعتمد، وأرسلوها إلى حاضرة المعتمد، فتوترت الأموز بين الرجلين، حتى غدا الإصلاح بينهما ضرباً من المحال[٤٢] . وقام بعض اليهود بالتدخل في الصراع بين زعماء إشبيلية وزعماء طليطلة، حينما هاجم المعتمد بن عباد مدينة قرطبة سنة ٤٦١هـ / ١٠٦٩م ، وتمكن من السيطرة عليها، وجعل فيها ابنه سراج الدولة عباد بن محمد، ومعه القائد العسكري ابن مرتين. وفي سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م، هاجم حاكم طليطلة ابن ذي النون قرطبة بوساطة قائده حكم بن عكاشة الذين تمكن من الدخول إلى المدينة وقتل ابن عباد، وفر ابن عكاشة دون مقاومة، ولما وصل إلى القنطرة[٤٣] ، في مدينة قرطبة ، قتله رجل يهودي من سكان قرطبة[٤٤] .

ولما بدأت كفة الإسبان ترجح في الأندلس، تحول اليهود عن العرب، بعد أن وجدوا ذلك ضرورياً جداً لتحقيق مصالحهم العامة، وعملوا عند الإسبان في الكتابة والوزارة وشتى أنواع وفروع الخدمة العامة. وقد أشار إلى ذلك بوضوح حاكم قشتالة وليون قبل معركة الزلاقة بوقت قصير بقوله : « الجمعة لكم ، والسبت لليهود، وهم وزراؤنا وكتابنا، وأكثر خدم العسكر منهم، فلا غنى لنا عنهم ... »[٤٥] . وحينما كانوا يظفرون بالعرب، أو تسمح الفرصة لهم بالتحكم بهم، فإنهم كانوا يعاملونهم معاملة قاسية. فعلى سبيل المثال، تمكن الاسبان من السيطرة على بلنسية سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٢م، ووضعوا على رأس ادارتها رجلاً من اليهود. ذكر ابن علقمة في رواية له ينقلها ابن عذاري في كتابه (البيان المغرب) يقول : « ؟؟؟؟؟ اليهودي لعنه الله من المسلين مبلغ الغاية في العذاب، وسلط اليهود على الاسلام، فبلغوا النهاية في النكال والنكاية، ومنهم الأمناء الموكلون، والمتصرفون وأصحاب الرسوم، وخدام البر والبحر. وجلس

اليهودي للقبض بباب المدينة من الغرب بالعصا والسوط »[٤٦] .

أما في الفترة التي جاءت بعد انتهاء عصر الطوائف، والتي دامت حتى سنة ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م، فإن وضع اليهود في المغرب والأندلس تحول إلى شكل آخر غير الذي كان في العصور السابقة. فقد ضيق المرابطون على اليهود بحجة أنهم أقاموا بأعداد كبيرة في منطقتين، هما سجلماسة وأغمات الواقعتين في جنوب المغرب الأقصى كبوابتين لتجارة الذهب عبر الصحراء مع بلاد الأندلس وما يليها من البلدان الأوروبية الأخرى، ومع بلدان أفريقية السوداء. فقام يوسف بن تاشفين بممارسة ضغط كبير على اليهود في مراكش عاصمة المرابطين القريبة من أغمات. وكانت أشد وسائل الضغط، تلك التي تمثلت باجبارهم على اعتناق الاسلام بالقوة، لكنهم قاوموا ذلك بوسائل مختلفة، كمحاولتهم دفع مبالغ مالية طائلة في سبيل إعفائهم من أمر اعتناق الإسلام، وإعطائهم الحرية والخيار في هذه المسألة الحساسة في حياتهم[٤٧] .

وخلال دخول يوسف بن تاشفين إلى الأندلس في المرة الرابعة سنة ٤٩٥هـ / ١١٠٢م ، توجه إلى اليسانة، وكانت مركز التعامل الرئيس بالذهب، وبعد مفاوضات مع يهود هذه البلدة، توصل الفقيه ابن حمدين إلى اتفاق معهم، يدفعون بموجبه مبلغاً مالياً محترماً، مقابل أن تترك لهم الحرية بممارسة طقوسهم الدينية كاملة[٤٨] .

وفي عصر الموحدين، الذي استمر لفترة طويلة إلى حد ما[٤٩] ، بقي أمر عدم الاعتماد على اليهود قائماً، حتى أنه كان أشد مما كان عليه في عصر المرابطين، لأن الموحدين لم يختلفوا عن المرابطين في مسألة حشر العقيدة الدينية في قضايا الحكم. ففي زمن أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، فرض

على اليهود أن يرتدوا لباساً خاصاً يميزهم عن غيرهم. ويتكوّن هذا اللباس من قماش ذي لون كحلي، وأكمام مفرطة السعة، تصل إلى قريب من الأقدام، وبدلاً من العمائم، كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع، تبلغ إلى تحت الأذنين (٥٠) .

وكانت نتيجة هذه السياسة بشكل عام سلبية، لأنها أثارت حقد اليهود على العرب المسلمين. فقد كانوا يتحينون الفرصة للإنتقام، وقد أتيحت لهم فرصة في عصر الموحدين، كانت في غرناطة، حينما أعلن ابراهيم بن همشك عصيانه على الموحدين، لأنه كان يتطلع إلى السيطرة علىغرناطة. وفي نهاية الأمر لجأ إلى المكر والخديعة، وتوجه إلى اليهود، وعقد معهم مؤامرة، يقومون بموجبها بمساعدته على دخول غرناطة، والقاء الحصار على قلعتها، التي كان المدافعون من الموحدين قد تجمعوا فيها. وعلى أثر ذلك جرت معركة في مرج الرقاد بالقرب من غرناطة، انهزم فيها الموحدون وتكبدوا خسائر كبيرة في النفوس والأموال والسلاح. وكان ذلك سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م(٥١) .

ولما تقلصت رقعة السيطرة العربية في الأندلس، وانحصرت في ولاية غرناطة تحت حكم بني الأحمر أو بني نصر ، عادت المعاملة الطيبة إلى الظهور والتطبيق بشكل لم تعهده الأندلس إلا في زمن القوة، ولابد أن ذلك يعود إلى النضوج الذي اشتهر به النصريون على الصعيد السياسي والحضاري، فقد عدوا اليهود في بلادهم مواطنين، يمكن ضبطهم وتحويل أكثر أعمالهم إلى الصالح العربي العام(٥٢) ورغم هذه المعاملة الطيبة، التي عبّرت عن رقي العرب وأهليتهم لقيادة غيرهم، فقد راح اليهود يحشرون أنفسهم في الأمور السياسية العامة للدولة الغرناطية. فعندما توفي الحاكم الغرناطي الغني با لله بن الأحمر سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩١م،

خلفه في الحكم ابنه أبو الحجاج يوسف بن الأحمر، فقام بأمره رجل اسمه (خالد) مولى أبيه، وقبض على إخوته سعد ومحمد ونصر، فكان آخر العهد بهم، ولم يوقف لهم بعد على خبر. وبعد فترة وجيزة، سعي عنده في خالد هذا، واتهم على أنه يعد السم لقتله، ويبدو أن ذلك كان صحيحاً، لأن الطبيب يحي بن الصائغ اليهودي طبيب الدار السلطانية، قد داخله في ذلك، فقتل خالد، ثم حبس الطبيب ابن الصائغ، وذبح فيما بعد في محبسه حتى الموت[٥٣] .

وفي ميدان العلوم العامة أيضاً، شغل اليهود في الأندلس والمغرب مكانة خاصة، ذلك لأن الأندلس بخاصة، أزدانت بالمؤسسات التعليمية في كافة الاختصاصات، وكان باستطاعة أي انسان طلب المعرفة في الاختصاص الذي يتناسب مع ميوله الشخصية. فاليهود موضوع هذا البحث، لم يقدموا عبر تاريخ الإنسانية الطويل مساهمات مؤثرة في تقدم الحضارة العام، وأكثر مدوناتهم مأخوذة عن الثقافات القديمة وعن النصوص، التي خلفها السومريون والكنعانيون والأكاديون والبابليون والآشوريون وأخيراً الأندلسيون والمغاربة. ويؤكد ذلك الدكتور اليهودي اسرائيل ولفنسون بقوله : « إن يهود بلاد العرب ، لم يظهروا شيئاً من النبوغ والعبقرية مطلقاً. ولم يشتهر من بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقي الفكري »[٥٤] .

ويؤكد هذه الحقيقة غوستاف لوبون بقوله : « لم يكن لليهود فنون ولاعلوم ولاصناعة، ولا أي شيء تقوم به حضارة. واليهود لم يأتوا قط بأي مساعدة مهما صغرت في إشادة المعارف البشرية. واليهود لم يجاوزوا قط الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ[٥٥] .

وإذا كان اليهود قد برعوا في علم من العلوم خلال فترة هذا البحث، فالفضل في ذلك يعود إلى العرب، الذي انتقلوا بإسبانية من عهود الظلام إلى عهود النور والتقدم. وما أنتجوه من ثقافة وماترجموه من كتب إلى اللاتينية والعبرية، فقد حصل من جراء اهتمامهم بعلوم العرب، كمواطنين في دولتهم، كان عليهم اكتساب المعارف العربية لتحسين أوضاعهم العامة. وهذا ماحدث بالفعل على أرض الواقع، لأنهم كانوا أدرى من غيرهم في حقيقة هذه الأمور. وباختصار فإن المحصلة اليهودية العلمية، هي في النهاية محصلة عربية خالصة، ذلك لأن اليهود ماكان لهم أن يتعلموا علوم العرب لولا دخولهم إلى الأندلس وبقاؤهم فيها لفترة طويلة. كان في مقدمة العلوم التي برعوا فيها إلى حد ما، العلوم الطبية، التي عمت الأندلس عن طريق العرب، وكان اليهود يفضلونها على غيرها، لأنها أقرب مصدر لتوفير المال والجاه في زمن كان الأطباء فيه قليلين جداً. ومع ذلك فإن الأطباء اليهود، اقتصروا في معظم الأوقات على مسألة المداواة، بعكس الأطباء العرب، الذي جمعوا بين ممارسة الطبابة والمداواة، وبين التأليف المبدع القائم على التجربة وبعض التقانات، التي كانت من أرقى ماعرفه العالم خلال العصور الوسطى.

ومن الأطباء اليهود، الذين اشتهروا خلال هذه الفترة، الطبيب حسداي بن شبروط، الذي عاصر الخليفة الناصر لدين الله الأموي المتوفى سنة ٣٥٠هـ / ٩٦٢م. واهتم هذا الطبيب بشكل خاص بتفسير عقاقير يستوريدس[٥٦]. وكذلك الطبيب مروان بن جناح، الذي كان أفضل من ابن شبروط بصناعة الطب، ذلك لأنه قام بتأليف حسن في الأدوية المفردة[٥٧]. ومثلهما الطبيب اسحق بن قسطار في طليطلة ومناحيم بن الفوال في سرقطة[٥٨]. وحسداي بن

يوسف السرقطي، وابن بكلارش وغيرهم من الذين عملوا عند الإسبان، مثل ابراهيم بن الفخار، الذي اشتغل في طليطلة في عصر الموحدين، وابراهيم بن زرزر الغرناطي، الذي التجأ إلى حاكم قشتالة في أواخر عمره[٦٠] ويوسف بن وقار الطليطلي في قشتالة[٦١] .

إلى جانب علم الطب، فقد أثرت الثقافة العربية الاسلامية في ظهور بعض اليهود في ميدان علم الفلك والرياضيات. ففي الفلك، اشتهر بعض تلامذة مسلمة المجريطي، مثل أحمد بن عبد الله الغافقي اليهودي المتوفى سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م . وقد وضع زيجا مختصراً على مذهب السندهند سماه (مختصر الزيج) وكتب رسالة الإسطرلاب والأسماء الواقعة عليها[٦٢] .

أما في مجال الفلسفة، فقد تفوق اليهود فيه من خلال اهتمامهم الجاد بالفلسفة العربية، التي كان لها رجالها المعروفين بآرائهم الجدية وأفكارهم الواقعية، التي تعتمد على الطريقة العقلانية، والفكر المبني على التسلسل المنطقي، الذي يجانب في معظمه الغيبيات والأوهام، التي لاقيمة لها في حياة البشر العامة.

كان من فلاسفة اليهود في الأندلس، سليمان بن جابيرول المتوفى سنة ١٠٥٨م في بلنسية، وهو يشبه سلفه ابن مسرة، الذي أدخل إلى الغرب نظاماً باطنياً للكتابة، حيث تتخذ الكلمات معنى داخلياً غامضاً لايفهمه إلا العارفون بالأسرار. وله من الكتب (ينبوع) وكتاب (إصلاح الأخلاق)[٦٣] . ومنهم مناحيم بن الفوال، الذي تفوق على ابن جابيرول بوضع مؤلفات هامة منها (كنز المقل) رتبه على المسألة والجواب، وضمنه جملاً من قوانين المنطق وأصول الطبيعة[٦٤] . ومنهم أيضاً يوسف بن صديق ديان اليهود (قاضي اليهود) المتوفى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٩م، الذي ألف كتاباً في المنطق، وآخر في الفلسفة الدينية

سماه (الكون الأصغر)، وكلاهما باللغة العربية، وكان ابن صديق مطلعاً على كتابات أفلاطون وأرسطو ورسائل إخوان الصفا[٦٥] وبشكل عام فالفلسفة اليهودية في الأندلس، هي تلميذة الفلسفة العربية، ولاسيما فلسفة ابن رشد، التي كانت دعامة الفكر الفلسفي اليهودي حتى عصر النهضة[٦٦] .

يضاف إلى اهتمام اليهود في العلوم، اهتمامهم في الترجمة، التي بدأت في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي. كان في مقدمة من اهتم بالترجمة ابراهيم بن عزيز الطليطلي المتوفى سنة ١١٦٧م، الذي نقل كتباً ألفها اليهود باللغة العربية، ومنهم يهوذا بن شاول بن ثيون المتوفى سنة ١١٩٠م، الذي قام بنقل كتاب (إصلاح الأخلاق) لابن جابيرول وغيرهم كثيرون[٦٧] .

ومن اللافت للإنتباه في هذا المضمار، أن اليهود الذين عملوا في الترجمة، استهوتهم ترجمة أعمال العرب أنفسهم في مجال علوم اللغة العربية، التي كانت أداة الفكر في ذلك العصر .

أما في حقل التجارة، فقد كان الأمر يختلف اختلافاً جذرياً، حيث برز نشاط يهود الأندلس بشكل واضح. فقد كانت لهم في كل مدينة أو بلدة حوانيتهم الخاصة، التي كانت مصدر أرباح كبيرة بالنسبة لهم. لكن اللافت للانتباه، أنهم تفوقوا على جميع فئات السكان في الأندلس والمغرب في التجارة العامة، وبشكل خاص في تجارة العبيد، التي كانت من التجارات المزدهرة في ذلك الوقت في عدد من البلدان في الشرق والغرب، ومنها الأندلس التي شغلت مكانة مرموقة على هذا الصعيد. فقد كان العبيد الصقالية، الذين يشترون للخدمة العامة في الجيش والقصور وغير ذلك، يجلبون من يوغسلافية وبلغارية وصقلية وسردينية وغيرها، وكان اليهود هم الذين يقومون بهذه المهمة. وقد ذكر أنهم

كانوا يخصونهم في معامل خاصة أقيمت لهذه الغاية، كمعمل فـردون في فرنسـة، وغالباً ماكانوا يأتون بهم وهم صغار[٦٨] .

ولعل أهم الأدلة على ممارسة يهود الأندلس لهذه التجارة الرابحة، أنهم كانوا يذهبون إلى مواقع حدوث المعارك، وينتظرون بترقب نتـائج المعـارك بـين العرب والإسبان، حتى يشتروا أسرى الطرف المهزوم بأبخث الأثمان وأقلها، وبعـد ذلـك يقومون بعرض هؤلاء الأسرى على جهتهم الأصلية. وحينما كـانت هـذه الجهة تقرر شراء أسراها، كانوا يفرضون الثمن الذي يريدونه دون شفقة أو رحمة[٦٩] .

ووصل اليهـود في تجـارتهم إلى العديـد مـن المنـاطق الأوروبيـة، مثـال ذلـك التاجر الرحالة ابراهيم بن يعقوب الطرطوشي الإسرائيلي، الذي تركـزت أعمالـه في أوروبة علـى الرقيـق وبعـض البضـائع الأخـرى. فوصـل في تجارتـه إلى فرنسـة وألمانية وهولندة وبولندة وبلغارية وتشكيوسلوفاكية وغيرها[٧٠] .

و لم يتورع يهود الأندلس والمغرب عن استخدام أيـة وسيلة، كـانوا يـأملون من ورائها تحقيق منفعة ما أو ربح معين، لأن التجارب والأيام علمتنـا أن اليهـود لايأبهون إلا بمصالحهم الخاصة، حتى ولو أنها جاءت علـى حسـاب غـيرهم مـن فقراء الناس. من هذه الوسائل القبيحة، أنهم كانوا يرهنون الأسـرى مقـابل مبلـغ مالي معين إلى أمد معين، يجعلهم أحراراً في التصرف بالأسـرى، إذا لم يسـترجعوا المال المودع عند أصحاب الرهـائن. وكـانوا اضافـة إلى ذلـك، يقومـون بـإقراض أموال معينة إلى آجال محددة مقـابل فوائـد مختلفـة[٧١] . وتـدل علـى هـذا الواقـع المخزي الوثائق الكثيرة، التي لاتعد ولاتحصى في مدينة طليطلة وضواحيها، حيـث شكل اليهود مجموعة كبيرة من المرابـين النشيطين، فمـن يذهـب حتـى اليـوم إلى هناك، يقف على شواهد ماثلة، تدل بوضوح على ماكان لهم مـن أهميـة بالغـةفي

مجتمع طليطلة(٧٢) .

إضافة إلى كل ذلك، فقد كان اليهود في قشتالة وغيرها من أماكن السيطرة الإسبانية، ينعمون باحترام كبير، لخبرتهم المالية والتجارية، ويظهر ذلك جلياً من خلال استخدام الإسبان لهم في مسألة تخمين وتقدير أثمان وقيم الاراضي، التي كانت تعرض للبيع. فقد كانت تشكل لجنة تخمينية خبيرة من أربعة أشخاص، اثنين من الإسبان، واثنين من اليهود، يقومون بتقدير قيمة الأرض ويتقاضون على ذلك أجراً معيناً أو نسبة ما، لايعرف مقدارها على وجه التحديد(٧٣) . كما عملوا في بعض المجالات الصناعية الهامة في ذلك العصر وبخاصة صناعة الحرير، التي اشتهر فيها يهود البوجارا بشكل خاص(٧٤) .

وفي الختام نقول، إن كل ماتقدم من معلومات وأخبار عن حياة اليهود في المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى، لايشكل إلا جزءاً يسيراً من تلك الأعمال المتعددة، التي قاموا بها تحت المظلة العربية الإسلامية، التي وفرت لهم كل أسباب الحياة والحرية. ورغم ذلك فقد ضربوا بكل هذا عرض الحائط، فلم يتأخروا بانزال الضرر بالعرب، في كل مناسبة ساعدتهم فيها الظروف منذ بداية عهد العرب في الأندلس، مثال ذلك أن دخول العرب إلى شمال أفريقية، هو الذي جدد آمال اليهود في إستعادة مكانتهم المنهارة، عن طريق تحريض العرب للدخول إلى أوروبة، التي كانت مركز ثقل للمسيحية. وكان هدف اليهود الاستراتيجي من وراء ذلك، هو اطالة أمد الصراع بين المسيحية، التي كان اليهود يضمرون لها أقبح النيات، وبين الإسلام الذي أدى ظهوره وانتشاره في المشرق العربي إلى تقليص نفوذهم على كل الصعد، فيخرج الطرفان من النزاع منهوكي القوى، فينقض عليهما اليهود بسهولة، ويقررون مايرونه مناسباً لمستقبلهم العام .

هذه هـي صـورة اليهـود، الـتي لم تتغير طـوال حكـم العـرب في الأندلـس، ولانظن أنها ستتغير في مستقبل الأيـام. فقـد كـان اليهـود في الأندلـس والمغـرب وسيظلون إلى الأبد مجموعة بشرية، لاتعـرف الوفـاء والأمـان، ولاتلـتزم بـالعهود والمواثيق .

هذا مايجب أن ندرسه نحـن العـرب بعنايـة فائقـة، لأن أخطـر مايواجهنـا في الحاضر والمستقبل، أمر وجود اليهود قريبين منـا. فقـد تمكنـوا أن يستغلوا دولـة العرب القوية في الأندلس لصالحهم، في وقت كان العـرب سـادة العـالم، فكيـف سيكون الأمر في هذا الزمن، والعـرب يعـانون مـن داء التدابـر والضعـف في كـل الميادين .

الحواشي

١ - يوسف فرحات - **غرناطة في ظل بني الأحمر** طبعة أولى، دار الجيل ١٩٩٣ ص٩٧. **امبراطورية الخزر وميراثها** - صدر عن مكتب دراسات فتح ١٩٨٠ ص٢٢ وانظر روجر أرنالديز - **مجلة المغرب الاسلامي والمتوسط** ، العدد الأول، ١٩٧٣، ص٤١ .

٢ - عمر فروخ - **العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط** طبعة ثانية، بيروت دار الكتاب العربي، ١٩٨١ ص١٧٩ .

٣ - عمر فروخ - **المرجع السابق** ص٧٧ - ٧٨ .

٤ - آرنولدتوينبي - **مختصر دراسة للتاريخ** ج٣ ترجمة فؤاد محمد شبل طبعة القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعة أولى، ١٩٦٤ ص٣١٩ - ٣٢٠ .

٥ - عمر فروخ - **تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية** ، طبعة رابعة، بيروت دار العلم للملايين، ١٩٧٩ ص١٥٤ .

٦ - الحميري (محمد بن عبد المنعم) **الروض المعطار** تحقيق ليفي بروفنسال ، طبعة القاهرة، لجنة التأليف ١٩٣٧ ص٢٣ .

٧ - الإدريسي (محمد بن محمد) **صفة المغرب** . تحقيق دوزي ودي خويه - ليدن بريل ١٩٦٨ ص٢٠٥ .

٨ - مولف بجهول - **الحلل الموشية** ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، الدار البيضاء دار الرشاد الحديثة ١٩٧٩ ص٨٠ .

٩ ـ شكيب أرسلان ـ **الحلل السندسية** ج١ طبعة أولى، فاس المكتبة التجارية الكبرى ١٩٣٦ ص٣٩٥ ـ مؤلف مجهول ـ **الحلل الموشية في الأخبار الأندلسية** ص٥٧ .

١٠ ـ عمر فروخ ـ **العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط**، ص١٨٦ .

١١ ـ ليفي بروفنسال ـ **الإسلام في المغرب والاندلس** ـ ترجمة السيد سالم وصلاح حلمي، طبعة النهضة مصر ١٩٥٦ ص٦٤ ، ابن الفرضي (عبد الله بن محمد) **تاريخ علماء الأندلس** ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦، ج١ ص١٢٧ . وانظر أيضاً روجر أرنالديز ــ **مجلة المغرب الإسلامي والمتوسط** العدد الأول ١٩٧٣، ص٤١ ــ ٤٨ حيث اضاف أن لليهود وجود في باجة وقادس .

١٢ ـ د.م دنلوب ـ **تاريخ يهود الخزر** ـ ترجمة الدكتور سهيل زكار طبعة ثانية دمشق دار حسان ١٩٩٠ ص١٧٩ .

١٣ ـ علي أحمد ـ **تاريخ المغرب العربي الإسلامي** ، طبعة جامعة دمشق ١٩٩٢ ص٣٩ .

١٤ ـ ابن أبي زرع ـ **الأنيس المطرب بروض القرطاس** ، ص٨٥ .

١٥ ـ ابن حوقل (محمد الموصلي) **صورة الأرض** قسم ٢طبعة ثانية، ليدن ١٩٣٨ ص٧٠ ، وانظر أيضاً ج. ف. ب. هوبكنز ـ **النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى** ترجمة أمين توفيق الطيبي ـ طبعة ليبية وتونس الدار العربية للكتاب ١٩٨٠ ص٦٩ .

١٦ ـ **صاعد الأندلس طبقات الأمم** . تحقيق حياة بوعلوان طبعة بيروت ١٩٨٥ دار الطليعة ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ . آنخل جنثالث بالنثيا ـ **تاريخ الفكر الأندلسي** ، ص٤٩٨ .

١٧ ـ ابن بسام (الشنتريني) **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** ، قسم ١ مجلد٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٢ ص٢٦٦ ـ ٢٧ .

١٨ ـ ابن بسام ـ **المصدر السابق** ص٢٧٠ .

١٩ ـ الأمير عبد الله ـ **مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان** تحقيق ليفي بروفنسال، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٥ ص٤٨ ـ ٥٥ ، ابن بسام **المصدر السابق** ص٢٧١ ـ ٢٧٤ ، ابن عذاري (المراكشي) **البيان المغرب** ج٣ ، اعتنى بنشره ليفي بروفنسال طبعة باريس، ١٩٣٠ ص٢٣١ .

٢٠ ـ ابن الخطيب (لسان الدين) **الاحاطة في أخبار غرناطة** ، ج١ تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٥٥ ص٤٣٧ ، وانظر أيضاً للمؤلف نفسه **تاريخ اسبانية الاسلامية أو أعمال الأعلام** تحقيق ليفي بروفنسال، طبعة ٢بيروت ، دار المكشوف ١٩٥٦ ص٢٣٠ ـ ٢٣١ .

٢١ ـ ابن بسام ـ **الذخيرة** ج١ ص١٢٢ .

٢٢ ـ دوزي ـ **ملوك الطوائف** ـ ترجمة كامل الكيالي ، طبعة أولى القاهرة ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٩٣٣ ، ص٣٩ ـ ٤٧ .

٢٣ ـ الأمير عبد الله ـ **كتاب التبيان** ص١٣٠ .

٢٤ ـ ابن سعيد (علي) **المغرب في حلي المغرب** ج٢ تحقيق شوقي ضيف طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٥ ص٤٤١ ـ ٤٤٤ .

٢٥ ـ أحمد بدر ـ **تاريخ الأندلس** طبعة دمشق ص١٧٤ .

٢٦ ـ المقري (التلمساني) **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، ج١ تحقيق احسان عباس، طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٨ ص٤٣٩ ، مؤلف مجهول ـ **الحلل الموشية** ص٤١ ـ ٤٢ . وانظر ابن الخطيب **تاريخ اسبانية أو أعمال الاعلام** ص٢٤٤ ـ ٢٤٥ ودوزي **ملوك الطوائف** ص٢٦٧ ـ ٣٦٨، وقد طلب ابن شاليب اضافة لذلك السماح لزوجة الفونسو بالاقامة في مدينة الزهراء بعد أن تضع مولودها في جامع قرطبة .

٢٧ ـ شكيب أرسلان، **المرجع السابق** ج١ ص٤٢٠ و٤٢١ و٤٣٤ ، وانظر الأمير عبد الله **كتاب التبيان** ص٣٦ ومابعدها .

٢٨ ـ ولتر ج. فيشل ـ **يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الاسلامية في العصور الوسطى** ، ترجمة سهيل زكار، طبعة بيروت دار الفكر ١٩٨٨ ص٧٨-٧٩ .

٢٩ ـ ولتر .ج. فيشل ـ **المرجع السابق** ص٩٤ ـ ٩٥ .

٣٠ ـ الناصري ـ **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى** ج٣ تحقيق جعفر ومحمد الناصري، طبعة الدار البيضاء دار الكتب ١٩٥٤ ص٨٠ ـ ٨١ .

٣١ ـ الناصري ـ **المصدر السابق** ج٣ ص١٠٠ .

٣٢ ـ الناصري ـ **المصدر السابق** ج٤ طبعة الدار البيضاء دار الكتاب ١٩٥٤ ص٩٨ ـ ١٠٠ .

٣٣ ـ خير الله طلفاق ـ **حضارة العرب في الأندلس** ، طبعة دار الحرية بغداد ١٩٧٧ ، ص٨٨ و١٠٨ ـ ١٠٩ .

٣٤ ـ خير الله طلفاق ـ **المرجع السابق** ص١٣٤ .

٣٥ ـ الناصري ـ **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى** ج١ ص١١٩ .

٣٦ - ابن عذاري - (المراكشي) **البيان المغرب** ج٢ طبعة بيروت دار صادر ١٩٥٠ ، ص٢٠٣ - ٢٠٤ .

٣٧ - ابن بسام - **المصدر السابق** ص٦٨ .

٣٨ - ابن حيان (أبو مروان) **المقتبس في تاريخ رجال الأندلس** ، ص٤٦٣ .

٣٩ - ابن عذاري - **المصدر السابق** ج٣ ص٧٧ - ٧٨ ابن الخطيب - **تاريخ اسبانية الاسلامية أو أعمال الاعلام** ص١١٢ .

٤٠ - تقع هذه المدينة على بعد ستة كيلومترات إلى الشرق من قرطبة ، بناها المنصور محمد بن أبي عامر تعبيراً عن مساواته للخلفاء ، ورغبة منه في إقامة مقر خاص له ، يكون مركزاً لادارته ، ومخازنه السلطانية .

٤١ - ابن عذاري - **المصدر السابق** ج٣ ص٦٥ .

٤٢ - دوزي - **المرجع السابق** ص٢٥٥ ومابعدها .

٤٣ - القنطرة عند الأندلسيين هي الجسر ، وقد أقيمت هذه القنطرة على الوادي الكبير في عصر الولاة .

٤٤ - ابن الخطيب - **تاريخ اسبانية الاسلامية أو أعمال الاعلام** ص١٥٨ - ١٥٩.

٤٥ - دوزي - **المرجع السابق** ص٢٩١ .

٤٦ - ابن عذاري - **المصدر السابق** ج٤ ص٤١ .

٤٧ - الحميري (محمد بن عبد المنعم) **الروض المعطار في خبر الأقطار** تحقيق احسان عباس طبعة بيروت ١٩٧٥ ص٤٦ و٣٠٦ - أشباخ (يوسف) **تاريخ الأندلس** ترجمة محمد عبد الله عنان طبعة القاهرة ١٩٣٩ ص١٢٠ .

٤٨ - مؤلف مجهول - **الحلل الموشية** ص٦٥ - ٦٦ .

٤٩ ـ استمر حكم الموحدين في المغرب والأندلس حتى سنة ٦٦٨هـ .

٥٠ ـ المراكشي (عبد الواحد) **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي طبعة أولى ــ القاهرة ١٩٤٩ ص٣٠٤ ــ ٣٠٥ .

٥١ ـ ابن صاحب الصلاة (عبد الملك) **المن بالاقامة** تحقيق عبد الهادي التازي طبعة أولى دار الأندلس بيروت ١٩٦٤ ، ص١٨٦ ومابعدها .

٥٢ ـ شكيب أرسلان ـ **المرجع السابق** ج٢ ص٣٣٠ .

٥٣ ـ الناصري ـ **المصدر السابق** ج٤ ص٨١ .

٥٤ ـ أحمد سوسة ـ **العرب واليهود في التاريخ** طبعة دمشق ١٩٧٥ ص٣٩٦ .

٥٥ ـ أحمد سوسة ـ **المرجع السابق** ص٣٩٧ .

٥٦ ـ ابن جلجل (سليمان بن حسان) **طبقات الأطباء والحكماء** تحقيق فؤاد سيد طبعة المعهد الفرنسي القاهرة ١٩٥٥ ص(س) ـ جورج حداد ـ **المدخل إلى تاريخ الحضارة** ص٥٢٦ .

٥٧ ـ صاعد الأندلسي ـ **المصدر السابق** ص٢٠٤ .

٥٨ ـ صاعد الأندلسي ـ **المصدر السابق** ص٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

٥٩ ـ صاعد الأندلسي ـ **المصدر السابق** ص٢٠٦ .

٦٠ ـ علي بن سعيد ـ **المصدر السابق** ص٢٣ ابن الخطيب ــ **نفاضة الجراب** تحقيق أحمد مختار العبادي وعبد العزيز الأهواني ، طبعة القاهرة دار الكتاب العربي ص١٩ .

٦١ ـ ابن الخطيب ـ **تاريخ اسبانية الإسلامية أو أعمال الاعلام** ص٣٢٢ .

٦٢ - **موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين** طبعة مؤسسة المعارف بيروت ص١٢٣ .

٦٣ - جورج **حداد المدخل إلى تاريخ الحضارة** ص٥٢٦ - ٥٢٧ .

٦٤ - صاعد الأندلسي - **المصدر السابق** ص٢٠٤ .

٦٥ - آنخل جنثالث بالنثيا - **المرجع السابق** ص٤٩٨ .

٦٦ - ابراهيم مذكور - **في الفلسفة** - بحث منشور في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية طبعة الهيئة المصري العامة للكتاب ١٩٨٧ ص١٥٥ .

٦٧ - عمر فروخ - **أثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الأوروبية** طبعة بيروت ١٩٥٢ ص٢٢ و ٣٢ .

٦٨ - المقري **نفح الطيب** ج٢ ص١٤٠ - ابن حوقل - **صورة الأرض** ط٢ ليدن ١٩٣٨ ص١١٠ - شكيب أرسلان **المرجع السابق** ج١ ص٤٦ .

٦٩ - شكيب أرسلان **المرجع السابق** ج٣ طبعة فاس المكتبة التجارية الكبرى ١٩٣٩ ص٤٨١ - ٤٨٢ .

٧٠ - **موسوعة العلوم الاسلامية والعلماء المسلمين** ص١٨٤ .

٧١ - شكيب أرسلان - **المرجع السابق** ج١ ص٤٠٥ - ٤٠٦ .

٧٢ - شكيب أرسلان - **المرجع السابق** ج١ ص٤٢٠ - ٤٢١ .

٧٣ - أشباخ - **المرجع السابق** ج١ ص١٣٥ .

٧٤ - انظر عن ذلك روجر **أرنالديز المرجع السابق** ص٤١ - ٤٨ .

المدرسة المملوكية في قلعة الكرك

د. وائل الرشدان

أستاذ مساعد

جامعة اليرموك / قسم الفنون الجميلة

المدرسة المملوكية في قلعة الكرك

تقوم قلعة الكرك في الجنوب الغربي للمملكة الأردنية الهاشمية ، وتبعد عن عمان حوالي ١٣٠ كم . بنيت القلعة على جبل يبلغ ارتفاعه ٩٦٠م عن سطح البحر ، وتحيط بها الأودية من ثلاث جهات : الشرقية ، والغربية ، والشمالية . أما الجهة الجنوبية فقد حفر فيها خندق كبير[١] (شكل ١) ، وكان لهذه القلعة تاريخ مجيد ابتداء من الفترتين المؤابية والنبطية ، حيث أقيم فيها العديد من المعابد، كما تم العثور على بعض النقوش والتماثيل النبطية[٢] . أما في العصر البيزنطي فنرى هذه (القلعة) ممثلة في خارطة مأدبا الموجودة في كنيسة القديس جورج[٣]. وعند الفتح الإسلامي للمنطقة استسلمت القلعة للقائد أبي عبيدة عامر بن الجراح[٤] . وبعد ذلك ، بقيت القلعة تلعب دوراً مهماً في مختلف العصور الاسلامية حتى الاحتلال الصليبي للقلعة في عام ٥٣٧هـ ـ ١١٤٢م . فأضيف العديد من الإضافات ، وأصبحت هذه القلعة من أهم القلاع الصليبية في بلاد الشام ، وذلك لتحكمها مع قلعة الشوبك بطرق المواصلات التي تربط بلاد الشام والعراق بمصر ، وكذلك أيضاً لأهمية موقعها لدرب الحج الشامي والمصري . وقد كانت تستخدم مركزاً للمراقبة وجمع المعلومات عن تحركات الجيوش الإسلامية في فترة الاحتلال الصليبي لهذه القلعة[٥] . وفي عام ٥٨٤هـ ـ ١١٨٨م استسلمت حامية القلعة للقائد صلاح الدين الأيوبي ، وبذلك اصبحت جزءاً من الدولة الأيوبية[٦] . وقد قام صلاح الدين بإقطاع الكرك لأخيه الملك العادل الذي شرع بإعادة بنائها ، ونقل إليها أرباب الصناعات حتى جعلها لاتحتاج إلى غيرها[٧] . وفي عام ٦٦١ هـ ـ ١٢٦٢م قام الظاهر بيبرس

باحتلال القلعة ، وأسر الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل ، وبذلك تم القضاء على الحكم الأيوبي فيها[8] . وبدخول الظاهر بيبرس إليها أصبحت القلعة تحت حكم المماليك وسيطرتهم . ثم دخل القلعة وأمر بتحصينها وزاد فيها العديد من الابراج[9] . وبقيت القلعة تحتل مركزاً مهماً في العصرين المملوكيين البحري والبرجي حتى سقطت المدينة والقلعة في سنة ٩٠٢هـ ــ ١٥١٠م تحت حكم الأتراك العثمانيين ، وبقيت تحت حكمهم حتى الحرب العالمية الأولى ، حيث استخدمت مقراً لحامية قوات الحلفاء[10] (لوحة ١) .

وصف القلعة :

بناء ذو شكل مستطيل يبلغ طوله ٢٢٠م من الجهة الشرقية ، و٢٤٠م من الجهة الغربية. أما الواجهة الجنوبية فيبلغ طولها ٨٥م والشمالية التي يقع بها المدخل الرئيسي فطولها ٣٥م . وبناء القلعة متين جداً ، وذلك بسبب الأبراج الدفاعية التي بنيت في أركانها ، وكذلك لتغطية المنحدرات بالحجارة الملساء لعرقلة ارتقاء الأسوار والأبراج[11] .

بنيت القلعة على مستويين ، علوي وسفلي ، فالعلوي يقع إلى الجهة الشرقية والسفلي يتجه من الشمال إلى الجنوب ، حيث يوجد في الجزء السفلي العديد من القاعات والغرف[12] . أما المستوى العلوي فيحتوي على العديد من المنشآت أهمها : المعصرة ، ومسكن سيد الكرك ، والكنيسة ، والحمام ، وسجن الخيالة ، والمسجد ، والمدرسة ، والعديد من القاعات ذات الأدوار المتعددة (الطوابق) . وتميز المظهر العام للقلعة باختلاف ألوان المواد المستخدمة في بناء القلعة ، حيث تنقسم إلى نوعين : الأول منها مبني من الحجارة الغشيمة غير المشذبة ومخلوطة

من الحجارة الجيرية والصوانية . هذا النوع نجده في بناء المباني التي بنيت في عصر الاحتلال الصليبي للقلعة . أما النوع الثاني فهو استخدام الحجارة الجيرية المشذبة، وهذا النوع يبدو أكثر شيوعاً من حيث صفوف البناء أو ترتيب مداميك الحجارة، وهو مانلاحظه بكثرة في القلعة سواء من الداخل أو في الأبراج التي هدمت أو أعيد بناؤها ، أو التي بنيت في العصور الإسلامية المختلفة . أما الذي يهمنا من هذه المنشآت فهي المدرسة ، والتي تقع إلى الجنوب من الكنيسة وإلى الشمال من البرج الكبير للظاهر بيبرس (لوحة ٢: شكل ١) .

وصف المدرسة :

يقع المدخل في الجهة الشمالية ، وينزل إليها بدرج يتكون من ست عشرة درجة تنتهي بباب عرضه ١،٢م وارتفاعه ٢،١ تعلوه عتبة (شكل ٢) . ويحتمل أنه كانت توجد اللوحة التأسيسية لهذه المدرسة حيث لايزال مكانها واضحاً . يؤدي هذا الباب إلى موزع طوله ٩،٩م وعرضه ١،٤م ، وفي الجدار الشرقي لهذا الموزع بابان ، الشمالي يؤدي إلى غرفتين مفتوحتين على بعضهما بعضاً مساحتهما ١١ × ٣،٥م . وفي الجدار الجنوبي للغرفتين باب يؤدي إلى موزع آخر يؤدي إلى صحن المدرسة (شكل ٣) ، وهذا صحن مربع الشكل طول ضلعه ٥،٥م مكشوف تحيط به أربعة إيوانات أوسعها الايوانان الجنوبي والشمالي (شكل ٤) . أما الإيوانان الشرقي والغربي منها ، فأقل اتساعاً ، وهما متساويان في المساحة ٢،٢٠م٢ (شكل ٥ ، ٦) . ونجد على جانبي هذين الإيوانين أبواباً تؤدي إلى ملاحق أخرى ، وأهمها الباب المؤدي إلى الغرفة رقم (٨) ومساحتها ٧،٩ × ٤،٩م وهي غرفة مستطيلة الشكل في جدارها الجنوبي

أحد المزاغل التي عدلت لتحول إلى محراب مجوف . ونرى ذلك جلياً في طاقية المحراب ، ويبلغ عرض المحراب ١،٠١م وعمقه ١،٠٦م (شكل ٧) .

نلاحظ في الإيوانين الرئيسيين الجنوبي (إيوان القبلة) والشمالي (الإيوان المقابل لإيوان القبلة) أن بهما امتداداً في جانبين ، وخاصة في الإيوان الجنوبي حيث نجد أن هذا الامتداد إلى الجانبين الشرقي والغربي . أما الإيوان الشمالي فنجد أن له امتداداً إلى جهة الشرق فقط (لوحة ٣) .

ويختلف الباحثون والدارسون في هذا المبنى الموجود في قلعة الكرك ، فذهب بعض منهم إلى أنه مدرسة تعود إلى العصر الأيوبي والبعض الآخر يقول إنه دور سكنية ، أو إنه قاعة استقبال في قصر ، وذلك من خلال تفسير نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في المبنى[١٣] .

والغرض من هذا البحث توضيح الصورة ، وإيجاد تفسير واضح لوظيفة هذا المبنى بالاعتماد على الدراسات المقارنة لهذا المبنى مع المباني المشابهة له والمؤرخة والمعروفة ، والتي تعود إلى نفس الفترة التاريخية ، وذلك اعتماداً على المميزات المعمارية للبناء ، وكذلك نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في هذا المبنى ، والمصادر التاريخية التي تتحدث عن قلعة الكرك في تلك الفترة . نجد أن العديد من الباحثين يطلقون على هذا المبنى تارة اسم قصر وتارة أخرى يعدونه دوراً سكنية أو مدرسة تعود إلى العصر الأيوبي[١٤] . ولهذا ، وجدت أنه من الضروري توضيح ماهية هذا البناء .

ومن خلال الوصف المعماري لهذا البناء نجد أنه مدرسة تتمتع بمميزات المدارس المملوكية التي تتكون من صحن أوسط تحيط به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة والإيوان المقابل لإيوان القبلة ، وإيوانان أصغر حجماً من الإيوانين

السابقين[١٥] . وأول هذه الأمثلة للمدارس ذات الأربعة إيوانات ، والتي تعود للعصر المملوكي البحري هي مدرسة السلطان المنصور قلاوون ، والتي تعود إلى سنة ٦٨٤هـ - ١٢٨٥م بالنحاسين[١٦] ، ويتبعها بعد ذلك العديد من المدارس، ومن أهمها مدرسة الناصر محمد ٦٩٥هـ - ٧٠٣هـ - ١٢٩٥ - ١٣٠٤م ، ومدرسة صلوغتمش ٧٥٧هـ - ١٣٥٦م بالحفزي ، ومدرسة السلطان حسن ٧٥٧هـ - ٧٦٤هـ - ١٣٥٦ - ١٣٦٢م بالقاهرة في ميدان صلاح الدين ، مدرسة أم السلطان شعبان ٧٧٠هـ - ١٣٦٩م بالتبانة ، مدرسة الجاي اليوسيفي ٧٧٤هـ - ١٣٧٣م بسوق السلاح[١٧] . وقد استمر نظام المدارس ذات الإيوانات المتعامدة على الصحن الأوسط خلال العصر المملوكي الجركسي (البرجي) أيضاً ، وإن كان المعمار بدأ بإجراء بعض التعديلات في المدرسة ، فأصبحت المدراس في هذه الفترة صغيرة الحجم نسبياً مقارنة بالمدارس التي سبقتها، حيث عمل المعمار في هذه الفترة على تصغير حجم الصحن الأوسط فأصبح بالإمكان تغطيته بسقف خشبي مسطح تتوسطه شخشيخة . وفي هذه المرحلة اختفت الفسقية أو الميضاءة التي كانت تتوسطه[١٨] . كذلك استدعى هذا التصغير لتلك المنشآت أن عمد المعمار إلى تصغير الإيوانين الجانبيين، مما أدى إلى تغيير اسمائهما ، فأطلق على الإيوانين الجانبين لفظ سدلتين أو مرتبتين ، وإن كانت اللفظة الأولى أكثر انتشاراً من الثانية . كما أطلق على الصحن بعد هذا التطور لفظ دور قاعة، وبعد هذا التطور الذي رافقه هذا النظام للمدارس المتعامدة خلال العصر المملوكي البرجي . وأصبح هذا النوع من المدارس يعرف باسم المدارس المتعامدة كما يطلق على هذا النوع من المدارس اسم المدارس المتطورة . ومن أهم العناصر المعمارية لهذا النظام :

١ ـ دور قاعة وسطي ـ (صحن) .

٢ ـ الإيوان الجنوبي (القبلة) .

٣ ـ الإيوان الشمالي (المقابل لإيوان القبلة) .

٤ ـ سدلة في الجهة الشرقية من الصحن .

٥ ـ سدلة في الجهة الغربية للصحن[١٩] .

ومن أشهر المدارس التي اتبعت نظام المدارس المتطورة في العصر المملوكي الجركسي (البرجي) هي مدرسة الأشرف قايتباي ٨٧٧ ـ ٨٧٩هـ ـ ١٤٧٢ ـ ١٤٧٤م بالصحراء ومدرسته أيضاً في قلعة الكبش ٨٨٠هـ ـ ١٤٧٥م ، ومدرسة الأمير أزبك اليوسفي ٩٠٠هـ ـ ١٤٩٤ ـ ٤٩٥م ، ومدرسة الغوري ٩٠٩ : ٩١٠هـ ـ ١٥٠٤ : ٥٠٥م بالغورية ، وهناك العديد من المدارس التي تتبع هذا النظام[٢٠] .

وعند مقارنة هذه المدارس بالمبنى الموجود في قلعة الكرك ، نجد أنها تقع ضمن هذه المجموعة من المدارس ، وذلك لأسباب معمارية ، وأثرية ، وتاريخية :

١ ـ الأسباب المعمارية :

لهذا المبنى خصائص المدارس المملوكية ، وذلك لتوفر العديد من العناصر المعمارية التي تدخل هذا المبنى ضمن هذه المدارس ، وأهمها :

أ ـ صحن مكشوف مربع الشكل تحيط به أربعة إيوانات متعامدة عليه، ويمكن الاستنتاج أن هذا الصحن مكشوف ، وذلك لعدم وجود أية منافذ لهذا المبنى إلى الخارج ، وإذا غطي هذا الصحن بشخشيخة أو أية تغطيات أخرى فإنه سيكون مظلماً من الداخل ، فلذلك أرجح بأن الصحن قد بقي مكشوفاً وذلك لعدم وجود أية آثار معمارية تدل على غير ذلك حالياً، وكذلك عدم وجود

فسقية أوميضاءة داخل هذا الصحن .

ب ـ الايوانان الجنوبي والشمالي أكبر حجماً من الإيوانيين الجانبيين وبهما امتداد إلى الجانبين . الإيوان الشمالي الذي يمتد نحو الشرق وذلك لوجود موزع للغرف الخلفية لهذا الإيوان، وهو يعتبر المدخل لهذه الغرف . وهذه ميزة من ميزات العمارة المملوكية البرجية ، حيث نجد أنهم قد عملوا على تصغير حجم الصحن وتغطيته في بعض الأحيان ، وقاموا بإدخال تعديلات معمارية انعكست على الإيوان الشمالي الذي يمتد نحو الشرق، وذلك لوجود موزع للغرف الخلفية لهذا الإيوان وهو يعتبر المدخل لهذه الغرف . وهذه ميزة من مميزات العمارة المملوكية البرجية ، حيث نجد أنهم قد عملوا على تصغير حجم الصحن وتغطيته في بعض الأحيان ، وقاموا بإدخال تعديلات معمارية انعكست على مساحة الإيوانات المطلة على الصحن . ولكن نلاحظ هنا أن المعمار عمل على توسيع الإيوان القبلي والإيوان المقابل له فقط بالامتداد بهما في الجانبين بشكل لايتضح من الصحن ، ولايحس بذلك اتساعهما الحقيقي مثلما كان عليه الحال في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري[٢١] . ولم يستطع المعمار تكرار هذا في الإيوانين الجانبيين وذلك لوجود العديد من العناصر المعمارية الأخرى تشارك هذين الإيوانين ، فلم يستطع أن يعطيهما الاتساع الجانبي المطلوب فاستقر وضعهما ، وانتهى بصغر مساحتهما أيضاً . حيث نجد أنه كان يوجد على جانبي كل من الإيوانين بابان يؤديان إلى ملاحق أخرى . وهنا نجد أن تسمية هذين الإيوانين قد تغيرت ، وأصبحا يعرفان باسم السدلتين أو المرتبتين[٢٢] .

جـ ـ كذلك نجد أن الجدار الجنوبي للإيوان الجنوبي بني في اتجاه القبلة ، وهو مواز لحنية المحراب الموجودة في المسجد . وبهذا استعيض عن حنية المحراب

التي كنا نشاهدها في إيوان القبلة في المدارس المملوكية في القاهرة بالجدار الجنوبي للإيوان الجنوبي ، وذلك لإن هذا المبنى منشأ في قلعة وداخل مكان محصور نسبياً بالمقارنة بالمدارس المملوكية في مصر . واستخدمت هذه الإيوانات كأماكن لإقامة الصلاة ، وهذا أيضاً من مميزات العمارة المملوكية إذ أن معظم الجدران للمدارس تتجه نحو القبلة وذلك لإقامة الصلاة فيها أيضاً(٢٣) .

د ـ وجود العديد من الغرف المحيطة بالإيوان الشمالي والإيوان الجنوبي ، وهي غرف متصلة ببعضها بعضاً . وربما كانت تستخدم لإيواء القائمين على هذا المبنى . وإذا كانت مدرسة فإنها تكون مخصصة للجنود وأهالي المنطقة، فإذن أماكن إقامتهم متوفرة أصلاً وليس من الضروري إيجاد أماكن لإيوائهم، بل يعتقد أنها كانت مخصصة للقائمين على هذا المبنى(٢٤) .

٢ ـ الأسباب الأثرية :

قامت الباحثة براون BROWN بعمل مجسات ومقاطع أثرية في هذا البناء وخاصة في الإيوان الجنوبي للبناء وذلك بقطاع رأسي باتساع متر واحد طولياً. وكانت نتيجة هذه الحفريات أن أرضية البناء تتكون من سويتين ، الأولى تعود إلى العصر العثماني ، أما السوية الثانية فيرجح أنها تعود إلى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وربما تعود إلى مابعد القرن الرابع عشر . وهذا دليل آخر على أن هذه السوية تعود إلى آواخر القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر أي أنها تعود إلى العصر المملوكي(٢٥) .

٣ ـ الأسباب التاريخية :

يورد المؤرخ المعروف ابن حجر العسقلاني في كتابه (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) بأن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بنى مدرسة في

الكرك وعهد بذلك إلى الأمير سنجر بن عبد الله الجادلي (ت ٧٤٥هـ) ، وسميت هذه المدرسة باسم المدرسة الشافعية[٢٦] .

وعند استعراض الأسباب المعمارية ، والأثرية ، والتاريخية نستدل على أن هذا البناء ماهو إلا مدرسة بنيت على نظام المدارس المتعامدة على صحن أوسط، وهي تشبه إلى حد كبير المدارس المملوكية في تصميمها المعماري ، كما هو واضح في الوصف العام للبناء ، حيث يمكن عقد مقارنة فيما بين هذا البناء والمدارس التي بنيت في العصر المملوكي ومنها :

١ ـ مدرسة صرغتمش ـ سيف الدين صرغتمش الناصري من مماليك الناصر محمد بن قلاوون . بنيت في عام ٧٥٧هـ ـ ١٣٥٦م ، وهي مدرسة مقامة على نظام المدارس المملوكية البحرية (نظام الإيوانات المتعامدة) على صحن أوسط . وهناك قبة لمدفن المنشىء[٢٧] .

٢ ـ مدرسة الجاي اليوسيفي (الأمير الجاي بن عبد الله اليوسيفي سيف الدين) بنيت عام (٧٦٧ : ٧٧٤هـ ـ ١٣٦٦ : ١٣٧٣م) تتبع نفس النظام[٢٨].

٣ ـ مدرسة أم السلطان شعبة (خوند بركة أم السلطان شعبان) بنيت في عام ٧٧٠هـ ـ ١٣٦٩م . وهي تتبع نفس النظام السابق[٢٩] .

٤ ـ مدرسة وخانقاه السلطان الظاهر برقوق بنيت في عام ٧٨٨هـ ـ ١٣٨٦م . وهي تتبع نفس النظام السابق[٣٠] (لوحة ٦) .

٥ ـ مسجد جاني بك الأشرفي بشارع المغربلين بنيت في عام ٨٣٠هـ ـ ١٤٢٧ وهذا المسجد يتبع نظام المدارس ذات الإيوانات المتعامدة على صحن أوسط . وهنا نجد أن هذا النظام استخدم أيضاً في هذه الفترة كمسجد

(لوحة) [٣١] .

٦ - مدرسة قايتباي بالقرافة الشرقية بنيت في عام ٨٧٩هـ - ١٤٧٤م . وتحتوي هذه المدرسة على العديد من المرافق ، من أهمها مدرسة ، ومدفن ،وسبل ، وكتاب[٣٢] (لوحة ٧) .

٧ - مدرسة بمجمع مترقماس بقرافة الخفير ، وتتكون من أربعة إيوانات متعامدة على صحن أوسط (لوحة ٨)[٣٣] .

ومن خلال دراسة مخططات المبنى نجد أنها تتبع نفس التصميم المعماري لنظام المدارس المتعامدة على صحن أوسط ، وأن إيوانيها الجنوبي والشمالي أوسع من الإيوانين الجانبيين كما أوردنا سالفاً في مميزات عمارة المدارس المملوكية .

الخلاصة :

من خلال المعطيات المعمارية ، والأثرية ، والتاريخية نخلص إلى أن هذا المبنى يمتاز بنفس الخصائص المعمارية التي اعتمدها علماء الآثار الإسلامية في تصنيف المدارس التي تعود للفترة المملوكية من حيث احتوائها على الصحن الأوسط والإيوانات الأربعة المتعامدة على الصحن . ولقد أثبتت نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في المبنى بأنه يعود إلى الفترة المملوكية ، مع العلم بأن نتائج الحفريات الأثرية تعتبر من أهم الدلائل التي تثبت أن الفترة الزمنية التي تعود إليها هذه الأبنية هي الفترة المملوكية وذلك من خلال مطابقة البقايا المعمارية واللقى الأثرية ، مثل الفخار وغيرها ، والتي وجدت في أماكن أخرى . وإذا أخذنا بعين الاعتبار ماورد ذكره في المصادر التاريخية الإسلامية عن بناء مدرسة في قلعة الكرك في الفترة المملوكية البرجية فإن هذه الدلائل الأثرية والمعمارية ، والتاريخية

تدفع للاعتقاد بأن هـذا المبنـى هـو مدرسـة مملوكيـة تشـتمل علـى جميع مميزات المـدارس المتطـورة في هـذه الفـترة ، وليـس كمـا ذكـر سـابقاً مـن قبـل البـاحثين والعلماء الذين اعتقدوا بأن هذا المبنى ربما استخدم كقصر يحتوي على العديد من الدور السكنية .

الهوامش

١ ـ غوانمة ، يوسف ، **التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي**، دار الفكر ، عمان ، ١٩٨٢ ، ص٢٥٩ .

٢ ـ المومني ، سعد ، **القلاع الإسلامية في الأردن في الفترة الأيوبية المملوكية** ، دار البشير ، عمان ، ١٩٨٨ ، ص١٦٢ .

٣ ـ المومني ، سعد ، **نفس المصدر** ص١٥٩ .

Samall, R. C, **Crusading Warfare** (1097 - 1293) Newyork, 1967, p. 219.

غوانمة ، يوسف ، **نفس المصدر** ص٢٦٠ .

٤ ـ **المرجع نفسه** ، ص٢٦٠ .

٥ ـ **المرجع نفسه** ، ص٢٦٣ .

٦ ـ **المرجع نفسه** ، ص٢٦٤ .

٧ ـ غوانمة ، يوسف ، **إمارة الكرك الأيوبية** ، دار الفكر ، عمان ، ١٩٨٢، ص١٦٨ .

المومني ، سعد ، القلاع ، ص١٦٧ .

٨ ـ ابن شداد : عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم (ت ٦٨٤هـ ـ ١٢٨٥م) **الأعلاق الخطيرة في ذكر إمراء الشام والجزيرة** في المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٣ ـ ١٩٦٣ ، تحقيق دومنيك سورديل وسامي الدهان، ص ٧٧ ـ ٧٨ .

أبو الفداء : الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين (ت ٧٣٢هـ - ١٣٣١م) **المختصر في أخبار البشر** ، الشاهاتية ، القسطنطينية، ١٢٨٦م ، جـ ٣ ، ص٢٢٦ .

- المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ - ١٤٤١م) **السلوك لمعرفة دول الملوك** ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ١٩٣٤ - ١٩٤٢ ، جـ١ ، ص٤٨٢ .

- غوانمة ، يوسف ، **إمارة** ، ١٩٨٢ ، ص ٣١٧ - ٣٢٣ .

٩ - ابن شداد ، **الأعلاق الخطيرة** ، جـ ٣، ص٧٩ .

- أبو المحاسن : يوسف ابن تغري بردي ، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، القاهرة ، ١٩٣٢ ، ج٧ ص١٩٤ .

- غوانمة ، يوسف **إمارة الكرك الأيوبية** ، ١٩٨٢، ص٣٢٧ - ٣٢٨ .

١٠ - المومني ، سعد ، **القلاع الإسلامية في الأردن في الفترة الأيوبية المملوكية** ، ١٩٨٨ ، ص١٧٢ .

١١ - غوانمة ، يوسف ، **التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي** ، عمان ، ١٩٨٢ ، ص٢٦٤ .

١٢ - المرجع السابق ، ص٢٦٤ .

١٣ - المرجع السابق ، ص٢٦٧ .

١٤ - المومني ، سعد ، **القلاع الإسلامية في الأردن في الفترة الأيوبية المملوكية** ، **١٩٨٨** حيث أورد وصفاً مقتضباً للمدرسة ، وفي النهاية يرجع هذه المدرسة إلى العصر الأيوبي . ولكن المدارس الأيوبية تختلف اختلافاً كبيراً عن تصميم هذه المدرسة . إذ تتكون المدرسة في العصر الأيوبي من صحن وإيوانين

فقط ، ومثال على ذلك المدرسة الكاملية والمدرسة الصالحية في القاهرة ، راجع فكري ، أحمد ، **مساجد القاهرة ومدارسها** ، ج٢ ، دار المعارف ، ١٩٦٩ ، ص٥٥ - ٧٥ .

- مويلر (م) ، **القلاع الصليبية** ، Muller, M .

Castles of the Crusaders, London, 1966, p. 40 .

حيث أشار المؤلف إلى أن هذا البناء هو قصر والمباني التي تحيط به قاعات معدة للسكن .

- براون ، روبين ، حفريات في القرن الرابع عشر الميلادي — **القصر المملوكي في الكرك حولية دائرة الآثار الأردنية** رقم ٣٣ - (١٩٨٩) ص ٢٨٧ - ٤ - ٣ Robin, Brown . حيث اشارت هذه المؤلفة إلى أن هذا المبنى هو قاعة استقبال لقصر يعود إلى العصر المملوكي .

١٥ - نجيب ، محمد مصطفى ، **القاهرة ، تاريخها فنونها ، آثارها** ، مؤسسة الأهرام (**العمارة في عصر المماليك**) ، ١٩٧٠ ، ص٢٤٥ - ٢٤٦ .

- نظرة جديدة على النظام المعماري للمدارس المتعامدة وتطوره خلال العصر المملوكي البرجي ، مستخرج من الكتاب الذهبي للاحتفال الخمسين بالدراسات الآثارية بجامعة القاهرة الجزء الثاني عدد خاص من مجلة كلية الآثار ، ١٩٧٨ ، ص١٩ .

- مصطفى ، لمعي ، **التراث المعماري الإسلامي في مصر** ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٤ ، ص١٨ .

- فكري ، أحمد ، **مساجد القاهرة ومدارسها** ، جـ ٢ ، العصر الأيوبي ، دار المعارف ، ١٩٦٩ ، ص١٨٣ - ١٩٢ .

- سامح ، كمال ، **العمارة الإسلامية في مصر** ، ١٩٩١ ، ص١٠٧ .

١٦ - نجيب ، محمد مصطفى وآخرون ، **القاهرة وتاريخها فنونها ، آثارها**، ١٩٧٠ ، ص٢٤٥ .

١٧ - **المرجع السابق** ، ص٢٤٥ .

١٨ - نجيب ، مصطفى ، **نظرة جديدة على النظام المعماري للمدارس المتعامدة وتطوره خلال العصر المملوكي البرجي** .

١٩ - نجيب ، مصطفى ، **نظرة** ، ١٩٧٨ ، ص٢٤ - ٢٦ .

٢٠ - **نفس المصدر** ، ص٢٧ .

٢١ - **نفس المصدر** ، ص١٩ ناقش المؤلف العديد من الآراء حول أسباب تصغير المدارس في هذه الفترة ، حيث يرجح بعض الدارسين ذلك إلى أسباب دينية وبعضهم الآخر إلى الوضع الاقتصادي الذي مرت به مصر في تلك الفترة . ورغب السلاطين والأمراء في إنشاء عمائر تخدم أكثر من غرض مع حجمها. وهو يرجح هذا الرأي .

٢٢ - **نفس المصدر** ، ص٢٦ انظر كذلك الحواشي رقم ١ - ٢ - ٣ .

٢٣ - فكري ، أحمد ، **مساجد** ، ١٩٦٩ ، ص١٨٣ .

٢٤ - **نفس المصدر** ، ص١٨٨ - ١٨٩ .

٢٥ - براون ، روبين Robin, Brown **الحولية الأردنية** ص٢٩٤ .

٢٦ - ابن حجر : أحمد بن علي بن محمد العسقلاني ، **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة** ج٢ ، تحقيق محمد سعيد جاد الحق ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص٢٦٦ .

٢٧ - عبد الوهاب ، حسن ، **تاريخ المساجد الأثرية** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٤ ، ص١٦١ .

٢٨ ـ نفس المصدر ، ص١٩٠ .

٢٩ ـ نفس المصدر ، ص١٨٥ .

٣٠ ـ نفس المصدر ، ص١٩٦ .

٣١ ـ نفس المصدر ، ص٢١٩ .

٣٢ ـ نفس المصدر ، ص٢٥٣ .

ـ سامح ، كمال الدين ، **العمارة** ، ١٩٩١ ، ص١٠٧ .

٣٣ ـ نجيب ، مصطفى ، **نظرة** ، ١٩٧٨ ، ص٢٧ .

أعمال الرحلة من المشرق إلى المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى

عبد الكريم علي

جامعة دمشق / مدير التحرير

مقدمـــــة :

سبق أن كتب العديد من الباحثين والمفكرين ، عن أسباب الرحلات وفوائدها ، ولن نسهب في ذكر ذلك في هذه المقدمة .

مع أنه تجدر الإشارة إلى أن الرحلات قديمة قدم الإنسان نفسه ، ومنذ أن وجد الإنسان على ظهر الأرض ، بدأ بمحاولة التعرف على أسرار الكوكب الذي يعيش عليه .

وتنوعت أسباب الرحلات : فمنها معرفية استكشافية ، ومنها سياسية ، ومنها بدافع الهواية والمغامرة . وعلى هذا الأساس ، ذكر أن من الرحّالة من كان رجل علم أو دين أو هاوياً للسفر أو مغامراً .

وقدمت الرحلات فوائد جمة للحضارة الإنسانية بشكل عام ، حتى وصفت الرحلة بأنها عين الجغرافية المبصرة / على سبيل المثال / ، كما يراها الأستاذ الجغرافي صلاح الشامي .

ومهما كانت دوافع الرحلات ، المعلنة منها وغير المعلنة ، فقد أتصف الكثير من رجالها بدقة الملاحظة ، سواء في الوصف أو التقصي في تسجيل المعلومات والمشاهدات ، بكل دقة وأمانة .

وهناك ذكر لرحلات قدماء المصريين منذ الألف الثاني قبل الميلاد ، ورحلات يونانية ، كما يخبرنا بذلك الرحالة المؤرخ هرودوتس ولدينا اسماء كثيرة تشير إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر أمثال : ابن بطوطة وماركوبولو وفاسكو داجاما ، وكولومبس ، وتشالز داروين ، وهنري الملاح وغيرهم .

فالرحلة قديمة مستمرة في الحاضر والمستقبل ، ولن تتوقف خاصة وأنها اتخذت مساراً جديداً اضافياً هو الفضاء الخارجي .

وبما أن العديد من الرحّالة لم يكتفوا بوصف الأقاليم وطبائع السكان ، وإنما أسهموا في وصف عادات وتقاليد الجماعات في الأماكن التي زاروها[1] ، وعلى الرغم من أن مراكز الجذب والاثارة للرحلات كان المشرق ، فهناك بعض الرحلات تمت من المشرق إلى المغرب ، وسنكتفي في بحثنا هذا ، تتبع أعمال ومشاهدات وملاحظات الرحالة العرب المشارقة ، الذين زاروا بلدان المغرب والأندلس ، خلال الفترة الممتدة من نهاية القرن الأول الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي . فعلى الرغم من طول هذه الفترة وامتدادها الزمني ، لم نشهد نشاطاً ملحوظاً في ميدان الرحلة والتجوال ، بحيث يمكن مقارنة ذلك مع النشاط الذي حدث على صعيد الرحلة من الأندلس والمغرب إلى بلدان المشرق العربي . وربما يعود سبب ذلك إلى أن كثيراً من الرحالة الأندلسيين والمغاربة ، كانوا يهدفون في الدرجة الأولى من توجههم إلى المشرق ، تأدية فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة الأخرى ، ولاسيما في فلسطين . هذا بالاضافة إلى أسباب أخرى ، كانت في معظمها سياسية بحتة ، كقضية تحرير بيت المقدس من براثن الصليبيين ، التي اثارت في نفس ابن جبير الأندلسي حب زيارة الأماكن المقدسة المحررة . وهذا مايجعل الحديث عن الرحلة إلى المغرب والأندلس أكثر صعوبة ، لأن الذين زاروا المغرب والأندلس ، لم يوسّعوا دائرة تجوالهم ، فجاءت معلوماتهم قليلة ومختصرة .

وفي الوقت الذي كانت فيه أهداف الرحَّالة المغاربة واحدة تقريباً ، كانت أهداف الرحَّالة المشارقة متعددة الأسباب والجوانب . منها ما كان سياسياً كما

المحنا ، ومنها ما كان علمياً محضاً ، ذلك لأن الأندلس بشكل خاص ، لم تكن دائماً على وفاق مع السياسات التي قامت في المشرق العربي ، ولاسيما في العصر العباسي .

كان في طليعة الرحّالة المشارقة أبو اليسر ابراهيم بن محمد الشيباني ، الرياضي الكاتب الأديب المتوفي سنة ٢٩٨هـ / ٩١١م ، الذي انتقل من بغداد إلى القيروان ، حيث أقام طوال حياته . وقد عمل في القيروان موظفاً في ديوان الانشاء في عصر الدولة الأغلبية وبداية الدولة الفاطمية(٢) . وحينما ذهب إلى الأندلس ، كان في مراحل حياته الأخيرة ، عندما كلفه الفاطميون بالتجسس لصالحهم على الأمويين . وقد زورَّ رسالة توصية على لسان أنصار الأمويين من بلاد الشام ، ويبدو أن أمره أكتشف فغادر الأندلس إلى مصر حيث سجن . وليس هناك مايوضح كيفية خروجه من سجنه ، وعودته للعمل لدى الأغالبة ، وتوفي بعد عدة سنوات من قيام الدولة الفاطمية والعمل لديها(٣) .

ويشبهه من حيث التوجه والمهمة ، الجغرافي ابن حوقل الذي أرسله الفاطميون كذلك لرصد أحوال الأندلس في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، بعد أن قام عبد الرحمن الناصر لدين الله بإعلان الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٣١٦هـ ، رداً على إعلان الفاطميين للخلافة في المغرب . وقد قام بمهمته على أكمل وجه، فلم يترك شيئاً في الأندلس إلا وقام بتسجيله ورصده وتقويمه من جميع النواحي وبأدق التفاصيل وأعمقها ، وقد بدأ مهمته هذه ، بكتابة عابرة عن أحوال المغرب بشكل عام ، ومع ذلك فقد أحتوت كتاباته هذه معلومات في غاية الأهمية عن بلدان المغرب ، على الرغم من أن بلاد المغرب ، لم تكن رئيسة في برنامج عمله . و لم يترك مدينة مغربية أو بلدة معروفة ، إلا زارها

وأمعن النظر في أحوالها الطبيعية والمعاشية العامة ، من برقه الليبيـة إلى سلجلماسـة وأودغست في الصحراء المغربية ، فهـو يذكـر موقـع المدينـة أو البلـدة، ثـم يقـوم بدراسة تفصيلية مركّزة على المسـائل الاقتصاديـة وخاصـة الزراعيـة والتجاريـة ، ويبدأ بذكر أهم المحاصيل الزراعية ، وما يصـدّر منهـا إلى بـلاد المشرق والبلـدان الافريقية المجاورة والأندلس . ولايفوتـه أن يذكـر انعكـاس الأزدهـار الاقتصـادي وأثره على حياة الناس ومعيشتهم . يضاف إلى ذلك ، اهتمامـه بذكـر المسـافات بين المدن والبلدان المغربية كلها ، وبينها وبين دول أفريقية .

فقدرهـا أحيانـاً بـالمراحل وأحيانـاً بالشـهور والأيـام وأحيانـاً بالأميـال . وأستهوته في نهاية حديثه عن المغرب ، مسألة ذكر القبائل المغربية مع ذكر بعض العادات والتقاليد الاجتماعية ، التي كانت معروفة هناك في عصره[٤] .

كان دخول ابن حوقل إلى الأندلـس سنة ٣٣٧هـ / ٩٤٩م في عصر عبد الرحمن النـاصر لديـن الله ، أول الخلفـاء الأمويـين فيهـا . وقـد وصفهـا بالسـعة والبحبوحة في شتى الميادين ، وعزا ذلك إلى وفـرة انتاجهـا ، مـع وفـرة ضرائبهـا ومكوثها على الوارد والصادر منها . وتوقف عند أحوال وصفات سكانها فقـال (ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يـده مـع صغـر أحـلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم ، وبعدهم عن النـاس والشـجاعة والبسـالة والفروسية ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال ...)[٥] .

وذكر أن معظم الأرقاء ، الذين كانوا يصدّرون إلى المشرق وغـيره ، كـان مصدرهم الأندلس ، حيث كـانوا يجمعـون ويؤهلـون قبـل تصديرهـم إلى بلـدان الطلب ، وكان اليهود هم الذين يقومون بهذه العملية[٦] . وقام بذكر المدينة الـتي شيدها النـاصر لديـن الله وهـي مدينـة الزهـراء[٧] . فذكـر أن أبنيتهـا كـادت

أن تتصل بأبنية قرطبة ، ونقلت إليها جميع مستلزمات ودواوين الدولة[8] .

وقال عن مقدار جبايات الأندلس في عهد الناصر لدين الله حتى سنة ٣٤٠ / ٩٥٥م : مالم ينقص عن عشرين الف ألف دينار إلا اليسير القليل ، دون مافي خزائنه من المتاع والحلي والمصاغ وآلة المراكب . ولفت نظره وضع الجيش في الأندلس ، فقال : وليس لجيوشهم حلاوة في العين لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها ، وإن شجعت أنفسهم ومرنوا بالقتال ، فإن أكثر حروبهم تنصرف على الكيد والحيلة ، وما رأيت ولا رأى غيري بها إنساناً قط جرى على فرس فاره أو برزون هجين ورجلاه في الركابين ، ولايستطيعون ذلك ، ولابلغني عن أحدهم لخوفهم من السقوط عند بقاء الرجل في الركاب .. وما أطبقت قط جريدة عبد الرحمن بن محمد ولامن سبقه من آله وآبائه على خمسة آلاف فارس ممن يقبض رزقه ويختم عليه ديوانه ، لأنه مكفي المؤونة بأهل الثغور من أهل جزيرته ماينوبه من كيد العدو ومن يجاوره من الروم ، ولاعدو عليه سواهم ، وقلما يكترث بهم ، وربما طرقه في بعض الأحايين مراكب الروس والترك ، وقوم في جملتهم من الصقالبة والبلغار . وربما انصرفوا خائبين)[9] .

وما يؤكد صحة ملاحظاته عن أهل الأندلس ، ماذكره ابن عذاري المراكشي عند حديثه عن استعانة المغاربة بالأسبان لمهاجمة قرطبة سنة ٤٠٠هـ / ١٠١٠م حيث يقول : « كان على رأس النصارى الأسبان رجل يسمى ابن مامة النصراني ، الذي قال عن أهل قرطبة : كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة، فإذا القوم لادين لهم ولاشجاعة فيهم ولاعقول معهم ، وإنما أتفق لهم ما أتفق من الظهور والنصر بفضل ملوكهم فلما ذهبوا انكشف أمرهم ، إلى أن يقول :

كان أصحابي يغيرون ويسرقون بدون أمر ، ثم يأتي أهـل قرطبـة فيشترون منهم نهبهـم وأمـوال أصحـابهم المسلمين ، فليـس مـن القـوم عقـل ولاشـجاعة ولادين[١٠] .

واهتم ابن حوقل بشكل خاص بالماشـية الـتي تعيـش في الأندلـس، فوصفهـا بأنها من الأنواع المقاومة للأمراض والغزيرة الانتاج والفائدة . كما وصف بغـال الأندلس بأنها من أحسن بغال الدنيا ، لأنها سريعة المشـي وقوية التحمـل ، بـل أيضاً لأنها حسنة الشكل ، مختلفة الألوان ، مقاومة للأمراض[١١] ، ومن الأندلس انتقل إلى صقلية ، فاسترعى انتباهـه هنـاك عـدد مـن الأمـور ، كـان في مقدمتهـا كثرة المساجد ، التي قال عنها : إنهـا كـثرت وتعـددت بسبب حـب الصقليـين للمباهـاة والمغـامرة ، وليـس بسـبب التقـى وكسـب المثوبـة أو بدافـع الايمان[١٢] .

وذكر أن الأربطة كانت كثيرة هي الأخرى على السواحل ، وقال : « إنها كـانت مشـحونة بالريـاء والنفـاق والبطـالين والفسّـاق والمتمردين مـن شـيوخ وأحداث ، اجتمعوا على أشياء فاسدة وكريهة .

وهنا لابد من الاشارة إلى أننـا لانتفـق مـع ابـن حوقـل في هـذا الموضـوع، فالأربطة على السواحل كانت تؤدي أكثر من وظيفـة ، فهـي مـن جهـة أمـاكن للعبادة ، يعيش البعض فيها بشكل دائم ، والبعض الآخر بشـكل مؤقـت ، ومـن جهة ثانية ، فكان للأربطة وظيفة دفاعية فهي عبارة عن نقاط الحراسة والانذار ، وهي مراكز دفاعية أمامية ، تتلقى الصدمة الأولى عند مهاجمة حدود الدولة .

وليسـت كمـا ذكـره ابـن حوقـل ، والذيـن يسـكنون الأربطـة ليسـوا على المستوى الذي ذكره، فقد بالغ في الأمر أكثر مما يجب ، ولفت انتبـاه ابـن حوقـل

في صقلية أيضاً كثرة المعلمين ، وعزا ذلك إلى فرارهم من الغزو ورغبتهم في التقاعس عن أعمال المجاهدة والنضال ، لأن الولاة ، كانوا لايتركون أحداً في البلد عند قيام الغزو ، إلا الذين يعملون في التعليم ، وأولئك الذين يدفعون الفدية.

ويعلق على ذلك بحدة ومرارة بقوله : « وكان قد سبق الرسم باعفاء المعلمين قديماً بينهم وحملت عليهم المغارم ، ففرغ إلى التعليم بلههم ، وحسّنه لديهم جهلهم مع قلة الانتفاع به والجدوى منه ، فإن منهم الكثير تمر به السنة فلا يصيب من جمع صبيانه وهم كثير ، عشرة دنانير ، فأي منزلة أقبح وصورة أوقح من رجل باع ما أوجب الله تعالى عليه من الجهاد وشرفه والغزو وعزّه بأحسن منزله وأسقط ضيعة » . وذكر إنه قام بتأليف كتاب سمّاه (كتاب صقلية) جمع فيه كل فضائلهم ورذائلهم وخصائصهم وطباعهم وأطعمتهم وعاداتهم إلى غير ذلك من أمور . ووصفهم بأنهم أقذر أهل الأرض بقوله : « وليس يشبه وسخهم في دورهم وسخ أقذار اليهود ، ولاظلمة منازلهم وسوارها سواد الأتاتين والأفران ، وأجهلم منزلة يسرح الدجاج على مقعده ، وتذرق الطيور على مصلاه ومخدته »(١٣) . وهكذا لم يترك ابن حوقل شيئاً في المغرب والأندلس وصقلية إلا جاء على ذكره بعين الناقد المتفحص المنصف أحياناً والمتجني أحياناً آخرى ، فقد عكست أقواله عن المغرب مصالحه التجارية، كما عكست أقواله عن الأندلس وصقلية ميوله السياسية التي من أجلها ذهب إلى الأندلس، وظهر تأثيرها على شخصيته بشكل واضح وجلي وهذا ماجعله يطيل الاقامة في قرطبة ، زمن عبد الرحمن الثالث أقوى حكامها الأمويين وأقدرهم ، فوصفها بأنها بغداد الثانية(١٤) .

وفي عصر ملوك الطوائف ، وصل إلى الأندلس قادماً من بغداد رجل يدعى أبو الفتوح ، وكان يجيد علوم الفلك والفلسفة والأدب ، وقد اشتهر أمره في هذا العصر، الذي كان السياسيون فيه يعتمدون على الشعراء كوسيلة لنشر سياسيتهم وأهدافهم العامة . وقد اتصل في بداية رحلته في الأندلس بحاكم دانية، الذي كان من علماء اللغة والأدب ، فاشتغل أبو الفتوح معه بشرح الجمل في النحو ، اضافة إلى اشتغاله بالفلسفة وعلم النجوم وحركات الكواكب . ثم رحل إلى سرقسطة في شمال شرق الأندلس ، لكن اقامته فيها لم تطل لأسباب غامضة ، فرحل إلى غرناطة ، وفيها جلس لتدريس الأدب والاشتغال في أعمال التنجيم والتنبوء مما سيكون عليه المستقبل ، وكان الحاكم في غرناطة باديس الزيري ؛ الذي تنبأ له أبو الفتوح بأن ابن عمه يطمح في ملكه ، وان باديس سيفقد حكمه وسلطته ..

ولكن هذه النبوءة لم تصدق ، رغم اعتماد ابن عم باديس لها ومحاولته التآمر على السلطة مع ابن عمه / ياسر / ولكن المؤامرة فشلت وكشف أمرهم وفرّ أبو الفتوح إلى خارج غرناطة ، وبعد أمد قصير تمكن باديس من القبض عليه ، فأودعه السجن ، وكان لباديس شقيق يدعى / بلقين / يحب أبا الفتوح ويدافع عنه في كل مناسبة ، فخشي باديس أن يتطور الأمر إلى الموافقة على العفو عنه فاستغل سكر بلقين ذات يوم ، وأمر بإحضار أبي الفتوح وقال له : وهل صدقتك كواذب الطوالع أيها المنجم الخائن الكاذب ، وماهي الفائدة التي عادت عليك الآن ؟ فلم يجبه بكلمة واحدة ، لأنه كان يأمل بعفوه والعودة لزوجته وأولاده في غرناطة إذا ما اكتشف أمره . واستغل باديس عدم اجابته فأجهز عليه بسيفه أمام كل الحاضرين دون شفقة أو رحمة(١٥) .

وخلال الربع الأخير من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وصل إلى المغرب مشرقي أوفده صلاح الدين الأيوبي ، هو أسامة بن منقذ ، صاحب الكتاب الشهير « الاعتبار » والذي يمكن أن نضعه بين هؤلاء الرحالة ، كونه ركز عمله على الشؤون السياسية ، التي لم تسفر عن نتيجة ايجابية بسبب عدم التجانس بين الحكام في المشرق والمغرب على كافة الصعد ، مع أن الأحداث المعاصرة كانت كافية لأن يسامح كل حاكم منهم الآخر . فليس هناك عداوات سابقة أو حروب أو ثأر ، وكل الذي حدث أن العلاقة بين صلاح الدين الأيوبي ويعقوب المنصور الموحّدي ، لم تكن حسنة وحتى الأحداث الجسام التي كان يتعرض لها الوطن العربي ، في ظل السياسة الصليبية الطامعة في أرض العرب ومقدساتهم في المشرق والأندلس على حد سواء ، لم تجعل العلاقة بينهما ترقى إلى مستوى المسؤولية والحاجة ، إذا صح التعبير ، فعندما يتعرض الوطن إلى خطر ما ، فهو بحاجة إلى تكاثف كل جهود أبنائه ، وكان أسامة بن منقذ مكلفاً بإبلاغ المنصور الموحّدي العمل على منع أساطيل الفرنج من الوصول إلى سواحل الشام وقطع المدد عنها . ومع أن ابن منقذ انتظر عودة المنصور من الأندلس ، فإن سفارته لم تتوج بالنجاح لأسباب عديدة ، ظاهرها إن رسالة صلاح الدين الأيوبي لم تكن تمجد الموحّدين[16] وباطنها يتعلق ببعض الخلافات الفكرية والتي يجب أن تنتهي أمام عظمة الموقف وحجم الخطر الذي عصف بحكم العرب المسلمين في الأندلس وإلى الأبد ، وكلف الكثير من الأموال والدماء ، حتى أمكن التخلص منه في المشرق بعد وفاة صلاح الدين.

ومن الذين رحلوا إلى المغرب ، عبد الله بن عمر بن محمد بن حموية تاج الدين أبو محمد المتوفي سنة ٦٤٢هـ / ١١٩٧م ، وأقام فيها حتى سنة ٦٠٠هـ /

١٢٠٤م بضيافة يوسف بن يعقوب بن عبد المؤمن الموحدي . ولايعرف على وجه الدقة الهدف الأساسي ، الذي ذهب من أجله إلى المغرب لكن الأقرب إلى الواقع ، والذي يبدو من ترجمته ، إن هدفه كان بقصد الرحلة والاطلاع على الأوضاع العامة في بلاد المغرب . ولكنه على الرغم من بقائه هناك أكثر من سبع سنوات ، فإنه لم يغادر مراكش خلالها ، ولم يقدم لنا معلومات موسعة عن الحياة العامة فيها[١٧] باستثناء بعض المعلومات البسيطة ، التي ذكرها ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان بقوله : « ورأيت بدمشق في أواخر سنة ثمان وستين وستمئة جزءاً بخط الشيخ تاج الدين عبد الله ابن حموية ، شيخ الشيوخ كان بها، وكان قد سافر إلى مراكش وأقام بها مدة ، وكتب فصولاً تتعلق بتلك الدولة ، فمن ذلك فصل يتعلق بهذه الواقعة[١٨] ، وينفي ذكره ها هنا فقال : لما انقضت الهدنة بين الأمير أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب غرب جزيرة الأندلس وقاعدة مملكته يومئذ طليطلة ، وذلك في أواخر سنة تسعين وخمسئة ، عزم الأمير يعقوب وهو حينئذ بمراكش على التوجه إلى جزيرة الأندلس لمحاربة الفرنج ، وكتب إلى ولاة الأطراف وقواد الجيوش بالحضور ، وخرج إلى مدينة سلا ، ليكون اجتماع المعسكر بظاهرها ، فاتفق إنه مرض مرضاً شديداً ، حتى يئس منه أطباؤه ، وحمل الأمير يعقوب إلى مراكش ، فطمع المجاورون له من العرب وغيرهم في البلاد ، وعاثوا فيها فساداً وأغاروا على المسلمين بالأندلس ، واقتضى الحال تفرقة جيوش الأمير يعقوب شرقاً وغرباً، وانشغلوا بالمدافعة والممانعة ، فازداد طمع الأذفوش في البلاد أكثر ، وبعث رسولاً إلى الأمير يعقوب يتهدد ويتوعد ، ويطالب ببعض الحصون المتاخمة له من بلاد الأندلس ، وكتب رسالة من انشاء وزير له ، يعرف بابن الفخار وهي :

باسمك اللهم فاطر السموات والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح أما بعد .... فإنه لايخفى على ذي ذهن ثاقب ، ولا ذي عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنيفية كما أنني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ماعليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل في إهمال الرعية وأخلادهم إلى الراحة ، وأنا أسومهم القهر وجلاء الديار ، وأسبي الذراري وأمثّل بالرجال ، ولاعذر لك بالتخلي عن نصرتهم إذا أمكنتك يد القدرة ، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، ونحن الآن نقابل عشرة منكم بواحد منا لاتستطيعون دفاعاً ، ولاتملكون امتناعاً . وقد حكي لي أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك عاماً بعد عام ، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فلا أدري أكان الجبن مابك أم التكذيب مما وعد ربك ، ثم قيل لي أنك لاتجد إلى جوار البحر سبيلاً لعله لايسوغ لك التقحم معها ، وها أنا أقول لك مافيه راحتك ، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان ، وترسل لي جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات(*) أو أجوز بجملتي إليك وأقاتلك في أعز الأمكنة لديك ، فإن كانت الغلبة لك ، فغنيمة كبيرة جلبت إليك وهدية عظيمة مثلت بين يديك ، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك ، واستحقّت إمارة الملتين والحكم على البرين »(١٩) .

وقد أخذ منه ابن الأبار ملاحظته التي تتعلق ببعض الأمور الإدارية في المغرب، والذي يقول فيها عن أهل الغرب : « هم في تلك البلاد يميزون فقهاء

(*) ـ المراكب والشواني والطرائد والمسطّحات : جميعها من السفن الحربية التي كانت تستخدم في البحر الأبيض المتوسط .

الجند ، فهم رؤساء ونقباء ، يراجعونهم في مصالحهم ، واليهم القسمة والتفرقة عليهم ، فيما يصل إليهم من وظائفهم ، ولكل قوم منهم موضع مقرر للجلوس بدار السلطان ، ولأكثرهم أرزاق مقرره على بيت المال ، إذ لامدارس هناك ولا أوقاف في المساجد »[٢٠] . وفي عهد الظاهر بيبرس السلطان المملوكي ، قام محمد بن سالم بن نصر الله بن واصل أبو عبد الله المازني الحموي جمال الدين المتوفي سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م برحلة إلى صقلية في سفارة إلى ملك صقلية ، الذي كان يدعى آنذاك « بالامير ومانفرد » وذلك في سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م، وهناك صنف رسالته المعروفة بالابرورية في المنطق ، وتسمى نخبة الفكر[٢١] وقد قال عن رحلته هذه : ولما وصلت إليه أقمت عنده في مدينة من البر الطويل المتصل بالأندلس وكان يحفظ عشر مقالات من كتاب إقليدس ، بالقرب من البلد الذي كنت فيه ، مدينة (لوجارة) كلها مسلمون من جزيرة صقلية ، يُعلن فيها شعار الاسلام والآذان . وكان أصحاب الامبراطور منفرد مسلمين ويُعلن في معسكره بالأذان والصلاة، وبين ذلك البلد وبين رومية خمسة ايام .

وبعد توجهي من عنده أتفق بابا الفرنج وروندافرنس على قتاله ، وكان البابا قد حرمه لميل الامبراطور إلى المسلمين ، وكذلك كان أبوه وأخوه محرمين أيضاً لنفس السبب ، وحكي لي أن قرية الامبراطور كانت قبل فردريك لوالده، ولما مات ، كان فردريك شاباً وطمع في الامبراطورية جماعة من ملوك الفرنج . وكان فردريك شاباً ماكراً وهو الماني الجنسية ، فاجتمع بكل واحد من الملوك الطامعين في الامبراطورية على انفراد وقال له : إني لا أصلح لهذه المرتبة ، فإذا اجتمعنا عند البابا فقل ينبغي أن يتقلد الحديث في هذا الأمر ابن الامبراطور المتوفي، ومن رضي به فأنا راضٍ به ، وإذا رد البابا الاختيار اليّ اخترتك أنت ،

فاعتقدوا صدقه في ذلك ، ولما اجتمعوا عند البابا برومية قال البابا للملوك : ماتريدون ومن هو الأحق بهذه المرتبة ؟ ووضع تاج الملك بين أيديهم فقال كل منهم ، حكمت فريدريك في ذلك فإنه ولد الامبراطور ، فقام فريدريك وقال : أنا أحق بتاج أبي ومرتبته والجماعة قد رضوا به ، ووضع التاج على رأسه ، وخرج مسرعاً وقد حصل جماعة من الألمان الشجعان راكبين وسار بهم على حميّة إلى بلاده ، واستمر منفرد بن فريدريك في مملكته حتى قصده البابا وراندافرنس بمجموعهما فقاتلوه وهزموه وقبضوا عليه ، وأمر البابا فذبح منفريد وملك بلاده بعده راندافرنس سنة ثلاث وستين وستمئة ظناً[٢٢] .

وعلى الرغم من أن ابن واصل هذا لم يكن رحالة بالمعنى الدقيق ، فإنه كتب أشياء مهمة عن صقلية ، ولاسيما فيما يتعلق بتأثر أهل صقلية آنذاك بالحضارة العربية الإسلامية . فقد ذكر أن الصقليين يعملون بأساليب الادارة العربية الاسلامية من خلال اعتمادهم على العناصر العربية في تنظيم شؤون البلاد ، ومنها وظائف البلاط الملكي . وبصورة عامة كانوا لايثقون إلا بالعرب المسلمين، وكان بعض ملوكهم لايتزوجون إلا المسلمات لعفتهن وفضيلتهن وكانوا من جهة أخرى يحسنون التكلم بالعربية ، وبلغ من تسامح الملك (روجار) ، أنه كان يضرب نقوده بكل لغات رعاياه ، ومنها اللغة العربية وكان بعضها يحتوي على اسم النبي محمد / صلعم /[٢٣] .

ولما عاد ابن واصل من سفارته في صقلية ، عين قاضياً للقضاة في مدينة حلب[٢٤] .

ووصل إلى المغرب الأقصى في مستهل القرن الثامن الهجري ، الشريف لبيدة بن أبي نمي نازعاً عن سلطان المماليك ، بعد أن قبض على أخويه حميصة ورميثة

أثر وفاة والدهم أبي نمي صاحب مكة ، سنة إحدى وسبعمئة ، فقام السلطان المريني أبو يعقوب بتكريمه والترحيب به ، وزاد على ذلك بأن أمر بمرافقته بعض الأشخاص ليعرفوه على مناطق المغرب ، ولانعرف على وجه الدقة ، ماهي الأشياء التي كانت تستهوي هذا الأمير خلال جولته في المغرب ، ماعدا إنه تجول وأطلع على معالم المملكة المرينية وقصورها . وكان يُقابَل خلال هذه الرحلة بالترحيب والإكرام والاحترام من جميع العمال المرينيين . ودامت هذه الرحلة حوالي خمس سنوات من سنة ٧٠١هـ / ١٣٠٢م إلى سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٦م عاد بعدها إلى المشرق[٢٥] . وحينما شعر لبيدة هذا بصدق مشاعر واحترام المرينيين له ، أشار على أحد زعمائهم وهو موسى بن رحو بتسمية اثنين من أولاده على شاكلة أسماء أهل المشرق ، فسمي الأول جمال الدين وسمي الثاني بدر الدين ، وكان قبوله لهذه الأسماء تبركاً بآل البيت ، كون لبيدة من الأشراف المنحدرين من آل بيت الرسول (صلعم) ، الذي يتمتعون باحترام وتقدير المرينيين في المغرب العربي[٢٦] . وكذلك خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي قام العمري ، صاحب كتاب مسالك الأبصار بزيارة إلى تونس ، لم يذكر الهدف منها ، وقال أنه حضر جلسة قضائية للمظالم، عقدت بصورة منتظمة وحسب أصول معترف بها . وقد ترك وصفاً وافياً لذلك[٢٧] .

وصاحب آخر رحلة من هذا القبيل ، كان عبد الباسط بن خليل الملطي الظاهري ، الذي اتجه من مصر إلى المغرب والأندلس ، وقد كان هذا الرحالة أحد كبار الإداريين بدولة المماليك بمصر . ولد في الشام سنة ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م، إلا أنه تلقى تعليمه في مصر . وأحس وهو في سن مبكرة بميل خاص

لدراسة الطب ، ولما كان المغرب متقدماً في هذا المجال وله شهرته في ميدان الطب ، فقد عقد عبد الباسط العزم على السفر لتوسيع معارفه واكمال دراسته. وتحت شعار التجارة غادر الاسكندرية على ظهر سفينة جنوية سنة ٨٦٦هـ / ١٤٦٢م ، فزار تونس وطرابلس وتلمسان ووهران .

ومن وهران أخذ سفينة جنوية إلى مالقة ومنها إلى بلش والحمة وبعدها غرناطة ، والتي كانت المركز الوحيد المتبقي للعرب والمسلمين في إسبانية ويبدو أن الطريق الذي سلكه ، كان الطريق الوحيد إلى غرناطة ، وقد سلكه قبله ابن بطوطة منذ أكثر من قرن ، وبعد ذلك بثلاثين عاماً أي في عام ١٤٩٤م أي بعد سقوط غرناطة سلكه الرحالة الألماني هيرونيم مونتر ووضعه في كتابه الرحلة الاسبانية .

ولم يتمكن عبد الباسط من تحقيق حلمه بزيارة قرطبة ، على الرغم من أن التجار المسيحيين والمسلمين كانوا يتنقلون من منطقة إلى أخرى بحرية تامة . وكان السبب الذي حال دون ذلك ، اصابته بجروح بالغة في معركة شخصية ، وحين تعافى من جراحه ، أخذ طريق العودة ، فبلغ وهران في شباط من عام ١٤٦٦م ثم مصر في العام التالي . وقد عاش عبد الباسط طويلاً ، حيث توفى قبل احتلال العثمانيين لمصر ٩٢٠هـ / ١٥١٦م بوقت قصير[٢٨] . وفي كتابه « الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم » يولي مدينة غرناطة بعض الاهتمام، فهي تذكره قبل كل شيء بمدينة دمشق ، التي كان يعرفها جيداً ، وكثيراً ما كان يعود للمقارنة بين المدينتين دون أن يورد أمثلة ملموسة لأوجه الشبه بينهما .

وعلى الرغم من كل هذا ، فإن سرده للأحداث يتصف بالأمانة والبساطة،

بل ويكتسب قيمة كبيرة لأنه ترجمة لأحاسيسه المباشرة ، تلك الأحاسيس التي يستشعرها أي عربي قادم من المشرق ، حيث يجد نفسه أمام الآثار العربية الرائعة في الأندلس . ويمكن من خلال عرضه أن يستشف ذلك الشعور بالأسى، الذي يستولي على قلب كل عربي مخلص ، وهو يبصر تقدم الاسبان التدريجي نحو الجنوب ، ويشعر في قرارة نفسه بأن أيام العرب في تلك البلاد قد أصبحت معدودة(٢٩) .

هذه هي أهم الرحلات المشرقية إلى المغرب والأندلس ، والتي لم تكن رحلات بالمعنى الحقيقي للكلمة باستثناء واحدة منها ، هي رحلة ابن حوقل التي شملت المغرب والأندلس وصقلية ، وهي البلاد التي كان يتطلع للسيطرة عليها الخلفاء الفاطميون ، الذين كانوا يحلمون بحكم دولة يكون قسمها الغربي الأراضي التي فتحها العرب وسيطروا عليها في الأندلس وماحولها ، وقسمها الشرقي الأراضي التي كانت تحت السيطرة الأموية . لذلك أرسلوا ابن حوقل وكلفوه بدراسة الأندلس وصقلية دراسة مفصلة وعلى مختلف الصعد ، وقد نجح في ذلك نجاحاً باهراً ، ويعد كتابه « صورة الأرض » الذي يضم في ثناياه هذه الدراسة ، من أهم الكتب الجغرافية المتعددة المرامي والأهداف عن الجناح الغربي للدولة العربية الإسلامية .

أما بقية الرحلات فقد كانت قصيرة الأمد ، محدودة الرقعة ، وكثيراً ما اقتصرت على مدينة أو اثنتين ، بل كانت في معظمها سياسية ، حيث اقتصر عمل أصحابها على تأدية مهمة سفارة معينة ، أو أشياء أخرى كان يهدف إليها، ولم يتحقق أو يتفحص كما كان حال ابن واصل وابن حموية وعبد الباسط الظاهري وغيرهم .

ومهما كان واقع الحال أو صورة الأمر ، فإن هذه الرحلات تعبر عن شيء في غاية الأهمية ، هو أن الأرض العربية في المغرب والشرق ، كانت مفتوحة لكل المواطنين ، ولهم كامل الحرية والاختيار في أن ينتقلوا حيث شاؤوا وفي أي وقت ، دون أن يعارضهم أحد أو يتدخل في شؤونهم متدخل ، وذلك على الرغم من عدم وجود تجانس أو اتفاق على المستوى السياسي العام في المشرق والمغرب . فلماذا لاتعود هذه الحالة إلى الظهور من جديد وينتقل المواطنون العرب بحرية في أرجاء وطنهم العربي الكبير ؟ إنها أكثر من اشارة أو دعوة .

الهوامش

١ - حميدة عبد الرحمن، **إعلام الجغرافيين العرب**، ص.ص٦٦٤ ـ ٦٦٦ طبعة دار الفكر دمشق / ١٩٨٤ .

٢ - قامت الدولة الأغلبية في أفريقية (تونس) بتشجيع من العباسيين في المشرق. وقد استمرت هذه الدولة حتى نهاية القرن الثالث الهجري بعشر سنوات تقريباً .

٣ - مؤلف مجهول ـ **الأخبار المجموعة** طبعة مدريد ١٨٦٧ ،ص١٤٦ ـ ١٤٨.

ـ أحمد بدر ـ **تاريخ الأندلس** الرابع الهجري، طبعة دمشق ١٩٤٧، ص١١٠ ـ ١١١ .

٤ - من أجل الاطلاع على مزيد من التفاصيل أنظر ابن حوقل « النصيبي » **صورة الأرض**، طبعة بيروت دار مكتبة الحياة بدون تاريخ ص٦٤ ـ ١٠٣ .

٥ - ابن حوقل، **المصدر السابق** ص١١٠ .

٦ - ابن حوقل، **المصدر السابق** ص١٠٤ .

٧ - الزهراء شمال قرطبة من سفح جبل عروس ٣٢٥ ـ ٣٦٥ .

٨ - ابن حوقل **المصدر السابق** ص١٠٧ .

٩ - ابن حوقل **المصدر السابق** ص١٠٨ ـ ١٠٩ .

١٠ - ابن عذاري المراكشي **البيان المغرب** ج٣ اعتني بنشره ليفي بروفنسال طبعة باريس ١٩٣٠ ، ص٨٩ ـ ٩٠ .

١١ - ابن حوقل **المصدر السابق** ،١١٠ ـ ١١٢ .

١٢ ـ ابن حوقل **المصدر السابق**، ص١١٥ .

١٣ ـ ابن حوقل **المصدر السابق**، ص.ص١١٥ ـ ١١٦ ـ ١١٨ ــ ١٢٠ ـ ١٢١ ـ ١٢٤ ـ ١٢٥ .

١٤ ـ كراتشكوفسكي « **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** » ، بدون تاريخ نقله إلى العربية صلاح الدين، عثمان هاشم ص٢٠٤ .

١٥ ـ دوزي ـ **ملوك الطوائف** ، ترجمة كامل كيالي طبعة أولى القاهرة ـ مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٩٣٣ ص٦٨ ـ ٧٧ .

١٦ ـ الناصري ـ **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى** ج٢ تحقيق جعفر ومحمد الناصري، طبعة الدار البيضاء ، دار الكتاب ١٩٥٤ ، ص١٨٢ .

١٧ ـ أنظر أبو شامة المقدسي، **الذيل على الروضتين** عني بنشره السيد عزت العطار الحسيني، الطبعة الثانية دار الجيل بيروت، ص١٧٤ .

ـ ابن تغري بردي (الأتابكي) **النجوم الزاهرة** ، ج٦ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب وزارة الثقافة والارشاد القومي .بمصر /تا بلا/ ص٣٥٠ ، ابن كثير الدمشقي ـ البداية والنهاية ج١٣ وطبعة السعادة .بمصر بدون تاريخ ص١٦٤.

ـ الذهبي ـ **سير اعلام النبلاء** ج٢٣ تحقيق بشار عواد معروف، طبعة أولى، مؤسسة الرسالة ١٩٨٥ ص٩٦ ـ ٩٧ .

١٨ ـ يقصد بها معركة الأرك بين أبي يوسف يعقوب والأذفوش الفرنجي صاحب غرب جزيرة الأندلس ٥٩٠هـ .

١٩ ـ ابن خلكان ـ **وفيات الأعيان** ـ مجلد ٧، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار صادر بيروت بلا تاريخ ص٥ ـ ٦ .

٢٠ - ابن الأبار (محمد بن عبد الله)، **التكملة لكتاب الصلة**، ج١ عني بنشره عزت العطار الحسيني، القاهرة ١٩٥٦ ص٩٥ .

٢١ - ابن تغري بردى - **المصدر السابق** ج٨ ص١١٣ .

٢٢ - ابن الوردي (زين الدين عمر)، **تتمة المختصر في أخبار البشر** ج٢ تحقيق أحمد البدراوي، دار المعرفة بيروت، طبعة أولى ١٩٧٠ ، ص٣٤٩ — ٣٥٠، ابن حبيب (الحسن بن عمر) **تذكرة البنية في أيام المنصور وأبيه** ، ج١ تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة طبعة دار الكتب ١٩٧٦ ، ص٢٠٦ — ٢٠٧ — المقريزي - **السلوك**، ج١ القاهرة طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ ، ص٨٥١ .

- طاش كبرى زاده - **مفتاح السعادة**، ج١ تحقيق كامل بكري - دار الكتب الحديثة بلا تاريخ ، ص٢١٧ .

- الصفدي (ابن أيبك)، **الوافي بالوفيات**، ج٣ تحقيق محمد بن الحسين ومحمد بن عبد الله، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٥٣ ، ص٨٥ .

٢٣ - الحسن السائح - **مجلة البنية** — العدد الثالث — وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الاسلامية المغرب ١٩٦٢ ص٣٨ .

٢٤ - **موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين** طبعة بيروت مؤسسة المعارف ص١٨١ .

٢٥ - الناصري - **المصدر السابق** ج٣ ص٨٣ - ٨٤ ، ابن خلدون « عبد الرحمن » **العبر وديوان المبتدأ والخبر** - ج١٣ ص٤٦٩ .

٢٦ - ابن خلدون **المصدر السابق** ج١٣ ص٧٨٣ - ٧٨٤ .

٢٧ — ف — ب — هوبكنز — **النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى**، ترجمة أمين توفيق الطيبي - ليبية - تونس الدار العربية للكتاب ١٩٨٠

ص٢٤٠.

٢٨ - كراتشكوفسكي - **المرجع السابق** ، ج١ ص٤٤٥ - ٤٤٦ .

٢٩ - كراتشكوفسكي - **المرجع السابق** ، ج١ ص٤٤٦ - ٤٤٧ .